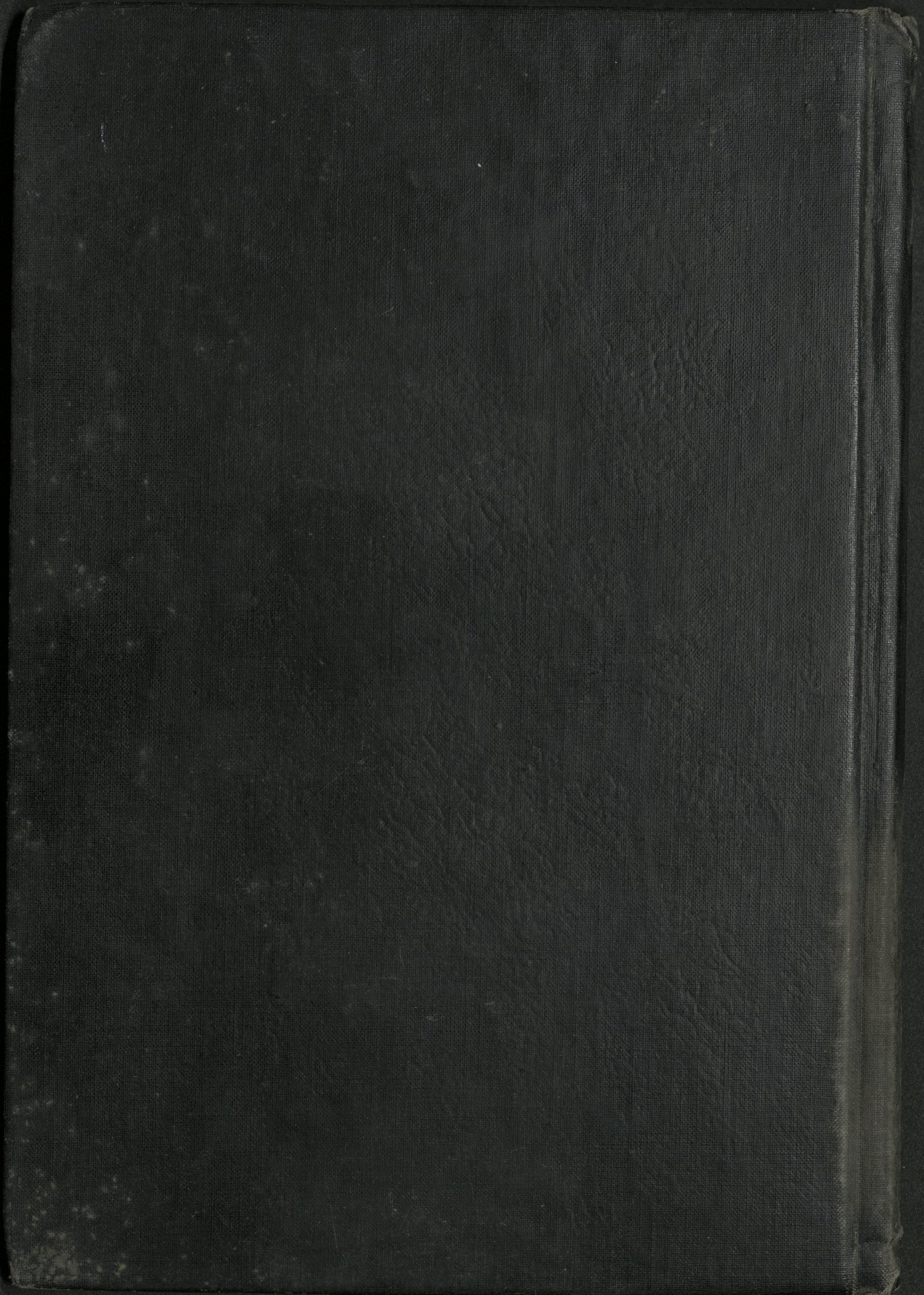
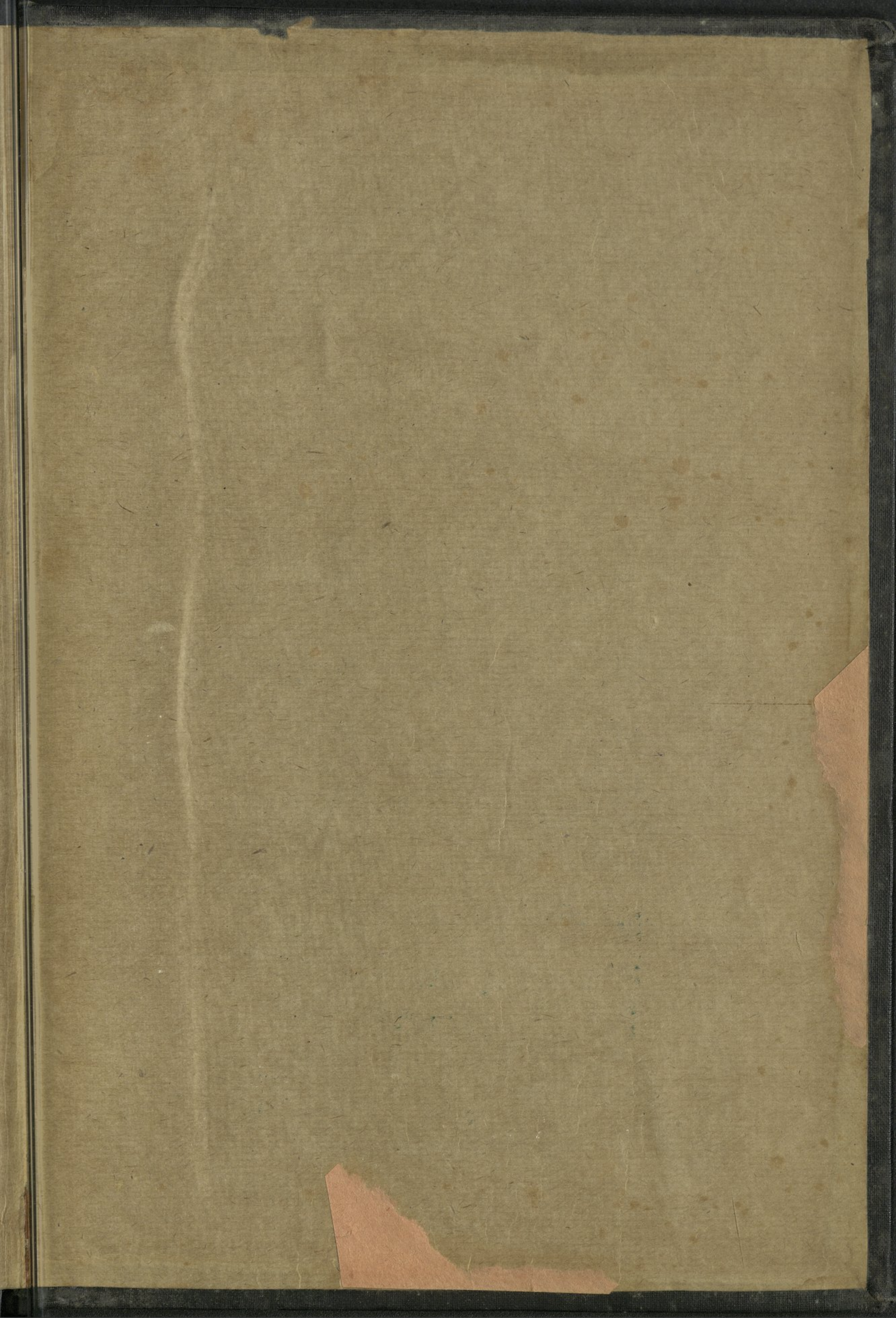
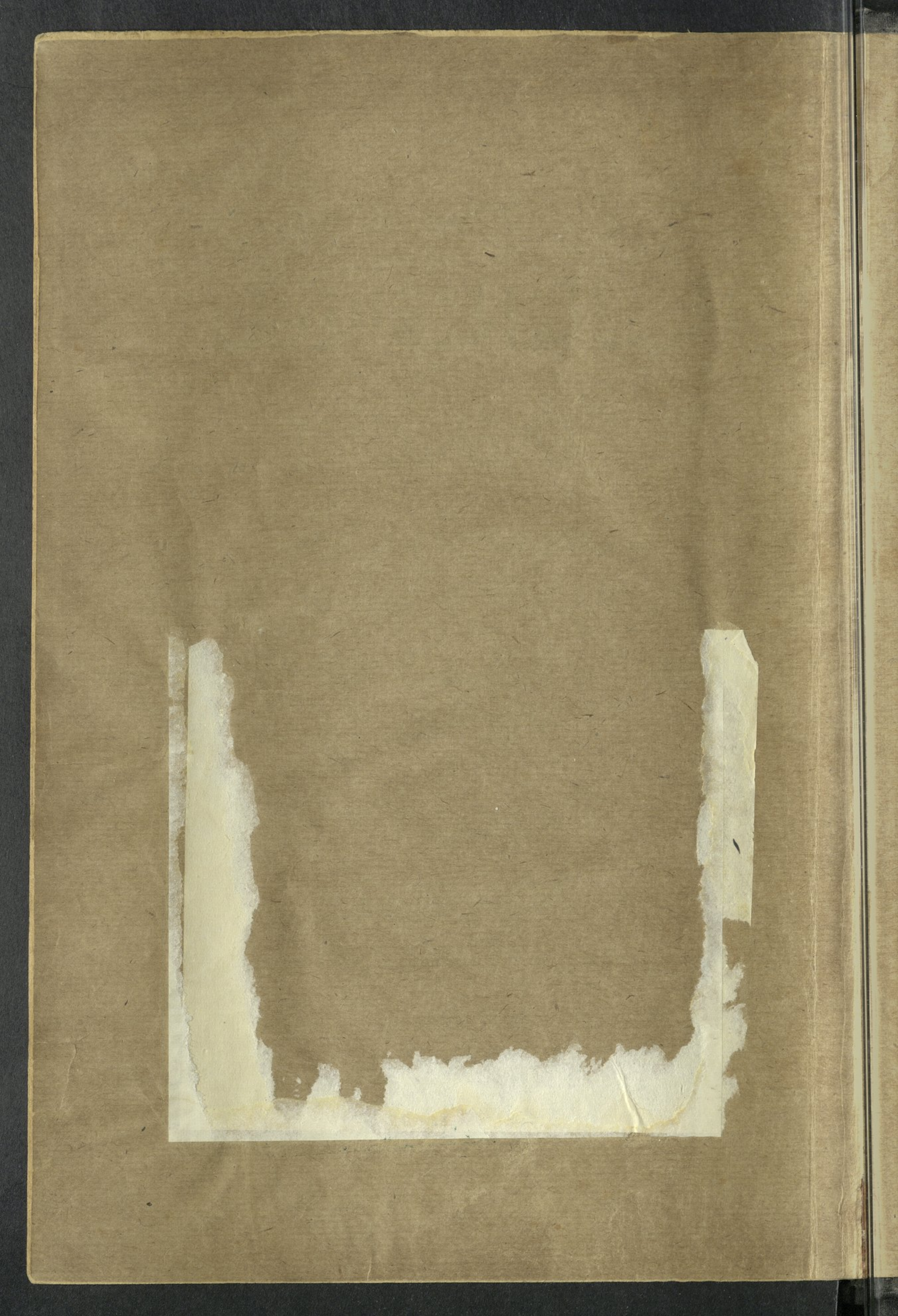
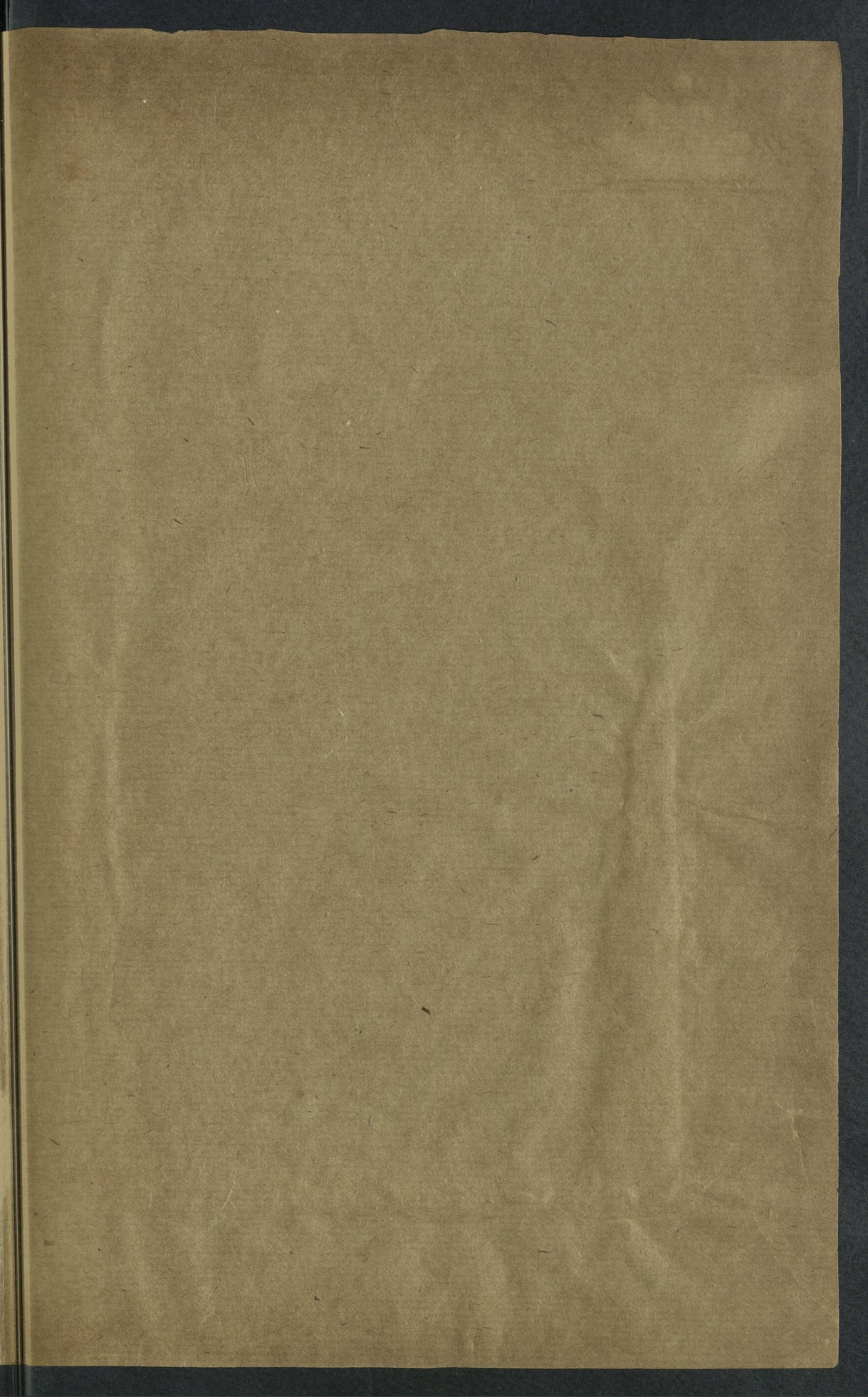








بواعث

الحرب العالمية الأولى

في الشرق الأدنى

وموجز لتاريخ حلول اوربا في هذا الشرق

تأليف
جان بيشون

نقله الى العربية
محمد عزة دروزه

عن ترجمة تركية عن الافرنسية للكاتب التركي المعروف
حسين جاهد باشين

مطبعة الكشاف بيروت



فهرست الكتاب

طبع من هذا الكتاب الف
ومئة نسخة على ورق عادي

الطبعة الاولى ، ١٩٤٦

مطبعة الكشاف بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

قرأت هذا الكتاب في هجرتي الى تركية ، فرأيت من المفيد نقله الى العربية لانه متصل اتصالا وثيقاً بفصول الرواية التي تمثل على مسرح بلادنا منذ نهاية الحرب العالمية الاولى .

وقد تضمن استعراضات وجيزة لتاريخ صلة اوروبا بالشرق وخاصة بالشرق الادنى ، ومطامعها الاستعمارية فيه ، ومؤامراتها عليه ، وجهودها ودسائسها في سبيل تحقيق هذه المطامع والمؤامرات ، وتنافسها فيما بينها في هذا المجال الى يوم انفجار الحرب العالمية المذكورة عام ١٩١٤ .

وقد جاء الاستعراض لدوري القرون الاولى والوسطى مقتضباً ، ولدور القرون الاخيرة وخاصة القرنين التاسع عشر والعشرين مفصلا بعض الشيء ، واحتوى هذا الدور قصة مطامع دول اوروبا الكبرى اي بريطانية وفرنسة والمانيا وروسية وايطالية والنمسا ومنافساتها فيما بينها مع اختصاص ما كان بين انكلترة وفرنسة من ذلك بشيء من التفصيل .

والكتاب ليس تاريخاً بالمعنى المفهوم من الكلمة ، لان فيه ثغرات كبيرة من هذه الناحية ، ولم يكتب في الحقيقة ليكون تاريخاً ، وانما كتب ليكون منبهاً للقارىء الافرنسي الى ما فات فرنسة من فوائد استعمارية بسبب خطأ أو تقصير اولياء امورها[1].

والاستعراضات التي احتواها ليست من الشؤون المجهولة بوجه الاجمال ، غير انها في الكتاب ملمومة الاطراف متصلة الحلقات ، وهذا مفيد للقارىء العربي ، لا سيما وان فيها اشياء كثيرة من صور المشادات والمطامع والدسائس والمؤامرات التي دارت حول بلادنا منذ امد طويل واتصلت بعهدنا الحاضر .

---

(١) لهذا السبب لم نحاول سد الثغرات بالتعليق او التصحيح .

وسيرى القارىء في اسلوب الكاتب الذي هو في الحقيقة اسلوب عامة الكتاب المستعمرين بل والساسة المستعمرين الغربيين من المفارقات والمبالغات ، وقلب الحقائق والنظرات الزائفة كما سيرى خلال الوقائع والاحداث التي احتوى الكتاب قصتها من اساليب المستعمرين ونواياهم وتكالبهم ، وتبريرهم كل واسطة في الوصول الى تحقيق مطامعهم ، واستغلالهم كل ثغرة وموقف وظرف وصلة ما يصل بين ما يراه الآن على المسرح وبين ما مر من فصول الرواية ، وما فيه كثير من دواعي التنبيه ومواطن الاعتبار ، فيزداد معرفة بالغرب المستعمر ، وحذراً منه ، واستمساكاً بحقه ، وحرصاً على استقلال وطنه وكرامته ، وتصميماً على الاستمرار في النضال في الدفاع عن هذا الحق والاستقلال والكرامة .

٢ صفر ١٣٦٤ — ١٧ مارس ١٩٤٥[1]

بورسه — تركية   محمد عزة دروزه

---

(١) انتهينا من بياضه الذي اعددناه للطبع في ١٥ محرم الحرام ١٣٦٥ - ٢٠ كانون الاول ١٩٤٥ في دمشق ، وقد احتفظنا بذكر التاريخ والمكان الذي انتهينا فيها من تعريب الكتاب للذكرى .

تقديم الكتاب

— ١ —

كان الشرق الادنى منذ بدء التاريخ ميداناً للتنافس والتنازع بين الامم . وهذا الحال ما زال قائماً ، وسيبقى كذلك . ذلك لان هذا الشرق هو طريق الاتصال بين اوروبا وآسيا ، او بين كتلتي البشر العظيمتين ، او بين قلب مدنيتنا الحاضرة واعني به البحر الابيض وبين الاوقيانوس العظيم الذي تتجمع فوقه ركام السحب السود ، وقد يكون كذلك لانه السد بينهما ايضاً .

من اجل هذا يصح ان يقال ان هذا الكتاب قد صدر في وقته ، فالتاريخ يكاد يكون حركة دائمة التكرر ، والمستقبل انما هو نسيج خيوط الماضي التي تتحكم فيه ، وهذا الكتاب صورة كاملة لمنازعات الشرق التي سبقت حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ؛ وقد رسمها كاتب عسكري هو المقدم جان بيشون ؛ ولقد فرض الكاتب نفسه بقلمه كما فرضها بسيفه ، وسجل لنا في كتابه ما لا نزال نعيش في جوه من امور واحداث .

ولقد قال الجنرال اماد باسلوب الساخر ان الرأي العام الافرنسي يكاد يكون في جهل مطبق بامور فاس ؛ فاذا كان هذا كذلك فماذا ينبغي ان يقال ازاء شؤون الشرق الادنى وقد اضعنا من ايدينا بسبب اخطاء رجال حكوماتنا الذين تعاقبوا على الحكم منذ عام ١٩١٨ نفط الموصل ونحاس ارغني (١) ، وقطن كليكيا واحداً بعد آخر ، ولم يبق لنا فيها شيء الا حصة متواضعة من سهام نفط الموصل ؟ ؟ وهذا فضلا عن ما منينا به من خسارة ملك يصح ان يكون لنا الزاساً ثانية في هذه الانحاء ! !

---

(١) في الاناضول وهو من اغنى وانقى النحاس في العالم — المعرب .

من اجل هذا يتحتم ان يقرأ هذا الكتاب كثير من الناس .

— ٢ —

ان هذا الشرق كما قال فولتير قد اصبح منذ ان فتح الاسكندر الكبير طريق آسيا، وغير وجه تجارة الدنيا موضوع تنافس وطمع بين جميع الدول التي قامت حول سواحل البحر الابيض، وتعاقبت عليها واحدة بعد اخرى. ولقد تعاقب على هذه التجارة خلال سبعة عصور كل من الكريديين والفينيقيين والصوريين واليونانيين والايرانيين والمعينيين والقرطاجيين؛ ثم تعاقب عليها خلال خمسة عشر قرناً كل من المصريين والنبطيين والرومانيين؛ ثم تعاقب عليها خلال عشرة قرون كل من الاحباش والبيزانطيين والبندقيين، ثم الاسبانيون والهولانديون والافرنسيون والانكليز، بينما كان البرتغاليون من الجانب الآخر يفتحون طريق رأس الرجاء استجابة لدعوة العرب الذين يقيمون على سواحل بحر الهند والذين سد البندقيون في وجههم طريق البحر الاحمر، وقطعوا صلاتهم بها .

ولقد كانت هذه الطريق تحمي نفسها وتحتفظ بخطورتها بفضل ما هي عليه من شاسع الابعاد، وما تستلزمه من صعب الوسائل؛ وقد زال اليوم عنها كل ذلك؛ فانه لم يكن في امكان اساطيل روما وبيزانطيه، ولا اساطيل الترك التي خلفتها ان تقوم برحلات بحرية في الشتاء، وكانت اساطيل قسطنطين تقضي سنة كاملة في الرحلة ذهاباً واياباً بين اوستي والاسكندرية؛ مع ملاحظة ان هذه الاساطيل هي اساطيل دولة؛ ولقد انهكت الضرائب الملاحة الحرة الشخصية وقضت عليها؛ ولم يستطع القديس بولس ان يصل من فلسطين الى روما الا في خمسة اشهر وقد مضى بليسير ثلاثة اشهر في رحلته البحرية حتى استطاع ان يصل من القسطنطينية الى قرطاجه عام ٥٣٣ حينما رأى ضرورة هذه الرحلة لازالة آثار التخريب الذي احدثه غزاة الواندال؛ وقد انتظر ويليم الفاتح عدة اسابيع ليتسنى له الريح الطيبة لعبور مضيق المانش الى الضفة الامامية في ايلول عام ١٠٦٦؛ ولم يستطع الاميرال دوبري الذي قام في ٢٥ مايس عام ١٨٣٠ من طولون ان يصل الى ميناء سيدي فروخ وينزل عسكره اليها الا في ١٤ حزيران .

فاهل القرون الغابرة كانوا يسيرون بقوة الريح فقط ، وكانوا لا يقطعون في اليوم الواحد الا احد عشر ميلا ، ولايسيرون الا محاذاة للسواحل ، وكانوا يقيمون في الليل حيث ادركهم الظلام ، ولم يكن في استطاعة المراكب الثلاثية المجاذيف ان تحمل اكثر من مؤونة ثلاثة ايام . وفي الحق ان بحارة تلك القرون جرآء ابطال جديرون بالاعجاب والاعظام !

— ٣ —

ولقد كان اليونانيون والفينيقيون مخترعين ، فاستطاعوا ان يكونوا ذوي مدنية كاملة . ولقد كانت مراكب كليوبطرا بطول ١٢٥ متراً ، وفي كل منها ثلاثة او اربعة آلاف بحار ، وخمس طبقات تجذيف ؛ وهذه المراكب هي التي كانت تجذب قواد روما الذين لم يكن لهم مثلها وليس انف كليوبطرا ولا جمالها الخيالي . فروما دمرت قرطاجة وكورنيث ، وادى هذا الى ضعفها ووهن قواها .

ويقول البروفسور غوتيه ان العقم الذي بدا من المدنية الرومانية في ساحة الاختراع يتسق مع عقمها الصناعي اتساقا تاما ، وانه مرتبط به ارتباطاً طبيعياً . ففي خلال المدة التي عاشت فيها امبراطورية روما وهي نحو خمسة قرون لم تخط اية خطوة في سبيل الرقي البحري ، بل انها تدنت بعض الشيء ؛ ولم تستطع ان تتجاوز طراز المراكب الذي ورثته من القرطاجيين واليونانيين ؛ ولقد كان من المقدر انتظار ظهور فاسكودي جاما حتى يتسنى الطواف مرة اخرى حول سواحل افريقيا . وانه لمن الحق ان يضم الى هذا الاسم اسم البحار العربي الشهير احمد مديح الذي كان يلقب بسبع البحر ، لانه هو الذي كان دليل فاسكودي جاما ؛ وهو الذي الف نحو اثنين وعشرين كتابا في الملاحة بين منظوم ومنثور كانت هي جميع ما كان في زمنه عن المعارف البحرية ١٤٦٢ — ١٤٩٠ م .

ولقد وقفت القرصنة التي يحق ان نسميها دولة في وجه السيطرة الرومانية في البحر الابيض ؛ وكانت ملجأ للاحرار المستقلين ، واستمر نضالها الذي تمركز اخيراً في الجزائر الى عام ١٨٣٠ اربعة عشر قرنا ، وكانت مما يزيد في مشاكل الملاحة في هذا البحر .

— ٤ —

وفي خلال ما كان من اوروبا نحو اسيا من حملات الطمع يبدو للعيان واقعتان عظيمتان . اولاهما الحملات الصليبية التي كان لها نتائج عظيمة ومستمرة ، وثانيتهما حملة نابـليون على مصر عام ١٧٩٩ التي كانت موضوع تفكير ورغبة منـذ لويس الرابع عشر على الاقل . ولقد كانت هـذه الحملة خاصة ثورة وانفجارا ؛ وهي لا تعـد خطوة تقدمية للاوروبيين الذين كانوا قد تغلبوا على الصعوبة بدورتهم حول سواحل افريقيا من طريق الرجاء الصالح فحسب ، بل جاءت رابطة من الداخل ايضاً . فقـد كان البشر بدافع حب السيطرة والكسب يتنازعون فيما بينهم للحيلولة دون هذه الحادثة ؛ حيث كان القرطاجيون يقضون على كل ما يصل اليهم من مراكب اليونانيين ، وكان احـد قوانين جوستنيان ٤ ايلول عام ٤١٦ ينص على عقوبة الموت لكل من يعلم الملاحة للـبرابرة لتظل محصورة في بيزانطي البحر الابيض ، وكان الهولانديون في جزر المولوك يبيدون كل مركب اجنبي يأتي الى هذه الجزر ، وجعل الاتراك ثغر السويس منطقه محرمة على النصارى ، وكانوا الى سنة ١٧٩٩ يصادرون المراكب التي تصل اليها ، ويعتقلون ملاحيها .

— ٥ —

وكل ما فكرنا فيه نحن الافرنسيين حينما هاجمنا الالمان ــ وكان ذلك طبيعياً — هو متز وستراسبورغ ، في حين كان الشرق موضع انظار وافكار الامم الاخرى ؛ فمنذ عام ١٩٠٠ اخذ الالمان يوطدون اقدامهم فيه ، ويهددون الروس والانكليز ؛ ومع انه ليس من ريب في ان زحف الالمان على بلجيكا هو الذي حرك الانكليز مباشرة ، فان السبب الرئيسي هو الخطر الذي كان يهدد مصالحهم في الشرق الادنى ؛ ولقـد ارتكب الافرنسيون خطأ كبيراً جداً بقصر تفكيرهم على الرين ، لان الخطر كان يهددهم في كل مكان .

ولقد اشتد الامر اليوم اكثر من قبل ؛ فقد زالت الابعـاد ، وحلت السيارات السريعة في بادية الشام محل الجمال ، واخذ اللاسلكي يوحد بين البشر ويجمعهم كأنما

هو سلسلة جامعة : وفقد صفته كسلاح مخيف يستعمل لخدع البشر واستعبادهم ؛ وصارت الطيارات تسبح في جو السماء كجن اساطير الف ليلة وليلة . واذا كانت قناة السويس طريق السفن ، فبين النهرين طريق السيارات والطيارات . وسورية تتقدم كل يوم خطوة في سبيل صيرورتها مركزاً رئيسياً لطريق الاتصال الجوي بين العرق الابيض الاوروبي وعروق آسيا البيضاء والصفراء ، اي ان خطورتها تزداد كل يوم عما قبله .

وكلما عرفت ظروف وادوار المفاوضات التي اعقبت حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ تزداد حيرة المرء من جهل الرجال الثلاثة الذين زعموا انهم وطدوا الحق على اساس القوة والنصر ، والذين لم يكن منهم في الحقيقة الا ان جعلونا في المركز الذي نحن فيه الان .

واستمرار جهل الطبقة العليا منوط باستمرار جهل الطبقة الدنيا . ولو ان جميع الافرنسيين قرأوا هذا الكتاب لسار امر سورية في غير الطريق الذي سار فيه ، ولم يكن من الممكن خدع الشعب وتغريره بمسائل تافهة كما اعتاد ذلك رجال الحكومة .

من اجل هذا عليكم ان تقرأوا هذا الكتاب ، وان تقرؤه غيركم ؛ فان لفرنسا فائدة عظمى في ذلك .

الجنرال بريموند

من ملاك الاحتياط

كلمة الناقل التركي

بضع كلمات عن الكتاب وجواب لا بد منه
للجنرال الافرنسي على مقدمته الغريبة

ان قراءة هذا الكتاب الذي يوصي الجنرال الافرنسي قومه بقراءته بهذه الحماسة الشديدة ستفيدنا نحن الاتراك ايضاً فائدة جلى . فالجنرال الافرنسي انما يفكر في منافع فرنسا ومصالحها ، غير ان معرفة ما يجري في افكار الغير نحو الشرق الادنى هي واجبة علينا بقدر ما هي مفيدة لنا ، لان موضوع الكلام هو وطننا.

من اجل هذا رأيت من مصلحة الاتراك ان يقرأوا هذا الكتاب فترجمته الى اللغة التركية .

وهناك نقطة مهمة اخرى في كلام الجنرال الافرنسي ، وهي ما اظهره من اسف على ما افلت من ايدي الافرنسيين من مناجم نحاس ارغني وقطن اضنه . فالناس الذين يعتبرون خرق المانيا لحياد بلجيكا وزحفهم على الارض الافرنسية عملا في غاية الظلم والتوحش لا يرون في ما يبدو اي محظور في الاستيلاء على اراضي الامم الاخرى ، مهما كان البعد بينها وبينهم شاسعاً ، ولا يلبثون ان ينسوا في هذا السبيل معاني الحق والعدل .

والجنرال الافرنسي المحترم ينسى نقطة مهمة ؛ فلن يجديه الاسف والحسرة من بعيد على معادن ارغني وقطن اضنه كما بدا منه ؛ فالحراب التركية تقوم على حراستها ؛ وانما لهي الحراب التي طردتهم عنها ! فهم لم ينسحبوا برضاهم حتى يكون من شأنه ان يأسف على ضياع نعمة كانت في ايديهم بسبب خطأ او تقصير ؛ ولو كان في استطاعتهم ان يقفوا في وجه عزيمة الترك وصولتهم لما تركوا ذلك النحاس ولا هذا القطن ! فاذا كان يرى والحالة هذه ان يأسف ، فان اسفه انما يصح ان يكون على ما كان منهم من عجز .

حسين جاهد يالشين

الفصل الاول

حلول اوروبا في الشرق الادنى في العصور القديمة والوسطى

●

كما أن مصر هي مفتاح طرق البحر الى الهند
فان سورية هي مفتاح طرق البر اليها
الجنرال نيوقس : المجلد الخامس لموسوعة
الجغرافية العسكرية لسنة ١٨٨٧

توطد المستعمرين اليونان في طرواده - فتوحات الاسكندر الكبير ونتائجها - السلوقيون واللاكديون (١) المملكة الهندية اليونانية - سيطرة روما واليونان - الصليبيون - تجارة الشرق الادنى - اكتشاف طريق رأس الرجاء - النضال بين البندقيين والبرتغاليين على طريق البحر الاحمر وخليج البصره - التنافس التجاري بين الاوروبيين في البحر المحيط الهندي بعد سقوط الامبراطورية البرتغالية .

●

— ١ —

بعد نحو قرن واحد من حروب طرواده ، نزل المهاجرون اليونانيون الى شواطئ آسيا الصغرى ، وانشأوا فيها مستعمرات ئيوليد وئيوني ودوريد ولسبوس وردوس ؛ وقد استقرت ذريتهم في هذا القسم من آسيا ، وضربت فيه جذورها على الرغم مما احدق بها من ضيق وتضييق ؛ وظلت كذلك نحو ثلاثة آلاف عام الى ان اقتلعت منه وطردت عنه بموجب معاهدة لوزان حيث تم الاتفاق على المبادلة بين السكان اليونانيين والترك في اوروبا وآسيا .

ولقد حالف التوفيق مستعمري اليونان الاولين ، فلم يلبثوا ان انتشروا في مدة وجيزة على جميع شواطئ آسيا الصغرى حتى وصلوا الى قبرص ؛ وانشأوا على

لقب آخر للبطالسة ملوك مصر

جميع شواطئ البحر الابيض مراكز تجارية ؛ ومن جملة ذلك مدينة نوقراتيس التجارية المهمة الواقعة على احد مصاب النيل في القطر المصري .

على ان اليونانيين اختلفوا وتنازعوا مع الفرس قبل الميلاد بنحو خمسة قرون ونصف ، فاستولى هؤلاء على جميع اقاليم آسيا الغربية وعلى مصر ؛ ثم اخذوا يتهيأون للاستيلاء على بلاد اليونان الأم ؛ وكان هذا مبدأ ذلك الدور الطويل من النضال ؛ حيث ظل الاوروبيون والاسيويون يتناحرون في الحروب المعروفة بحروب المادين وما بعدها الى ان مزق الاسكندر الكبير امبراطورية الفرس .

— ٢ —

ومما يروى ان ملك مكدونيا « الاسكندر » حينما اعتزم العبور الى آسيا من معبر هلسبونت (١) في سبيل اخذ ثأر اليونانيين تعمد ان يكون هو اول من يضع قدمه على الارض الاسيوية ، وحينما تم له ذلك ركز رمحه في هذه الارض ايذاناً بصيرورة هذه القارة في حوزته . وليس من ريب في انه اراد بهذه الحركة التمثيلية ان يعلن للملأ عظم خطورة العمل الذي اقدم عليه .

ومن الحق ان يقال ان اليونانيين لم يفكروا الى تلك اللحظة في التقدم الى ما وراء الشواطئ اذا استثنينا حملة كينوفون (٢) التي لم تكن في الحقيقة الا جيشاً مأجوراً للملك كورش ، في حين ان جيوش الاسكندر كانت جيوش فتح .

وقد رأى اليونانيون قبل ان يتوغلوا في القارة ان يولوا اهتمامهم اولا للسيطرة على الاقاليم القائمة على سواحل البحر الابيض الشرقية ، وان يخضدوا خاصة شوكة الفينيقيين ولقد تمكنوا بعد انتصاراتهم الكبرى في معارك غرانيك (٣) ٣٣٤ ق وايسوس (٤) ٣٣٣ ق من الاستيلاء على سورية ، وتخريب صور ، واحتلال القطر

---

(١) الدردنيل .

(٢) قائد يوناني . ولقد كان من اليونانيين في جيوش ملوك ايران جنود مرتزقة كثيرون حتى يروى ان عددهم كان (٥٠٠٠٠) حينما عبر الاسكندر الى آسيا .

(٣) اسم نهر جرت قربه معركة كبرى (٤) مدينة قديمة في ايران مشهورة بآثارها – المعرب .

المصري ، وانشاء مدينة الاسكندرية ؛ ثم استأنفوا في العام التالي رحلتهم الموفقة فعبروا الفرات والدجلة ، ومزقوا شمل بقية جيوش دارا ، ومشوا عام ٣٣١ ق الى السويس وبرسيبوليس وبابل .

وبسيطرتهم على امبراطورية الفرس انفتحت امامهم جميع ابواب آسيا ، فوصلوا الى بحر الخزر والاراشوس والبختيار ، ثم عبروا وادي كابول ، ودخلوا البنجاب الواقعة وراء نهر السوس ٣٢٦ق .

ولا بد لهذا النشاط المظيم من الوقوف عند حد ما ، وقد اضطر الاسكندر الى حسبان حساب ما وقع فيه جيشه من التعب والكلال ، فلم ير مناصاً من التخلي عن فتح الهند ، فارسل قسما من جيشه بحراً الى خليج البصرة ، وعاد على رأس بقيته براً الى كابل ، ولم يلبث ان وافته منيته فيها على غير انتظار ٣٢٥ق .

— ٣ —

ومع ان فتوحات الاسكندر لم تلبث ان تناثرت فان نتائجها السياسية والتجارية كانت عظيمة جداً .

فقد كانت عاملا رئيسياً في ادخال اسس الحضارة الاوروبية الى آسيا بما انتشر بسياقها من فن اليونان ولغتهم ومدنيتهم . وقد عرفت العالم ببعض الطرق العسكرية والفتوحات الكبرى ، حتى انها لفتت انظار نابليون الذي جاء بعد احقاب طويلة حينما اخذ يفكر ويرسم الخطط المختلفة لقهر انكلترا في الهند . فقد سار الاسكندر بعد قتل دارا في الطريق التي تؤدي رأساً من السوس الى مشهد وهرات وقندهار عابراً معابر بحر الخزر وبلاد الافغان ، ومن هناك مشى في طريق اوكسوس (١) الذي يمر من معابر الاندوس والكوش ويؤدي رأساً الى كابول وبشاور ، فوصل الى سمرقند اولا ومنها الى الاندوس . ولقد عرف بنفسه كذلك الطريق الساحلي لبلاد الفرس حينما سار فيها بجيشه مع معاونه افستيون ، حيث وصل منها الى السوس بطريق كدروسي . اما طريق خليج البصره الاخرى فقد

---

(١) اسم قديم لنهر في آسيا يغلب ان يكون النهر المعروف اليوم بجيحون .

سير فيها معاونه الثاني نيبارك .

ومن ناحية ثانية فان فتوحات الاسكندر قد اثرت تأثيراً كبيراً في سير ونشاط التبادل التجاري بين اوروبا وآسيا ، وكان هذا الى وقته مستوراً بحجاب كثيف من الاسرار ومحصوراً في ايدي البحارة الفينيقيين والتجار اليهود الذين حرصوا اشد الحرص على الاحتفاظ بالسر وحصره في ايديهم . على انهم هم انفسهم لم يكونوا يعرفون المنابع الاصلية لسلع الشرق المتنوعة ، وانما كانوا يتناولونها بواسطة قوافل البر التي تسير في طريق تدمر وبطرا وغزة ، او من المستودعات البحرية القائمة على سواحل ايله (١) وشبه جزيرة سيناء العربية .

ولم يكن البحر الاحمر في ذلك العهد هو الطريق الرئيسية الى الهند ، فقد كان سير السفن فيه شاقاً ، وكان من النادر ان تمتد رحلات الملاحين المصريين والفينيقيين الى مسافات بعيدة ، حيث كانوا على الاغلب يقتصرون فيها على سواحل بلاد العرب السعيدة .

وعلى هذا يمكن ان يقال ان اهل هذه البلاد اي السبئيين كانوا هم الوسطاء الحقيقيين لتجارة خليج البصرة وبلاد الهند من جانب ومصر وفينقية من جانب آخر ، وقد كانوا بسبيل الاحتفاظ بمنابع الثروة دون شريك يوهمون المصريين والفينيقيين بان غالب السلع التي يتناولونها من ثغري عدن وكانه انها يأتي من قلب بلاد العرب .

ولقد اكتشف الاسكندر وهو يتقدم في غرب آسيا تقدم الظافر اكثر مجاري التجارة العظمى التي كانت تجري فيها سلع الهند وغلاتها نحو الغرب ، وهي خليج البصره وبابل وتدمر وطريق اوكسوس وثغور البختياران وهرجان وبحر الخزر ، ومع ذلك فانه لم يكتشف كل الحقيقة لانه لم يلحظ جميع مدار سواحل جزيرة العرب ابتداء من خليج البصره . وكل ما هنالك ان اليونانيين ظنوا ان جميع سلع بلاد الهند وغلاتها انما تأتي الى البحر الابيض من طريق بلاد الفرس وبين النهرين وآسيا الصغرى وسورية . وان مصدر جميع السلع والغلات التي ترد الى بطرا او تدخل الى مصر هو بلاد العرب السعيدة او افريقيه .

وتنازع الزعماء المكدونيون السيطرة على البلاد التي فتحها الاسكندر . وكان من

(١) على خليج العقبه .

نتيجة ذلك ان نال بطليموس ملك فلسطين ومصر . فنشأت العائلة الملكية التي تعرف باللاكديين (١) والتي امتد نفوذها الى بلاد الحبشة .

وانتزع سلوقيوس من يد انطوغوس ولايات سوريه اي اعظم اقسام الملك اليوناني في آسيا ، فنشأت العائلية الملكية السلوقية . التي امتد سلطانها ايضاً الى نهر الغانج شرقاً . غير ان هذه الامبراطورية الواسعة لم تلبث ان انتقصت من اطرافها فاقتطع منها بعض رجال سلوقيوس الاقسام الشمالية في آسيا الصغرى ، ثم ثار الارشاكيون(٢) في سنة ٢٥٥ ق وسيطروا على بلاد الفرتيين (٣) ، ونتج عن هده الثورة ما لا بد منه وهو انفصال بلاد البختيار التي انقطعت صلتها بمملكة السلوقيين ولم يكن مناص لملوك هذه المملكة من التحول عن مقرهم القديم في اقليم بابل ، واتخاذ انطاكية عاصمة جديده لملكهم .

ولقد حاول الملك انطوغوس الثالث حوالي سنة ٢٠٥ ق ان يحيي ذكرى فتوحات الاسكندر ويعيدها الى ما وصلت اليه ، وأن يرفع شأن عائلته وكرامتها ونفوذها فاخضع لسلطانه آسيا الصغرى وبلاد البختيار ووصل الى البنجاب ، ثم انتزع من ايدي اللاكديين مقاطعات فلسطين وفينيقية ، غير انه لم يلبث ان اشتبك مع الرومانيين الذين هزموه في الترموبيل عام ١٩٢ ق ثم في ماغنيسيا عام ١٨٩ ق ، ولم يلبث خلفاؤه ان دانوا بعد قليل لروما ، وخضعوا لسلطانها ، وكان ذلك نهاية الامبراطورية السلوقية .

ولقد اعار كل من اللاكديين والسلوقيين عنايتهم باستمرار للتجارة الاسيوية . فقد استهدف الاسكندر حينما دمر صور وانشأ الاسكندرية جعل هذه مركزاً للتجارة في شرق البحر الابيض ، فبذل اللاكديون بعده جهدهم في وصلها بواسطة قناة نيلية بخليج ارسينوئي(٤) وبخليج العرب . غير ان صعوبة الملاحة في البحر الاحمر اضطرتهم الى التخلي عن هذا المشروع ، فوجهوا عنايتهم الى انشاء الثغور في معبر البرينيك(٥) وخليج هرمز ، ومن هنا اخذت سلع الشرق وغلاته تجري مدداً لا ينقطع بواسطة

---

(١) هم البطالسة في التاريخ العربي (٢) Arsacids (٣) وفي هذه البلاد قامت الدولة الارشاكية او الارساسيدية (٤) اسم مدينه مصرية قديمة على شاطىء النيل (٥) هو مضيق هرمز

القوافل الى الاسكندرية عن طريق غوتبوس والنيل . اما السلوقيون فقد انشأوا في حوض النهرين مراكز تجارية كبرى ، وقد وصلت مراكبهم جراحى وجزيرة تيلوس(١) وسارت محاذية للسواحل الاسيوية حتى بلغت تابروبان (٢) ، بل لعلهم وصلوا الى ابعد من منطقة شرسونيس دور (٣)

ومن ناحية ثانية فقد اشتبك الفريقان في نزاع ونضال في سبيل الاستيلاء على بلاد الانباط وفلسطين وفينيقية وسورية الداخلية . والسيطرة بذلك على المنافذ والطرق والمراكز التجارية التي تتصل بالثغور القائمة على البحر الابيض مما يدل على ادراك كل منهما خطورة التجارة الاسيوية . وعلى رغبة كل منهما في الانفراد بهما .

— ٥ —

وحينما انفصلت بلاد البختيار عن المملكة السلوقية نتيجة لثورة الارشاكيين على ما ذكرناه قبل قليل قام على ادارتها مستقلا الحاكم اليوناني الذي كان يتولى امرها من قبل السلوقيين . وقد ظلت هذه الدولة اليونانية الجديدة تمارس السلطات في هذه البلاد الى عام ١٤١ ق . حيث ضيق الارشاكيون والسيكتيون الخناق وحينئذ التجأت اليونانية موقتاً الى الهند . واستطاع بنانديرس اليوناني ان يوطد حكمه في البنجاب والسند وكجرات وحوض الغانج . فقامت هكذا دولة يونانية هندية احتفظت بسلطانها الى عام ٣٠ ق حيث سقطت على ايدي السيكتيين في عهد الملك هرمونيوس .

ومن الحق ان ننوه بخطورة هذه الحادثة وان نلاحظ ان أي دولة اوروبية لم فكر في بسط نفوذها وسيطرتها على هذه البلاد منذ ذلك العهد الى ان كان الفتح البرتغالي في اواخر القرن الخامس عشر اي مدة تزيد عن الف وخمسمائة عام .

— ٦ —

ولما استولت روما على بلاد اليونان ومكدونيا وجهت اهتمامها الى آسيا فبسطت سلطانها على كل ما بقي في يد السلوقيين من تركة الاسكندر .

---

(١) البحرين (٢) سيلان (٣) مالاقا

ولقد كان الباعث الذي حفز المكدونيين الى الزحف على امبراطورية الفرس والوصول الى قلبها هو فكرة الانتقام . اما الذي دفع الرومانيين الى بسط سلطانهم على الشرق الادنى فهو الحرص على السيطرة على تجارته . لقد استغرق هؤلاء في الترف والبذخ . فرنوا بأبصارهم الى ما في آسيا من ثروات وتوابل وحجارة كريمة ولآلىء ومنسوجات حريرية وعطور متنوعة .

وقد اشتبكوا في بادىء الامر مع المتريداتيين والتيغرانيين (١) في سبيل الاستيلاء على آسيا الصغرى وسورية وفنيقية . ولما انتصروا اصبحوا وجهاً لوجه امام الفرتيين فالارشاكيين . وقد ساقهم ما كان يتجدد بينهم وبين جيرانهم هؤلاء من نضال ونزاع الى ما بين النهرين وكيتسوفون (٢) وخليج البصرة . وكان النضال سجالا بين النصر والهزيمة .

ولقد بدت في اثناء ذلك خطورة نهري الفرات ودجله كطريقين عسكريين في سبيل الاستيلاء على ايران وخليج البصره وبلاد الهند . ولقد شهد قره سوس (٣) هلاك جيشه في الصحراء عام ٥٤ ق م . وكان تراجان عام ١٠٧ ب م وجوليان ٣٦٣ ب م مدينين بالنصر الذي احرزاه في زحفهم على كستوفون للاساطيل النهرية الصغيرة التي سيراها في النهرين المذكورين . ولقد استلهم نابوليون هذا الدرس في خططه التي وضعها للاستيلاء على بلاد الهند ...

ولما اصبحت مصر ولاية رومانية في سنة ٣٠ ق م حاول اوغستوس اوكتاف ان يمد سلطانه الى بلاد العرب والحبشة . فقد كان يظن ان هذه البلاد هي منابع السلع التي ترد الى البحر الابيض من طريق البحر الاحمر . وفي سنة ٢٥ ق م سير ايليوس قالوس على رأس جيش نزل في ساحل لوكومي ومشى منه الى بلاد اليمن . وكان كيوس بترونبوس يسير في نفس الوقت بجيش آخر نحو ميروبى وبلاد الحبشة .

---

(١) من الامم التي كانت تسكن في الاناضول قديما .

(٢) تعرف في كتب العرب بطيفسون او المدائن عاصمة السلوقيين سابقا والساسانيين الفرس بعدهم .

(٣) ملك ليديا في الاناضول .

على ان الرومانيين لم يلبثوا ان عرفوا ان ما ينقله السبئيون من سلع الشرق وثرواته لم يكن مصدره — باستثناء البنحور — بلاد العرب ولا بلاد الحبشة وانما كان يأتي من بلاد الهند . ومنذئذ اخذوا يبذلون جهودهم في سبيل السيطرة على سواحل جزيرة العرب . ووصل امرهم الى فرض الجزية على السبئيين .

وقد حدث في هذه الاثناء وفي عهد كلود (١) حادث مهم في تاريخ الملاحة . حيث اكتشف هيبال ظاهرة هبوب رياح معينة في مواسم معينة من السنة . فأدى هذا الى اكتشاف طرق يسار فيها رأساً من بحر الاريتره الى ثغور اقاليم نياغارا (حيدرأباد) وباريغازا (باروجي) وموسيريس (مانغالور) في شبه جزيرة الهند . والى جزيرة تابروبان (سيلان) . فغدت سلع وغلات بلاد الهند بعد ذلك ترد الى ثغور البحر الابيض بكثرة وفيض . ولم يكن الملاحون الى ذلك الوقت يجرأون على الابتعاد عن شواطىء افريقيا وبلاد العرب وايران حينما يقومون برحلاتهم بين مصر والهند ذهاباً وايابا .

ولقد بسط الرومانيون سلطانهم على تدمر وبطرا ايضا . مستهدفين بذلك السيطرة على طرق القوافل التجارية التي تسير في صحارى سورية وبلاد العرب .

على ان بعض الظروف السياسية لم تمكنهم من الاحتفاظ طويلا بالحكم المباشر في هذه الاصقاع الصحراوية . فانصرفوا اولا عن بطرا الى بصرى . ثم خربوا مدينة تدمر سنة ٢٧٢ ق م بسبب الثورة التي اشعلت نارها الزباء . ثم اخذوا يتخلون تدريجاً وخاصة في عهود روما المتأخرة وعهود بيزانطيه الاولى عن ذلك الحكم . ويعهدون به الى الامراء والملوك المحليين مثل ملوك وامراء الحيرة والغسانيين . ولقد ادى هذا الى حروب متواصلة انفقد بها الامن في طرق التجارة الصحراوية . واضطرت الرومانيين الى الانصراف عنها بالكلية ، وتركيز جهودهم وانظارهم في تجارة البحر الاحمر وبحر الخزر ويونتوليسين . فأخذت العطور والتوابل والاوفايه واللآلىء والاحجار الكريمة الاخرى تتدفق على الاسكندرية من طريق البحر الاحمر بينما كانت المنسوجات الحريرية

---

(١) من اباطرة الرومانيين .

تنقل من طريق او كسوس وبختياران وبحر الخزر وفارس . وبذلك ظل النشاط التجاري في مدار ما يسمى طريق الحرير مستمراً الى القرن الميلادي السادس حيث احضر رهبان النساطرة دود الحرير من كوتان الى الملك جوستينيان فلم تلبث تربية الدود وصناعة الحرير ان انتشرتا في بلاد اليونان وصقيلية وايطاليا

— ٧ —

ولقد استؤنف النضال بين اباطرة روما الشرقية والفرس ، واستمر الفريقان في حالة حرب متواصلة امداً غير يسير . وقد سيطر الفرس سنة ٦٠٨ ب م على سورية وما بين النهرين وبعض اقسام آسيا الصغرى . واحتلوا سنة ٦١٢ ب م انطاكية وسنة ٦١٤ دمشق وسنة ٦١٥ القدس وسنة ٦١٦ مصر . ثم قام هرقل بزحف مضاد سنة ٦٢٢ فاستولى على ارمينيه وكليكيا ثم زحف الى العراق وسحق جيش الفرس امام نينوا سنة ٦٢٧ . واستنقذ خشبة الصليب الاصلية التي استولى عليها كيخسرو عام ٦١٥ حينما فتح القدس .

واعقب هذا الفتح الاسلامي فكان سبباً في ارتداد المدنية الاوروبية الى الوراء مرة اخرى .

ولقد انتزع العرب من يد هرقل اقطار ما بين النهرين ٦٣٢ — ٦٣٤ ب م وسوريه وفلسطين ٦٣٦ ثم مصر ٦٤٠ واحداً بعد واحد . والجأوا الامبراطورية الرومانية الى الانكماش في آسيا الصغرى بعد ان كادوا يقضون عليها . على ان الملوك البيزانطيين الذين يمتون باصلهم الى الملوك المكدونيين الاولين لم يصبروا على الهزيمة . فعادوا الى الاشتباك مع العرب . وتكرر اشتباكهم معهم الحين بعد الحين . حتى انهم استطاعو ان يعدوا حدود امبراطوريتهم الى الانحاء العليا من الفرات . وقد استولوا عام ٩٦٥ على طرسوس و ٩٦٨ على حلب وانطاكيه و ٩٧٤ على اورفه ونصيبين و٩٧٦ على دمشق وبيروت . غير ان بروز الترك السلجوقيين في اوائل القرن الحادي عشر اوقف هذا الامتداد ورده على اعقابه . حيث تمكن طغرل والب ارسلان وملكشاه من انتزاع اعظم املاك البيزانطيين في آسيا الصغرى واحتفظ اخلافهم بها الى الحروب الصليبية .

— ٨ —

ومع ان التبسط الاوروبي في الشرق الأدنى كان منحصراً تقريباً في العالم الروماني واليوناني ، ومطبوعاً بطابعه فان امم اوروبا الغربيـة كانت متصلة بآسيا منـذ زمن قديم ايضاً بواسطة النصارى الكثيرين الذين كانوا يحجـون الى الارض المقدسة . ولم تكن الفتوحات الاسلامية لتسد الطريق في وجوههم ، ومن الحق ان يقال ان العرب تصرفوا تصرفاً سمحاً ، ويرجع هذا على الارجح الى الصداقة التي توطدت بين هرون الرشيد وشرلمان اللذين وحد بينهما العداء المشترك لامراء قرطبة .

غير ان الحالة قد تبدلت بعد ان حل السلاجقة في الحكم محل الخلفاء العرب . ولقد اغضب نصارى الغرب ما بدا من السلاجقة من تصرفات ومطالب ومضـايقات متنوعة وشديدة ازاء الحجاج ، فلما دعا البابا اوربان الثاني في مجمع كليرمونت الروماني عام ١٠٩٥ الى حملة صليبية استجابوا اليها بشوق وحماسة عظيمين . وهكذا خرج الصليبيون الى فتح آسيا واستولوا على القدس عام ١٠٩٩ وانشأوا الامارات النصرانية في البلاد السورية .

ومما يجدر التنبيه عليه ان فتوحات الصليبين ابعد من ان تشبه الفتوحات اليونانية والرومانية ، فقد كانت غايـة حملاتهم الاولى قاصرة على تخليص المقامات المسيحيـة المقدسة ، ومع انهم امتدوا الى اورفه شرقاً والى البحر الاحمر والنيل جنوباً فانهم اخفقوا في فتح حلب عام ١١٢٤ وفي فتح دمشق ايضاً عام ١١٤٨ كما انهم لم يستطيعوا ان يوطدوا اقدامهم في مصر . ومع ان رايات رينود دو شاتيليون قد وصلت الى البحر المحيط الهندي بواسطة زحوف وجولات قرصان جزيرة غراي الجريئة فان جيش اولطور غورديان مني بالهزيمة عام ١١٨٢ امام المدينة (١) . وفي عام ١١٨٧ سحق الامير (السلطان) صلاح الدين جيوش ملك القدس قوى دو لوينيان قرب طبريا ، وانتهت اخيراً الحملات الصليبيه بسقوط عكا عام ١٢٩٠ بالخيبة بعد جهود قرنين كاملين .

---

(١) لا ندري اي مدينة قصد المؤلف . فان كانت المدينة المنورة فالمحقق ان الصليبيين لم يصلوا الى ابوابها وكل ما كان من امر بعضهم ان فكروا في غزوها وان قام بحركة بسبيل ذلك وقفت في البلقاء حيث منيت قواه بالهزيمة . المعرب

ولقد شغلت فرنسة في هذه الحملات المكان الاول ، ومنها بدرت بادرتها الاولى ، وكان ابناؤها يؤلفون الكتلة الكبرى فيها ، كما كان اكثر امراء الامارات اللاتينية التي قامت في الشرق الادنى اثناءها من اشراف فرنسة . ومن اجل هذا فانها تصح ان تعد اصلا لجميع ما لنا من تقاليد وعنعنات في آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ! !

ولقد كانت نيات الاباطرة البيزانطيين السيئة عقبة دائمة في سبيل الصليبيين ونشاطهم والواقع ان هؤلاء كانوا يبغضون الرومانيين بقدر بغضهم للمسلمين ؛ حتى ان زعماء الحملة الصليبية الرابعة استولوا على القسطنطينية عام ١٢٠٤ بتشويق دوندولو دوغو البندقي ، واقاموا فيها امبراطورية لاتينية ، واضطروا البيزانطيين الى الفرار منها ، فالتجأوا الى آسيا الصغرى وطربزون وايزنيق ؛ ولم يستطيعوا ان يأخذوا ثأرهم ، ويستردوا سيطرتهم ، ويعيدوا امبراطوريتهم الى الحياة مرة اخرى الا بعد نحو نصف قرن ١٢٦١ على يد احد زعمائهم ميخائيل باليولوغ وبمساعدة الجنويين منافسي البندقيين في التجارة ؛ على ان هذه الامبراطورية لم تستطع ان تسيطر الا على بضع ولايات من آسيا الصغرى الى حين غير طويل . وقد انشأ امراء والفرنجة حينئذ امارات في اثينة والموره كان فيها ملجأ موقت لحضارتهم .

ولقد كانت حركة تيمورلنك التي ظهرت في القرن الخامس عشر ، والتي مكنته من السيطرة على حلب والشام ، والامتداد بعد ذلك الى انقره وازمير سبباً في توقف موقت لنشاط الترك العثمانيين الذين حلوا محل السلاجقة ؛ فلما فترت عادوا الى نشاطهم الظافر حيث استولى محمد الثاني عام ١٤٥٣ على القسطنطينية ، وكان بذلك نهاية الامبراطورية الرومانية اليونانية ، ولم يمض طويل وقت على هذا الحادث حتى انهارت امارات الفرنجة في بلاد اليونان ايضاً ؛ وكل ما كان من امر ان جماعة فرسان القديس جان التي التجأت من فلسطين الى رودس والجماعات البندقية التي قامت في مجموعة جزر البحر الابيض المتوسط استطاعت ان تطيل حياتها امداً آخر . ومهما يكن من امر فقد سد الترك العثمانيون الذين وطدوا اقدامهم على طرفي سواحل المضايق طريق آسيا في وجه الاوروبيين .

ولقد قتل الامبراطور قسطنطين دراغاميس آخر اباطرة بيزانطيه اثناء الدفاع عن

عاصمته ، ولم يترك خليفة الا ابنة اخيه صوفيا باليولوغ التي تزوجت عام ١٤٧٢ قيصر روسيا ايفان الثالث" ، فسارع هذا الى اعلان نفسه خليفة لامبراطور القسطنطينية، واتخاذ النسر ذي الرأسين شعاراً له ايذاناً بانه اصبح حامي الدين الارثوذكسي وصاحب ثأره ، وصار هذا الحادث اصلا من اصول المسئلة الشرقية الخطيرة التي واجهتها الدول .

— ٩ —

ولقد كان من نتائج الحروب الصليبية عودة الصلات الاقتصادية التي انقطعت منذ امد طويل بين الشرق والغرب من جديد ، وقد اتصلت الامارات النصرانية السورية بالامارات الاسلامية في سبيل التبادل التجاري ، واخذ تجار البندقية وجنوه وبيزه ومرسيليا ينشطون في مضمار الاخذ والعطاء مع موانيء الشرق الادنى نشاطاً قوياً .

وقد نال دوندولو دوغو البندقي من الصليبيين مكافأة على ما اسداه من معونة في ضبط القسطنطينية سلسلة من المراكز في الموره والارخبيل ورودوس كانت كالحلقات المنظومة بين بحر الادرياتيك ومضيق البوسفور .

ولقد كان البندقيون اذ ذاك متوطنين في القسطنطينية بكثرة ، وقابضين على زمام تجارة الشرق ، فلما انتقم اليونانيون لأنفسهم ، وهدموا الامبراطورية اللاتينية عام ١٢٦١ منحوا الجنويين بسبب مساعدتهم لهم ضاحية بيرا (١) واعفوهم من كثير من الرسوم الجمركية ، وبذلك اصبحت الجمهورية الجنوية صاحبة السيطرة على تجارة البحر الاسود ، فأنشأوا في القرم مركزى طانا وجافا التجاريين ، ولم تلبث ان اخذت تجري اليهما انواع ومقادير كثيرة من السلع الاسيوية . وقد كانت هذه السلع ترد اما عن طريق الدجلة وارمينية وطرابزون ، واما عن طريق تركستان وبحر الخزر وفازا واما عن طريق اوكسوس واستراخان ونهري الفولغا والدون . وفي تاريخ ١٣٧٣ استطاع الجنويون ان يتوطنوا في جزيرة قبرص ايضاً وينتفعوا بمرفأ اجازو (اياس) الواقع في ساحل ارمينية الصغرى .

---

(١) البي اوغلو في القسطنطينية

ولقد انهمك البندقيون الذين طردوا من القسطنطينية في تجارة التوابل والافاويه التي كانت متركزة في مصر ، حيث كان العرب يوردون الى مصر من جزر المولوك الفلفل والقرفة والزنجبيل وجوز الهند عن طريق البحر الاحمر . وكانت هذه الاصناف مرغوبة رغبة كبيرة لدى الاوربيين على الرغم من ارتفاع اسعارها . وقد استطاع البندقيون بعد ان نالوا اذناً من البابا بالمتاجرة مع الكفار (١) ان يعقدوا معاهدات تجارية مع هؤلاء عادت عليهم باعظم الفوائد ، وامكنهم بها اقامة قنصليات وبيوتاً تجارية في كل من الاسكندرية ودمشق .

ولقد حاولت جمهورية فلورنسا ان تنشىء علاقات تجارية مع الاسكندرية ، غير انها لم تستطع ان تنافس البندقية في هذا المضمار . وقد حاول كذلك جاك كور في اوائل القرن الخامس عشر ان ينشيء في الشرق الادني مراكز تجارية كما ان شارل السابع اوفد بتشويق هذا جان فيلاج لعقد اتفاق تجاري مع السودان المصري ، ولكن هذه المحاولات باءت بالاخفاق مع الاسف .

— ١٠ —

وقد كان فتح الترك العثمانيين للقسطنطينية عام ١٤٥٣ ضربة قاصمة للجمهورية الجنوية . ولما لم تكن فرنسا ولا انكلترا ولا هولانده ولا البرتغال اذ ذاك في حالة تستطيع معها منافسة البندقيين منافسة قوية فان هؤلاء قد حصروا في ايديهم تجارة البحر الابيض جميعه حصراً يكاد يكون تاماً .

ولقد كانت ثروة البندقية وبذخها مما يؤيد القصص المثيرة التي كان يقصها رجال البعثات التبشيرية والتجار الاوربيون الذين جرأوا على التوغل في قلب آسيا منذ بدء الحروب الصليبية . حيث كانوا يروون اخباراً عجيبة عن الثروات العظيمة التي كانت في بعض الاقاليم الاسيوية . وبهذا يسهل فهم اسباب المحاولات والجهود التي كانت تبذلها الامم الاوروبية الاخرى في سبيل الوصول الى الهند من الشرق او الغرب ، وفي سبيل اكتشاف طرق جديدة اليها ، وانتزاع تجارتها من ايدي البندقيين .

---

(١) هذه الصفة كانت تطلق على المسلمين من قبل الصليبيين ونصارى اوروبا عامة .

وقد ذكر ماركوبولو حينما عاد من رحلته في اواخر القرن الخامس عشر ان المحيط الهندي لم يكن بحراً مقفولا او مجهولا ، وان فيه حركة تجارية كبرى تمتد الى الجزر الواقعة في انحائه الشرقية . كما ان بارتيلمي دياز وبدرودوجولهام اللذين قاما برحلتهما حوالي عام ١٤٨٧ قررا ان قارة افريقية محاطة بالبحر من جميع اطرافها . وهذه المعلومات هي التي الهمت فاسكودوغاما ومكنته من الرحلة الى الهند عن طريق رأس الرجاء . وقد اخذ معه حينما نزل الى ساحل الموزامبيك ادلاء من العرب فاوصلوه في الخامس والعشرين من شهر مايس لعام ١٤٩٨ الى كلكوتة الهند . (١)

ولقد احدثت رحلة فاسكو دوغاما هذه انقلاباً عظيما في صلات اوروبا بآسيا . والواقع ان البرتغاليين قد حاولوا ان يفرضوا انفسهم كاصحاب حق احتكار السيطرة على اراضي وتجارة البلاد التي اكتشفوها ، وان يقبضوا على زمام التجارة في جميع بلاد الفرس والهند . وان يحولوا مجراها الى لشبونة عن طريق المحيط الهندي . ولقد

---

(١) قال اناليس دودياب ان القبطان النورمندي قوسين قد دار حول رأس الرجاء ايضا عام ١٤٨٨ بل انه وصل الى الهند قبل وصول فاسكو دوغاما اليها بسبع سنين . ولقد رحل بينوت بولميه جونفيل على مركب تجاري من هونتلور عام ١٥٠٣ ودار حول هذا الرأس ايضاً ونزل الى ارض مجهولة بسبب عاصفة هوجاء ثارت في وجهه بعد منطقة مياه هذا الرأس ، ولبث فيها نحو ستة اشهر ثم عاد الى فرنسه واحضر معه ابن ملك تلك الارض ، وقد لقي ترحيباً وحفاوة من اهلها . وهذه الارض المجهولة ليست سوى اوستراليا او هولاندة الجديدة كما سميت من قبل . كذلك فان جان بارمانتيه البحر هو واخوه راؤول على مركب ساقربانس في الثاني من شهر نيسان لعام ١٥٢٩ من ميناء دياب متجهاً نحو ارخبيل المحيط الهندي ولم ينزل الا في ماداغاسقار للاستقاء ثم تابع رحلته ووصل في التاسع والعشرين من شهر تشرين الاول من نفس العام الى تيقووا في جزيرة سومطره .

فلا يستطيع احد من الامم الاوروبية والحالة هذه - باستثناء البرتغال - ان ينازع الافرنسيين اولية السبق الى الرحلات في المحيط الهندي . فالانكليز لم يصلوا الى تلك الانحاء الا عام ١٥٩١ وقد دار لانجاستر قبطان المركب بنيلوب احد مراكب الرحلة الانكليزية هذه في شهرمايس عام ١٥٩٢ حول رأس قومورين . والهولانديون لم يطرقوا هذه البحار الا عام ١٥٩٥ بقيادة فورتيل هارتان . المؤلف

كان من شأن تنفيذ هذه الخطة القضاء على البندقيين قضاءاً مبرماً كما كان من شأنه ان يقضي على التجار العرب والمصريين الذين كانوا الى ذلك الوقت الوسطاء الوحيدين بين الشرق والغرب .

وقد حاول الامراء العرب ان يدافعوا عن مصالحهم المهددة بعزم ومضاء ، فنتج عن هذا ان تمكن البرتغاليون من ضبط مسقط وجزيرة سوقطرا في سنة ١٥٠٦ ومن فرض الجزية على سلطان هرمز في سنة ١٥٠٧ .

وقد هدد سلطان مصر بتحريض البندقيين البابا وملك البرتغال بقتل جميع النصارى وحرق القبر المقدس وتخريب المقامات المباركة في الارض المقدسة اذا استمر البرتغاليون في خطتهم ، فلم يجد هذا التهديد نفعاً ، وحينئذ هيأ البندقيون للمصريين جميع ما يلزم لصنع اسطول وتسييره في البحر الاحمر . غير ان هذا الاسطول لم يعتم ان ابيد في المعركة التي وقعت بينه وبين اسطول فرانسوا دالميدا في ربوع عام ١٥٠٩ ، ثم ضرب البرتغاليون الحصار على معابر البحر الاحمر وخليج البصرة ؛ غير انهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على عدن ، ولا من الدخول الى البحر الاحمر بسبب الرياح المخالفة ؛ وقد احتل البحارة الذين هم تحت قيادة ابو قروق (البو كرك) سوقوطرا عام ١٥١٣ وهرمز عام ١٥١٥ (١) ، وقد كانت غوا في ذلك الحين

---

(١) يقال انه كان لابي قروق خطتان كبريان اولاهما بناها على ما رآه من احتمال نجاح البندقيين عاجلا او آجلا في تحويل مجرى تجارة الهند الى طريق الاسكندرية ومن تحريضهم البرابرة ومساعدتهم اياهم على البرتغاليين ، فاتجه نحو امبراطور الحبشة يخوفه من جيرانه الاقوياء ويحرضه على تغيير مجرى النيل بفتح قناة ينصب منها في البحر قبل دخوله الاراضي المصرية ليكون بذلك في مأمن من خطر اولئك الجيران ، وحينئذ لا يبقى امكان لنقل السلع الهندية من البحر الاحمر الى الاسكندرية ، ويبقى البرتغاليون قابضين على زمام التجارة وحدهم بسبب سيطرتهم على معابر المحيط الهندي .

اما الخطة الثانية فهي تجهيز ثلاثمأة فارس وتسييرهم من هرمز التي لا تبعد عن بلاد العرب الا نحو سبعين فرسخاً - الى مكة لنهب قبر محمد وتخريبه ، وهذه الخطة بالاضافة الى ما سوف يعود عليه منها من ثروة عظيمة فانها تستهدف إبطال الحج وقطع التجارة القائمة بين

مركز الامبراطورية البرتغالية الهندية . وحوالي عام ١٥٣٠ م سوزاتا واريس بالبصرة وقد تمكن اسطفان دوغاما وجن واسترو بعد مدة غير طويلة اي عام ١٥٤١ من عبور البحر الاحمر والتقدم فيه الى منتهاه الشمالي ، وان لم يستطيعا الاستيلاء على السويس .

ومن النقاط الجديرة بالذكر ما قام به البرتغاليون من محاولات في سبيل وصل امبراطوريتهم الاسيوية بوطنهم الأم براً بوسائط المراسلة السريعة كما كان الامر في الازمنة المتقدمة . فقد سيروا الى هرمز عام ١٥٢٨ انطونيو تينجي برسائل مهمة الى ملك البرتغال عن طريق بادية الشام ، ولقد جاء هذا الساعي الى البصرة ثم اجتاز البادية ووصل الى طرابلس الشام . ومنها ابحر الى لشبونه . وقد قام برحلته هذه على الجمال مستعيناً ببوصلة كانت معه وبدليل عربي استصحبه .

— ١١ —

لم تدم الامبراطورية الواسعة التي انشأها البرتغاليون في آسيا لهم طويلا . لانها لم تكن متناسبة مع ما كان يملكه الوطن الأم من وسائط ومنابع . ثم ضاع استقلالهم في هذا الوطن ايضاً حينما ضمت اسبانيا البرتغال اليها عام ١٥٨٠ . ومنذئذ اخذت تجارة المحيط الهندي تنتقل تدريجاً الى ايدي الهولانديين ، وقد وجه هؤلاء اكبر همهم الى بلاد الهند وخاصة اينلوسيا .

على انه لم يمض طويل وقت حتى اخذ الانكليز والافرنسيون ينافسون منشآت الهولانديين التجارية في خليج البصره ، ولم يلبث ان صار هذا مبدأ التنافس الذي قام بين فرنسة وانكلترا على الطرق التجارية للشرق الادنى .

ولقد كان من المقدر لهذا التنافس ان يطول ويشتد ، وهذا ما سوف نستعرضه في الفصول الآتية .

الهند وبلاد العرب بسببه وحصر منابع الثروة والغنى في الامة البرتغالية . المؤلف

ولسنا ندري هل المؤلف ينقل المزعوم على علاته او انه هو الذي يعلل هذه التعليلات والنتائج ، وان تكن الاخرى ففيها ما فيها من دلالة على الجهل الفاضح . المعرب

الفصل الثاني

بدء التنافس بين فرنسة وانكلترا

•

ان وزراء جلالته يجب ان لا ينسوا في اي وقت المبدأ الناظم للسياسة الانكليزية ، وهو مبدأ المدبر وان الشيء الوحيد الذي يمكن ان يثير خوف انكلترا في هذه الدنيا هو رؤية فرنسة دولة ذات مستعمرات بحرية وتجارية

من خطاب اللورد شاتام في كانون الاول لعام ١٧٦٣

•

الامتيازات وتجارة الشرق الادنى – شركات الهند الشرقية الكبرى – تجارة اليمن – امتداد نظر فرنسه الى الطرق التجارية في البحر الاحمر وخليج البصره – المعاهدات مع امراء مصر – خطورة الاتصال السريع بالهند لدى انكلترة – حملة نابليون .

— ١ —

كان اكتشاف طريق رأس الرجاء سبباً في ابعاد سلع الهند واندوسيا عن البحر الاحمر وخليج البصرة . غير ان غلات ايران وآسيا وسلعها ظلت ترد الى تركية بواسطة القوافل البرية .

ولقد اهتم فرانسوا الاول لنيل نصيب كبير لفرنسا في تجارة الشرق ، فعهد الى جان دو لافوريست بالقيام بالمفاوضات والمساعي مع السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٥ للحصول على اول امتياز نالته فرنسة في الدولة العثمانية ، وقد حالف النجاح المفاوض الافرنسي فوطدلنا هذا الامتياز والامتيازات الاخرى التي حصل عليها عامي ١٥٤٣ و ١٥٥٤ كتتمة للاول حق التفوق والرجحان في موانيء الشرق الادني على جميع الاجانب باستثناء البندقيين ، حتي انه لم يكن لاي سفينة اجنبية ان تزور احدى هذه

الموانيء الا تحت الراية الافرنسية . وقد سارع تجار مرسيليا الى اقامة المحلات التجارية في حلب واسكندرون وطرابلس الشام وعكا وحيفا ومصر والتوطن فيها للاستمتاع بفوائد هذه الامتيازات ✗

على ان الانكليز لم يلبثوا ان دخلوا البحر الابيض ، وان انشأوا قنصلية لهم في الاستانة ، ولم يمض طويل وقت حتى حصل القنصل الانكليزي من الباب العالي على امتيازات في اراضي الدولة وكان ذلك عام ١٥٥٩ ، وقد كانت في النطاق التجاري مشابهة للامتيازات الافرنسية ، غير انه اشترط على السفن الانكليزية ان تقوم برحلاتها البحرية تحت الراية الافرنسية . وقد كان هذا الشرط من الاسباب القديمة للتنافس الافرنسي — الانكليزي ؛ وصار اكبر هم الانكليز ان يتفلتوا منه ، ومنذ اواخر القرن السادس عشر اخذوا يهملونه ؛ ثم لم يعتم النفوذ الانكليزي ان اخذ يزداد في الاستانة على حساب النفوذ الافرنسي . وكان السبب لذلك ما وقع من الفتور في الصلات السياسية بين تركية وفرنسة في عهد لويس الثالث عشر والسنين الاولى من عهد لويس الرابع عشر .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فانه كان من نتائج تأسيس الشركة الانكليزية للشرق الادني ان اخذ نشاط انكلترا التجاري يتسع ويزداد في موانيء هذا الشرق . وكانت الملكة اليصابات هي التي انشأت هذه الشركة سنة ١٥٨١ ، فصار جيراننا يزاحموننا مزاحمة شديدة في حلب وطرابلس ، وأن تركوا لنا الميدان في صيدا وعكا ويافا .

وفي عام ١٦١٢ حصلت هولاندا على امتيازات في الدولة العثمانية ، فسارعت حينئذ الى انشاء شركة الشرق . وقد تعاونت هذه الشركة مع الشركة الانكليزية على النضال ضد القرصنة ، واخذتا تسيران مراكبها بين ليفورن وازمير في قوافل محمية .

وقد انعدم تقريباً خطر البندقيين كمزاحمين في هذا الدور . فهم فضلا عن انهم لم يبق لهم ذلك التحكم السابق في الموقف فان نشاطهم التجاري خار وانحط بسرعة بعد الهزيمة التي انزلها بهم لويس الثاني عشر في أغناديل عام ١٥٠٩ .

— ٢ —

وبعد ان ضمت اسبانيا البرتغال اليها في عام ١٥٨٠ انتقلت التجارة بين اوروبا وأسيا عن طريق رأس الرجاء والمحيط الهندي الى الشركات الاستعمارية الكبرى الهولاندية والانكليزية والافرنسية .

والشركة « الهولاندية الهندية الشرقية » انشئت سنة ١٦٠٢ ، واهتمت اكثر ما يكون باندونيسيا حيث اقامت فيها منشآت تجارية واسعة ، ولم تر سفنها في خليج البصره الا عام ١٦٢٣ ، حيث نالت من سلطان ايران اذناً بفتح وكالة لها في هرمز ، وقد نقلت هذه الوكالة بعد زمن قصير الى بندر عباس ثم ذهب في تاريخ ١٦٥٢ وتاريخ ١٦٦٦ سفراء هولانديون الى اصفهان ونالوا امتيازات تجارية كبرى ولم تلبث التجارة الهولاندية ان تركزت في خليج البصرة وخاصة في البصرة وجزيرة قاروا وبندر دليم وبندرريع وقون .

وقد دبت الغيرة في التجار الانكليز من نجاح البرتغاليين فرحلوا في القرن السادس عشر الى الهند بطريق خليج البصرة ، وكان من نتائج رحلات كل من توماس اسطفانس ، وجون نيوبري ، ورالف فيتش ، ووليام ليدس ، وجمس ستوری ان انشأت الملكة اليصابات الشركة الهندية الشرقية عام ١٦٠٠ .

ولقد زار شاربينغ قائد السفينة الانكليزية اسنسيون لاول مرة في ذلك العهد ثغر مخا واغضب بزيارته باشا صنعاء غضباً عظيماً حتى شكاه الى الباب العالي . وفي عام ١٦١٠ جاء السير هنري ميدلتون الى عدن وأقام فيها بعض الوقت ثم مر بمخا ايضاً وبعد قليل اتجهت انظار الانكليز الى ايران ، واستطاعوا ان يعقدوا عام ١٦١٧ ولاول مرة مع سلطانها معاهدة تجارية ، وان يؤسسوا في اصفهان مركزاً تجارياً ، ثم انشأوا عام ١٦١٩ مركزاً آخر في جاسك الواقعة في فم خليج البصرة (١) ؛ وبعد ثلاث سنين تعاونوا مع الايرانيين على طرد البرتغاليين من هرمز . وقد انشأوا في هذا الدور مركزاً جديداً في بندر عباس ، ثم انشأوا مركزاً في البصرة عام ١٧٣٨ ومركزاً اخر في بوشير عام ١٧٦٣ .

اما نحن الافرنسيين فقد تأخرنا في هذا المضمار بسبب الحروب التي اشتبكنا فيها

---

(١) هي في الساحل الايراني قرب مضيق هرمز .

وعلى الرغم من مساعي هنري الرابع سنة ١٦٠٤ وريشيليو سنة ١٦٤٢ فان الشركة الافرنسية الشرقية الهندية لم تتأسس الا سنة ١٦٦٤ ، ولم تستقر في الهند الا بعد اربع سنين من هذا التاريخ ، وفي السنه التالية لاستقرارها عبرت ثلاث من سفنها خليج البصرة ، ووصلت الى ثغره الكبير .

ولقد لفت الرهبان الكبوشيون والمبشرون الكرمليون الموجودون في بغداد انظار فرنسة في مبادىء القرن السابع عشر ، فلم يمض وقت طويل حتي هيىء لهؤلاء ان يوطدوا اقدامهم في اصفهان وهرمز والبصرة نتيجة لاتفاق تم بين لويس الثالث عشر وشاه ايران ، وكان ذلك في سنتى ١٦٠٨ ، ١٦١٢ و١٦٢٣ ، بل لقد فكر ريشيليو في تفويض هؤلاء الرهبان ببذل المساعي واجراء المفاوضات في استملاك هرمز لحساب الدولة ، غير انه عدل عن ذلك اكتفاء بالمراسلات الودية التى جرت بين لويس الثالث عشر والشاه .

ولقد انشأ جولبرت مع بلاط الشاه صلات حسنة استمرت طويلا ، وارسلت الشركة الهندية الشرقية الافرنسية عام ١٦٦٤ اي عام انشائها بعثة الى طهران بطريق حلب ، كما ان كثيراً من السياح الافرنسيين زاروا ايران في النصف الثاني من عهد لويس الثالث عشر ، نخص بالذكر منهم جان دوتيفنون وشاردين وتاوارنيه وبيكه وجان فابره وميشيل وبول لوقاس ، وكان للبعثات التبشيرية الافرنسية خدمات جلي انتفع بها مواطنونا كثيراً ، ومما يستحق التخصيص بالذكر خدمات البعثة الكرملية في البصرة ، وقد شغل رئيسها من سنة ١٦٧٧ الى سنة ١٧٤٣ وظيفة القنصل الافرنسي بصفة رسمية .

ومن ناحية اخرى فان شاه ايران اوفد بعثة سياسية الى بلاط فرساي ، وانشأ قنصلية ايرانية في مارسيليا ، وعينت فرنسة قنصلا لها في اصفهان . وكان من آثار هذه الصلات والمظاهر الودية ان نالت شركتنا الهندية امتيازات عظيمة النفع ، وان عقدت بين الشركة وايران في سنتي ١٧٠٨ و ١٧١٥ معاهدات تجارية رابحة .

ولقد اقلقت الصلات الحسنة التي توطدت بيننا وبين ايران بال رجال جيراننا الانكليز غير ان الزحف الافغاني عام ١٧٢٢ لم يبق مجالا للقلق وما يترتب عليه ،

لان الاوربيين جميعاً اضطروا الى ترك اصفهان والتجؤ الى بندر عباس ، وقد وحد الحادث بين مصالح الافرنسيين والانكليز الى حين .

— ٣ —

وقد شمل التزاحم التجاري بين انكلترا وفرنسة اليمن ايضاً فيما شمل . فقد ظهر فيها منبع ثروة جديدة باتساع تجارة البن فيها . ولقد اخذ الناس في مصر وسورية وسائر انحاء تركيا في العصر السادس عشر يستعملون القهوة ، ولم تلبث اوروبا ان حذت حذوهم منذ سنة ١٦٥٠ . وقد كانت تجارة البن من اجل ذلك رابحة جداً . فصارت مجال تزاحم شديد بين الافرنسيين والانكليز والهولانديين .

وقد كانت سفن الشركات الهولاندية والانكليزية تشحن البن رأساً من موانيء بلاد العربية السعيدة وخاصة من مخا وتأتي به الى اوروبا عن طريق رأس الرجاء ، في حين كان تجار مرسيليا في الاسكندرية يتناولونه بواسطة القوافل ، وكانت ارباحهم فيه زهيدة بسبب تعدد الايدي المتوسطة . وقد كان الافرنسيون يبذلون جهدهم في سحب جميع محصول البن الى الاسكندرية وحصره في ايديهم ، بينما كان اولئك يعملون كل ما في وسعهم في اخذه من موانيء اليمن ، ومنع تسرب اي شيء منه الى البحر الابيض .

وقد انشأ اصحاب السفن في سان مالو شركة للاتجار بالبن عن طريق رأس الرجا للتخلص من الرسوم الجمركية الباهظة التي كانت تتقاضاها مصر ، وقامت سفن هذه الشركة بقيادة القبطان بيريفيل في تاريخ ١٧٠٨ — ١٧١٠ برحلتها الاولى الى عدن ومخا ، وفي السنين التالية جاءت بعثة مؤلفة من بعض دكاترة مؤسساتنا الهندية برآسة الدكتور غريلوريه الى مأرب ، وذهبت الى زيارة امام اليمن ، وقامت بمساع انتهت الى عقد معاهدة تجارية بيننا وبين والي مخا ، وقد اخل العرب بشروط هذه المعاهدة ولم يرعوها فسيرت شركة سن مالو عام ١٧٣٧ بعثة عسكرية بقيادة غاردجازيه للتنكيل بهم ، وكان من نتيجة ذلك ان اضطر الامام الى توقيع معاهدة جديدة اصبح لنا بها حق الاتجار في انحاء اليمن بعد ان كان محصورا في مخا .

على ان التزاحم على تجارة البن لم يستمر طويلا بين انكلترا وفرنسة . فقد اهتمت كلتاهما لزراعته في مستعمراتها ، وما ان بدت تباشير نجاح هذه الزراعة حتى فتر ذلك التزاحم .

— ٤ —

لم يكن جولبرت وهو يضع نظام شركة الهند الشرقية يمني نفسه بآمال كبيرة في مزاحمة ناجحة ومؤثرة للانكليز والهولانديين من طريق رأس الرجاء ، لانه كان مدركا لما كانت عليه شركاتهم من قوة ، وما كان لها من تشكيلات واسعة ، ثم ما كانت قد اكتسبته من خبرة التقدم . وقد حدا هذا به الى التفكير في تحويل تجارة آسيا الى طريق مصر والبحر الابيض لمصلحة فرنسة ، وانتزاع احتكارها من ايدي اولئك وكانت خطته تقوم على اساس مفاوضة الباب العالي واخذ موافقته على فتح ميناء السويس للتجارة ، حيث كانت محرمة بالكلية على الاوروبيين بسبب قربها من المدن الاسلامية المقدسة ، والخطة ان تشحن سفن شركتنا الهندية سلع آسيا وغلاتها الى هذا الميناء ثم تنقل منها الى الاسكندرية بواسطة القوافل ، ومن ثم تشحن على سفن شركة افرنسية اخرى اسمها شركة الشرق ايضاً ، وتورد الى جميع انحاء اوروبا بطريق البحر الابيض غير ان خطة جولبرت هذه لم تقترن بنجاح رغم المساعي المتواصلة التي قام بها كل من سفيرينا لاهاى وانتله ونوانتيل في سنتي ١٦٦٥ و ١٦٧٦ في الاستانة ، ولقد اعاد سنيلاي الكرة بواسطة جيراردين فذهب سعيه سدى كذلك . وحينئذ خطر ببال الوزير الافرنسي فكرة فتح قناة السويس كما فكر بونشارترين في مشروع اقامة ميناء حبشي على البحر الاحمر بدلا من ميناء السويس على اساس وصله بالاسكندرية بطريق النيل ، وارسل لهذا المقصد بونوادوميليه الى القاهرة ولونوار دوروله الى النجاشي . ومما فكر فيه حينئذ فتح مصر ايضاً . فقد اكد ليبنز في مذكرة قدمها الى لويس الرابع عشر وظلت سراً امداً طويلا ان من شأن الاستيلاء على مصر ان ييسر النقل السريع بيننا وبين الانحاء الاسيوية الغنية ، وان يوحد تجارة الهند مع تجارة فرنسة ، وان يفتح لكبار قوادنا الطريق الى فتوحات

عظمى قد تحيي ذكرى فتوحات الاسكندر وتشابهها .

ولقد حرص رجال لويس الخامس عشر في اوائل عهده على الاستمرار على الجد الذي كان يبذله وزراء لويس الرابع عشر في سبيل تبسط فرنسا في الشرق الادنى . وكانت جهود ماركي العظيمة في عهد سفارته اللامع في الاستانة — وقد امتد من سنة ١٧٢٨ الى ١٧٤١ — موجهة بنوع خاص الى ذلك الهدف الذي كان رئيسيا في سياستنا الشرقية . وقد استطاع هذا السفير في سنة (١٧٤٠) ان يجدد ويوطد امتيازاتنا السابقة .

وبعد توقيع معاهدة ١٧٦٣ التي سجلت نكبتنا الهندية حاول دوق دوبراسلين ان يعود الى خطة جولبرت وان يأخذ بثأر فرنسة من انكلترا . ولما كان مقتنعا بأن جواب الباب العالي على طلب فتح قناة السويس والبحر الاحمر لن يكون الا رفضا فقد وجه انظاره الى خليج البصرة وبادية الشام ، حيث تراءى له ان الظروف قد تكون ملائمة حيث كان السكون قد عاد الى العراق بعد ان انتهت الحرب التركية الايرانية . وقد نتج عن هذه المحاولة ان نال بطريرك بغداد موافقة الباشا على سياستنا الجديدة ، واعطيت التعليمات اللازمة الى تبرو دوبردريان قنصلنا في حلب . ومع كل هذا فقد باء هذا المشروع بالخيبة ايضاً لأن الغرفة التجارية في مرسيليا اكدت بان نفقة نقل السلع من طريق البصرة وحلب باهظة جداً . وحينئذ حول الدوق انظاره ثانية الى البحر الاحمر ، ولكنه اصطدم هنا ولأول مرة بالنفوذ الانكليزي . ومنذئذ صارت مصر موضوع تشاد وتزاحم رئيسي بين فرنسة وانكلترة في سياسة الشرق الادنى وظلت محتفظة بهذه الصفة .

— ٥ —

ولم يكن لمصر الى ذلك الوقت في السياسة الانكليزية الا مركز ثانوي ، حتى انه لم يكن لانكلترا قنصل فيها الى سنة ١٧٥٦ . ذلك لان خطط جولبرت واخلافه ظلت سرية فلم يطرأ على جيراننا وراء المانش قلق ووسواس ، وكان جل اعتمادهم من ناحية اخرى على ما كان لشركتهم الهندية من احتكار حيث كانوا يقومون بنقلياتهم التجارية والعسكرية والبريدية عن طريق المحيطات فحسب .

ولقد انكشفت خططنا ومطامعنا في مصر بسبب مذكرات بونوا دو ميليه التي نشرها الاب ستريه سنة ١٧٣٥ فنبهت بعض الاستعماريين الانكليز حيث ادركوا حينئذ خطورة مركز مصر بالنسبة لطريق الهند ، وقدروا ما يمكن ان يحدق بالتجارة الانكليزية من اخطار اذا ما صار لفرنسة نفوذ وسيطرة على برزخ السويس ، واقتنعوا بوجوب الاستعجال والتقدم على فرنسة في السياسة المصرية ، وكان من رأيهم ان تسارع حكومة لندن الى عقد اتفاقات مع امراء مصر مباشرة وتصديقها من حكومة الاستانة .

ولقد قام جمس بروسي عام ١٧٧٣ برحلة الى مصر فلفت نظر رجال الشركة الهندية الانكليزية الى ما يمكن ان يعود على انكلتره من فوائد من فتح قناة السويس وقد عقد هو نفسه اتفاقاً موقتاً مع الامير ابي الذهب وثق ووسع بمعاهدة رسمية وقعت بين الامير علي بك من جانب ووالي بنغاله من جانب آخر في ٧ مارس ١٧٧٥ وكان ما تضمنته هذه المعاهدة تخفيض الرسوم الجركية التي تتقاضاها مصر في السويس من السلع الهندية واعفاء الغلات المصرية المصدرة الى انكلتره من الرسوم وتسهيل النقل التجاري بين الطور اي السويس والقاهرة وحمايته . وقد استقر بعد ذلك جورج بلدوين احد عمال الشركة الهندية الانكليزية في مصر للاشراف على الشؤون التجارية الهندية — الانكليزية . وصار هذا منذئذ بطل النفوذ البريطاني في مصر وعدو فرنسة اللدود .

على ان حكومة لندن وادارة شركة الهند لم تتسرعا في الاستجابة الى مقترحات بروسي ووارن هاستينغ وبلدوين وآرائهم . كما ان السير اينسلي سفير بريطانيا في الاستانة ايضاً لم يرتح اليها خشية معارضة الباب العالي وشريف مكة ، ولم يلبث ان صدرت فرامانات سلطانية من الاستانة ، واوامر قاطعة من لندن بمنع السفن الانكليزية من الاتجار بين جده والسويس .

ولقد كانت الامبراطورية العثمانية في هذا الدور في الرمق الاخير من التدهور والانحطاط . وكانت الحرب الروسية ١٧٦٨ — ١٧٧٤ من جهة وثورة الضاهر (١)

---

(١) الضاهر زعيم فلسطين كان في الناصرة وعلي بك هو احد امراء المماليك الذي كان صاحب الكلمة والسيطرة في مصر وقد اتفقا وتضامنا في الثورة ضد الدولة بسبيل سلخ قطري الشام ومصر واستقلالهما . المعرب

والامير علي بك من جهة اخرى بمثابة نذر باقتراب دقات حياتها الاخيرة . ولم يسع فرنسة بطبيعة الحال ان تقف غير آبهة لما كان من احتمال تقسيمها القريب بين دولتي روسية والنمسا ، وكان عليها ان تختار بين الاسراع في امداد الدولة ودعمها او الاشتراك في تقسيمها ، وكان من الملحوظ في الحالة الثانية ان تكون سورية ومصر حصة فرنسة . وبسبيل ذلك عهد الى البارون دونوت في تاريخ ١٧٧٤ بالقيام برحلة ظاهرها تفتيش القنصليات الافرنسية في الشرق الادنى وباطنها درس وسائل امكانيات فتح مصر او النزول الى سواحل سورية والاستقرار فيها . وحينما عاد من الرحلة قدم مخططاً مفصلا لمرفأ بيروت كما أكد امكان نجاح غزوة عسكرية على الاسكندرية على شرط ان تكون جزيرة كريد قاعدة للحركة . غير ان الحرب الاميركية حولت انظارنا الى اتجاه آخر .

وعقب معاهدة فرساي ٢٠ كانون ثاني ١٧٨٣ وجه المارشال دوغاسترى نظرة ثانية الى خطط جولبرت التي صارت خططاً تقليدية لفرنسة . وقد رأى ان لا يرجع في بادىء الامر الى الباب العالي لنيل موافقته ، وان يدخل في مفاوضات مباشرة مع امراء مصر . ولقد نجح الشفاليه دوتروكيه الذي اوفده سفيرنا في الاستانة الى مصر في عقد معاهدة مع الامراء في تاريخ ١٠ كانون ثاني لعام ١٧٨٥ ضمنت لنا التسهيلات والفوائد التي ضمنتها المعاهدة الانكليزية المعقودة عام ١٧٧٥ والتي اشرنا اليها من قبل . على ان فرنسة لم تنتفع بهذه المعاهدة قط بسبب خصومة انكلتره ودسائسها وعدم موافقة السلطان عليها ، واعتراض شركة الهند وتردد قصر فرساي وتلكؤه .

— ٦ —

ومنذ الحرب الاميركية طرأ على سياسة انكلتره الشرقية تبدل كبير ، فقد اثبتت الاحداث المختلفة لحكومة لندن بصورة قاطعة وجوب الاتصال السريع بين الهند وانكلترا . على ان هذه الفكرة ليست جديدة . فقد وردت على البرتغاليين منذ القرن الرابع عشر حينما سيطروا على هرمز . كما اننا فكرنا فيها نحن ايضاً وبحثناها بواسطة بعثاتنا التبشيرية التي كانت في العراق وايران . كذلك فقد فكر الانكليز فيها منذ بدء

النزاع بيننا وبينهم على الهند ؛ غير ان التعصب الاسلامي الذي كان من نتيجته جعل قسم من البحر الاحمر مقفولا في وجه الاوروبيين جعل بريطانيا توجه انظارها وجهودها الى خليج البصرة بنوع خاص .

وقد عبر ضابطان من ضباط الشركة الهندية وهما بلستيد واليوت في سنة ١٧٥٠ الصحراء بين البصرة وحلب بطريقين مختلفتين احداهما الصحراء الكبرى وثانيتهما الصحراء الصغرى . ولما عادا اقترحا انشاء رحلة بريدية منتظمة . وكان وارن هاستينغ والي بنغالة قد عقد في سنة ١٧٧٥ مع امراء مصر معاهدته التي كفلت مرور البريد الانكليزي بحرية من الارض المصرية : فاعتبر هذا حلا للمسألة واكتفي به . غير ان عدم رعاية المعاهدة وتنفيذها كما ينبغي جعل حكومة انكلترة وشركة الهند تعودان الى المسئلة من جديد . وقد تجول السير ايروين في سنتي ١٧٨٠ و ١٧٨١ بين البحر الاحمر وخليج البصرة وجاس طرقهما ، ولما عاد قرر رجحان طريق البحر الاحمر ، واكد خاصة رجحان ميناء القصير على ميناء السويس ودعا اليه .

ولقد نشر جمس جابار سنة ١٧٨٤ كتابا ضمنه حكاية عبوره بادية الشام سنة ١٧٧٨ ، وانحى فيه باللائمة على التهاون في أمر معاهدة سنة ١٧٧٥ ، واكد هو الآخر رجحان طريق البحر الاحمر على طريق خليج البصرة وضرورتها لانكلترة للاتصال السريع بينها وبين الهند . وقد ذكر في كتابه باحداث وقعت في ظروف الحرب الاميركية تصح ان تكون درساً فقال ان بلدوين استطاع في بدء هذه الحرب وبفضل طريق البحر الاحمر ان يصدر اوامره الى والي بنغاله بالهجوم على بونديشيري قبل ان يأخذ الافرنسيون خبر نشوبها ، في حين انه حينما عقدت معاهدة فرساي في تاريخ ٢٠ كانون الثاني لعام ١٧٨٣ لم يكن البريد يسير بين اوربا والهند في هذه الطريق فلم يصل الكتاب الرسمي الذي يحمل خبر انتهاء الحرب الذي ارسل في مركب سار في طريق رأس الرجاء الا في شهر تموز ، وانه وقع بين ١٣ و ٢٥ حزيران معركة ذهب فيها ١٨٠٠ انكليزي كانت دماؤهم تحقن ونكبتهم تتفادى لو وصل خبر عقد الصلح الى الفريقين المتقاتلين قبل ذلك .

ومن السهل بعد هذا تخمين ما طرأ على الرأي العام الانكليزي من القلق الشديد

في عام ١٧٨٦ حينما سمع بما كان من نجاح الافرنسيين في عقد معاهدة سنة ١٧٨٥ مع المصريين . فقررت حكومة لندن أعادة تأسيس قنصليتها في القاهرة فوراً ، وعينت بلدوين خصم فرنسة المعهود ، واكدت عليه وجوب فتح طريق البحر الاحمر لمواصلات الهند مهما كلفه الأمر . وكانت الخطة ان يدخل الممثل الانكليزي في اقرب وقت ممكن في المفاوضات مع امراء مصر لأجل عقد معاهدة ، وان يكون بنوع خاص حائلا دون نشاط الافرنسيين ومساعيهم المتنوعة في مصر .

وفي نفس الوقت اخذ الانكليز يفكرون في خطة لنقل البريد تقوم على اساس قيام سفنهم برحلاتها بين البندقية والاسكندرية من جهة وبين الهند والسويس من جهة أخرى ، وان تكون الطريق التي يسار فيها في ارض مصر طريق الاسكندرية — القاهرة والسويس . وكان من الخطة الى جانب هذا ان ترسل نسخ ثانية من الرسائل بطريق غزة فالطور فجده ، وان تمر السفن الانكليزية بها في عودتها من السويس . اما البريد من الجانب الهندي فيوجه مباشرة الى السويس . على ان ترسل نسخه الثانية الى القصير ، ومن هنا الى الاسكندرية بطريق النيل . وقد هيأت حكومة لندن ما يلزم لتأسيس هذا الاتصال البريدي بين لندن والهند لطيلة سنة كاملة .

على ان الحالة في مصر لم تبق في هذا الظرف على ما كانت عليه ، فقد سير الباب العالي قبطان باشا الى مصر لاخماد الثورة التي اوقد نارها الامراء واعادة الأمن الى نصابه ؛ وبسبب ذلك لم يستطع بلدوين تنفيذ التعليمات التي تلقاها من حكومته ، فاقتضى الامر ايجاد طريقة اخرى لتأمين البريد بين انكلترا والهند . وقد سار توماس هوفيل سنة ١٧٨٨ في طريق جديدة الى العراق من الاناضول ، وفي السنة التالية سار المقدم تيلور من حلب الى البصرة معقبا جناح الفرات الايمن ، ولما وصل الى بنغاله قدم لرؤسائه تقريراً مفصلا اقترح فيه بعد المقايسة بين طرق البحر الاحمر وخليج البصرة انشاء رحلة بريدية منتظمة في البحر الاحمر ، وضبط جزيرة كريد او جزيرة قبرص من قبل انكلترا ، مع ترجيحه كريد من الوجهة الجغرافية ، وكان من رأيه ان تكون بريطانيا حاكمة على طريق الفرات وطريق السويس في آن واحد .

وفي عام ١٧٩٤ تمكن جورج بلدوين من الحصول على توقيع الامراء على المعاهدة

التي اهتم لها اعظم اهتمام ولاحقها بثبات وعناد طيلة السنين الكثيرة غير انها جاءت متأخرة جداً ، لان حكومة لندن كانت نفضت يدها من خطة الاتصال عن هذه الطريق بسبب الاضطرابات والمشاكل المستمرة في مصر ، وكان لانقطاع الصلات السياسية بين فرنسة وبريطانية اثر ما في هذا ايضاً .

— ٧ —

على ان المصالح الافرنسية قد تضررت هي الاخرى كثيراً في وادي النيل في هذا الدور . فقد كان صدى ثورة ١٨٧٩ هنا قويا جدا ايضا ، حتى ان قنصلنا في القاهرة شارل ماغالون ومواطنينا اضطروا الى الالتجاء الى الاسكندرية سنة ١٧٩٥ بسبب ما كان ينالهم من الاذى والعدوان المستمر ، ولم ينجح دوبواتينفيل الذي اوفد للسعي لدى الامراء في ضمانة حقوقنا في مهمته ، كما ان الباب العالي كان عاجزا عن تنفيذ اوامره واسماع كلمته للامراء ، فلم يبق امامنا الا توطيد حقوقنا وضمان مصالحنا بوسائلنا الخاصة . ومن أجل هذا فان فكرة تسيير حملة عسكرية لم تلبث ان لقت رواجا ، كانت المعلومات التي تضمنها كتابا دولني وسافاري عن مصر قد انتشرت بين الناس ، ولما كنا في حالة حرب من جديد مع انكلترة فقد كان فتح مصر عملا معقولا ومحقا ...

ولقد غيرت الاحداث خطة الملوك التقليدية ، ولم يعد البحث يجري في نطاق تحويل تجارة آسيا الى البحر الابيض لمصلحتنا فحسب ، بل صار امر مصر بالنسبة الينا وقبل كل شيء تهيئة قاعدة حربية لزحف ننزل به ضربة قاصمة على انكلترة في اهم مراكز عظمتها ومنابع حياتها ونضطرها الى الصلح . وكان ان تلقى نابوليون بونابارت في ١٢ نيسان سنة ١٧٩٨ امر حكومة الديركتوار بطرد الانكليز من جميع اماكنهم في الشرق ، وتدمير مراكزهم التجارية في البحر الاحمر وقطع برزخ السويس وادخال البحر الاحمر في حكم وسيطرة الجمهورية حصرا ، واصلاح حالة مصر والمصريين بكل ما يدخل في يده من الوسائل .

وقد غادر بونابارت طولون بتاريخ ١٩ مايس واستولى على مالطه في ١٣ حزيران ، ودخل الافرنسيون القاهرة في تاريخ ٢٢ تموز بعد خمسمائة عام مرت على الاخفاق الذي مني به سان لويس امام المنصورة .

الفصل الثالث

خطط فرنسة للاستيلاء على الهند في عهدي الثورة والامبراطورية

●

ان جيشاً مؤلفاً من خمسين الف روسي وافرنسي حتى او غساوي اذا اتجه نحو آسيا عن طريق الاستانة يجعل انكلترا ترتجف رعباً بمجرد وصوله الى الفرات ويحملها على الركوع خاضعة امام القارة الاوروبية .

من رسالة من نابليون الى الاسكندر
من رسائل ٢ شباط ١٨٠٨

●

اهمية هذا القسم – مذكرة تاليران لمجلس الديركتوار – خطة بونابرت – هجوم الانكليز المضاد – الحملة الافرنسية الروسية في عام ١٨٠١ – خطة عام ١٨٠٥ – دفاع الهند – قلق انكلترة من مطامع روسيا – الأسس الرئيسية لمستقبل السياسة الانكليزية في الشرق الادنى .

— ١ —

جرت انكلترا الى تاريخ ١٧٩٨ على اعتبار امر الدفاع عن مؤسساتها في الهند مسألة بحرية منوطة بمبدأ سيطرتها على البحار ، وقد اغتنمت فرصة الحرب ضد فرنسا الثورية فسارعت الى الاستيلاء على احسن مركز يخص الهولانديين في المحيطات وهو مستعمرتهم في رأس الرجاء .

غير ان خطط نابليون المختلفة التي تصورها للاستيلاء على الهند سواء حينما كان قائداً ام حينما صار قنصلا ثم امبراطوراً اظهرت لحكومة لندن ما يمكن ان يكون لمصر او آسيا الغربية من خطورة جغرافية عسكرية ، وقلبت ما كان عندها للسيطرة البحرية وحدها من اعتبار رأساً على عقب . وقد كان خطر الروس بعد سقوط الامبراطورية الافرنسية من دواعي بلوغ قلقها حده الاقصى ، وحملها على المبادرة الى

اعادة النظر في سياستها في الشرق جميعه والتفكير فيما يجب عمله للوقوف في وجه هذه الاخطار .

وقبل ان نستعرض مسائل الشرق الادنى الكبرى العسكرية والاقتصادية والدينية يحسن بنا ان نستعرض بايجاز الخطط المتنوعة المتعاقبة التي وضعت في عهدي الثورة الامبراطورية للاستيلاء على الهند ، والتي كانت عاملا مهما في تلك المسائل وخطط انكلترة فيها .

— ٢ —

كانت خطة اتخاذ مصر قاعدة للحركات ، وتسيير حملة على الهند قائمة على اساس ما كان بيننا وبين قيبو صاحب حاكم ميسور من صداقة . وقد خلف هذا الحاكم اباه حيدر علي في سنة ١٧٨٢ واسدى الينا مساعدات قيمة ابان الحرب الاميركية . واوفد بعثة سياسية الى لويس السادس عشر سنة ١٧٨٨ وبدا منه حقد عظيم على انكلترة ، واعتبر من اجل ذلك حليفاً نافعاً لنا . وقد كان امكان تقوية جيش هذا الحاكم بمن في خدمة امراء الهند من المتطوعين الافرنسيين مما زاد التحالف معه قيمة وخطورة .

ولقد لفت قنصلنا في مصر شارل غالون نظر تاليران الى هذه النقاط ، وبين له فوائدها بقوة وحماسة . فمال هذا اليها بكل قلبه ، ولما استلم وزارة الخارجية قدم مذكرة الى مجلس الديركتوار في ١٢ شباط ١٧٩٨ بهذا الموضوع . وقد اشار في تقريره الى ما تشغله انكلترا من ساحة واسعة ومركز عظيم في الهند في حين ان حاميتها لا تزيد عن خمسة عشر او عشرين الفاً معظمهم من السود ، واكد ان فرنسا اذا امدت تيبو صاحب بخمسة عشر الفاً يضيفهم الى قوته فان تلك الحامية لن تستطيع مقاومة ولا وقوفاً .

وكان مما تصوره تاليران ان تبحر حملتنا من ميناء السويس على مراكب تأتي من جزر فرانس وريئيون ، او على المراكب التي تشحن البن من اليمن وجده الى السويس ، وعلى كل حال فقد بين ضرورة وصول الحملة الى مصر وابحارها قبل هبوب الرياح الموسمية المخالفة ، والاسراع في الحركة حتى لا يبقى للانكليز وقت

للحيلولة دون تنفيذ الخطة .

— ٣ —

ولقد كان بونابرت يفكر منذ زمن بعيد في موضوع حملة مثل هذه ايضاً (١). غير انه اقنع الحكومة الافرنسية قبل مغادرته طولون بخطة جديدة تختلف كل الاختلاف عن خطة تاليران . وقد قال لحكومة الديركتوار انه اذا كان جيش الاسكندر لاقى صعاباً ومشاق عظمى في عودته من الهند بطريق كدروس فانما كان ذلك بسبب عدم تهيئته ما لا بد منه من الوسائل لهذه الطريق ، وكان من رأي بونابارت انه اذا قام جيش من مصر على الجمال فانه يصل الى البصرة في ثلاثين او اربعين يوماً ، ويستطيع ان يصل من البصرة الى حدود مكران في اربعين يوماً اخرى ، وستكون مدينة شيراز في طريقه حيث يكون في الامكان اتمام عدد الجيش من مقاطعة كرمان الغنية قبل عبور الصحراء الى الاندوس ، وهكذا يمكن ان يصل الجيش الذي يقوم من مصر في تشرين الاول الى المحل المقصود في شهر مارس ، ويكون حينئذ عند السيخ والمهراتيين الذين هم مستقلون ورجال حروب ، ومستعدون للانضواء تحت الراية الافرنسية ، وكان من الخطة ان تتألف الحملة الافرنسية من ثلاثين الفاً على ان يتسع ملاكها لستين الفاً ، وكان يرى من الممكن اخذ ثلاثين الفاً من مصر نصفهم من سود سنار او دارفور ونصفهم الاخر من اليونانيين والاقباط والسوريين وفتيان المماليك والمغاربة ومسلمي مصر العليا ، وهؤلاء معتادون حياة الصحراء ومتحملون للحرارة الشديدة ، كذلك كان يرى من السهل اخذ عشرة الاف فرس والف وخمسمائة بغل وخمسين الف جمل وما تدعو الحاجة اليه من قرب وطحين وغير ذلك من مصر نفسها . وقد حسب بونابارت حساب الوقت اللازم للاستعداد فخمن ان الخمسة عشر شهراً الاولى بين سنة ١٧٩٨ وتشرين الاول من سنة ١٧٩٩ كافية لاعادة الأمن والسكينة الى مصر ، وجمع وتهيئة ما يلزم من جنود ودواب وجمال

---

(١) لقد طلب بونابارت حينما كان في ايطاليا من مكتبة ميلان جميع الكتب المتصلة بمصر وسورية والبحر الاحمر وخليج البصرة . وحينما اعاد هذه الكتب بعد عقد الصلح رؤيت تعليقات واشارات على هوامش جميع الفصول المتصلة بخططه في مصر والهند . المؤلف

ومؤن وعتاد ، وكان يأمل ان تتألف حملته من اربعين الف جندي ومائة وعشرين مدفعاً ، وان تتحرك في خريف ١٧٩٩ او اوائل سنة ١٨٠٠ .

وقد تقرر من جهة اخرى ان ترسل الحكومة الى جزيرة فرانس في تشرين الاول او الثاني لعام ١٧٩٨ ثلاثة آلاف جندي افرنسي مع كمية من المؤن والعتاد ، ويضاف الى هـذا العدد ثلاثة آلاف آخرون من المستعمرات نصفهم من البيض ونصفهـم من السود . وهذه القوة تقسم الى ثلاثة اقسام وترسل متعاقبة الى موانيء سواحل مكران وتنشيء فيها المخازن والمستودعات ، وتتناول الحمـلة القادمـة منها حاجتها حينما تمر بهذه المنطقة .

كذلك مما تقرر انه حينما يعين تاريخ السفر نهائيـاً نحو الاندوس يقوم من ميناء براست اسطول قوي يحمل خمسة الاف جندي مع حاجته من العتاد والمؤن ، فيتصل بالجيش الذي يكـون في سواحـل ايران . ويساعده في ضبط موقع بري صـالح مثل سورات او بومبـاي او غوا ، ثم ينقسم الى مفارز صغيرة تقوم بمهمـة الخفارة المتحركة في السواحل التي تمتد بين مصب نهر الاندوس وحدود الصين .

ولقد كان النجاح الذي لقيته الحملة في مبادىء حركاتها مما قوى الامل في تحقيق هذه الخطة بسهولة ، غير انه لم ينقض طويل وقت حتى جرت الرياح بما اضعف هذا الامل ، فلم تصل القافلة الثانية المنتظرة من فرنسة الى الاسكندرية ، وحطم الانكليز اسطولنا في ابى قير ، وحرضوا الباب العالي وهددوه حتى اعلن الحرب وسير جيوشه علينا .

وقد خشي بونابارت من عواقب الحرب في الارض المصرية ووقوع مصر في قبضة الزاحفين ، فقرر ان يتفادى هذا بالمبادرة والزحف بدل الانتظار والدفاع . وكانت خطته ان يعبر الصحراء ، وان يسحق جيش العدو قبل تمكنه من جمع امره ، وان يستولي بعد ذلك على جميع مستودعاته ، وان يسيطر على مواقعه المهمة مثل العريش وغزه ويافا وعكا ، وان يسلح نصارى سورية وان يثير الدروز والموارنة ، وان يسير بعد هذا وفقاً لما يكون من احداث وظروف ، وكان يأمـل ان يحمل سقوط عكا امراء المماليك في مصر ومشايخ العرب ، وانصار عائلة الضاهر على الانضمام اليه ، وان

تم له السيطرة على دمشق وحلب في شهر حزيران وتحتل طلائعه طوروس بعد ذلك وان يكون تحت أمرته حينئذ ستة وعشرون الف افرنسي ، وستة آلاف فارس من المماليك والعرب والمصريين وثمانية عشر الف سوري ، هذا في حين يظل دوسيكس في مصر على رأس قوة مؤلفة من عشرين الفا نصفهم افرنسيون ونصفهم من السود مستعداً لأمداده حين الحاجة . وكان يظن انه بمثل هذه الخطة يضطر الباب العالي الى الصلح ويحمله على الموافقة على تسيير الحملة الهندية ، فيصل اذا ساعده الحظ باربعين الف محارب الى الهند في شهر مارس من سنة ١٨٠٠ بالرغم من النكبة التي حلت باسطوله . ولقد كان بينه وبين شاه ايران تفاهم ، حيث وعد هذا بعدم معارضته مرور الجيش الافرنسي بشيراز ومكران .

وقد طلب من شريف مكه وأمام مسقط ان يؤمنوا له الاتصال بتيبو صاحب ، كما كان يحمل من جهة اخرى كتباً من حكومة الديركتوار وتاليران لأهم الامراء في الهند ، ولملك سيلان والحاكم طانغادور .

على ان اخفاق الهجوم على عكا ، وموت تيبو صاحب في مايس عام ١٧٩٩ ، وما كان من احداث في فرنسة عصفت بخطة نابليون هذه .

— ٤ —

ولقد هاجت افكار الانكليز العامة من مغادرة الاسطول طولون وضبطه مالطه هياجاً شديداً ، وعلى الاقل هذا ما ينبغي ان يكون قد وقع اذا ما امعنا النظر في المذكرات التي نشرها المستشرق السير ايليس ورن في ذلك العهد .

ومع ان هذا الكاتب الانكليزي قد اعترف بان نجاح الحملة الافرنسية يقضي على تجارة بريطانيا في الهند قضاء مبرماً فانه قرر ان الحملة مقضي عليها بالاخفاق . وقد بين اسباب ذلك حيث قال وهو يستعرض الطرق المختلفة التي كان من المحتمل ان يسير فيها بونابارت « ان طريق البحر الاحمر لا يمكن ان يكون امينا ، لان انزال عسكر في مصر صعب جداً اولا ولان على الافرنسيين ان يحسبوا حساب الاسطول الانكليزي الذي لا بد من ان يكون قد جعل مضيق باب المندب وطريقه تحت حصره وتطويقه ثانياً . وقد يكون انزال عسكر في الاسكندرونة هو الممكن ، غير

انه يقتضي حينئذ السير الى خليج البصرة او التوغل في طرق العراق وايران والافغان الموحشة. وكلتا الطريقين غير مامونتين ايضاً. فالاسطول الانكليزي سيكون مطوقاً لخليج البصرة ، ولن يتمكن بونابارت في حال من الحصول على قوارب كافية لنقل حملته الى بغداد والبصرة. ونجاح الاسكندر الكبير في محاولة مماثلة انما تيسر بسبب عمران طريق سورية وحضارة ندمر اذ ذاك. وكراسوس الروماني الذي قاد الفرق الرومانية بين النهرين لم يلبث ان غلب وقتل من قبل البارسيين قبل وصوله الى بلاد ايران. على انه على فرض النجاح في الوصول الى الاندوس فان هناك ثلاثمائة وخمسين فرسخاً يجب قطعها قبل الوصول الى ميسور والالتقاء بتيبو صاحب ».

وبعد ان انتشر خبر ظفر نلسون في ابي قير اذاع ضابط من ضباط شركة الهند رسالة بدون توقيع احتوت خريطته للطرق التي كان يمكن ان ينتفع بها بونابارت ونقض فيها اقوال ورين وتفاؤله ، واكد ان ظفر ابي قير ليس فيه الا ضمان وهمي ، وان بريطانيا اذا لم تسارع حالا الى اتخاذ التدابير الشديدة الوافية ستفقد حتما ألمع جوهرة في تاجها. وقد قال هذا الضابط ان الافرنسيين قد اتخذوا من دون ريب الاحتياطات اللازمة ، وان اساطيلهم التي لها من جزيرة سوقوطرا سند قوي تتمكن من التغلب على مراكب الحفارة الانكليزية ، ونبه بالاضافة الى هذا على ان لبونابارت حلفاء اقوياء مثل تيبو صاحب ، وزمون صحاح ملك كابول وشاه ايران الماس علي خان.

ولقد قررت حكومة لندن استناداً الى ما رأته من مظاهرة الرأي العام القوية وهياجه ان تبذل جهدها في الحيلولة دون تنفيذ خطط بونابارت فارسلت انكلترا مدداً الى بنغاله ورأس الرجاء لمساعدة الحملة التي ترسل مباشرة الى مصر بطريق البحر الابيض المتوسط ، واوفدت معتمدين سياسيين الى اليمن والحجاز لتحريك القبائل البدوية ضد الافرنسيين ؛ وكان من اثر ذلك ان أبحرت قوات عربية من ينبع وجده الى القصير والتحقت بقوات مراد بك التي كانت تحارب دوسيكس في مصر العليا ، ولكن هذا انتصر انتصاراً تاما على جميع هذه القوات في سمهود في ٢٢ كانون الثاني لعام ١٧٩٩.

وقد تبدل الموقف بعد مغادرة بونابارت القطر المصري وقتل كليبر ؛ فقد ظلت

القوات الافرنسية بقيادة قائد عاجز هو الجنرال مينو ، وضيق عليها الخناق من قبل الجيش التركي الذي زحف من سورية الى مصر من جانب ومن قبل قوات غرومبي وهوستينسون التي نزلت من البحر الى الاسكندرية من جانب ثان ، والعساكر الهندية التي نزلت الى القصير بقيادة الاميرال بلانكت من جانب ثالث . فلم يسع تلك القوات التي لم تتلق مساعدة ما من اي جهة الا ترك مصر فغادرتها في ايلول عام ١٨٠١ بعد ما كان منها من البطولة الخارقة .

— ٥ —

وبينما كانت قواتنا تناضل على ضفاف النيل نضال اليائس نال بونابارت الذي وصل الى منصب القنصل الاول موافقة قيصر الروس بولس الاول على الاشتراك في حملة ضد الهند .

ولقد عرفنا الخطوط الرئيسية لخطة هذه الحملة من كتاب طبعه فوهمان عام ١٨٤٠ . فقد استصوب بونابارت خطى الجنرال غاستري لعام ١٧٨٧ والبرنس دوتاسون لعام ١٧٩١ ففكر بالزحف على الممتلكات الانكليزية في الهند بطريق بحر الخزر واوكسوس القديمة . وكان من هذه الخطة ان يبحر جيش روسي مؤلف من خمسة وثلاثين الفا من استراخان بالمراكب وينزل الى استر اباد ، وهناك يكون في انتظاره جيش افرنسي يفرز من قوات الرين مؤلف كذلك من خمسة وثلاثين الفا حيث يعبر هذا الجيش نهر الطونه بمراكب نمساوية ، ويسير في البحر الاسود على مراكب روسية ؛ وينزل تاغانروغ ويقصد منها استر آباد بطريق بياتي — اسبيانكابيا وتزارتيزين . وتكون استر آباد مركزاً عاماً لمعسكر الجيوش المتحالفة ، ومركزاً للاتصالات والمناقلات كذلك ويؤسس فيها مستودعات وقواعد حربية .

وقد طلب من الشاه أذن بالمرور باراضي ايران (١) وكان من الخطة المقترحة من القيصر ان يسير الجنرال ماسيوا الذي تجتمع تحت قيادته القوات الافرنسية والروسية في الطريق

---

(١) لا ندري اذا كان القنصل الاول على علم بما كان يجري في هذا الوقت من مفاوضات بين شاه ايران وبين السر جون مالكولم بشأن عقد معاهدة ايرانية انكليزية . المؤلف

التي سار فيها قبل زمن قصير نادر شاه حينما زحف نحو بحر الخزر ، فيمر بمشهد ففراح فقندهار ، ويصل الى الشاطىء الايمن لنهر الاندوس . وقد ضمن ان يصل الجيش الافرنسي الذي يتحرك ضفاف الرين في شهر مايس الى الهند في اواخر شهر ايلول ، وقد اتفق على تهيئة جيش روسي آخر مؤلف من اربعين الفا من القازاق في اورانبورغ ليسير نحو الاندوس الاعلى بطريق آمودريا وخيوه وبخارا وكابول وبشاور ، ويبقى دائم الصلة بالجيوش الزاحفة من استر آباد ؛ وعلى تهيئة روسيا لما يحتاج اليه الجيش من مؤن ودواب ، وقد تعهدت فرنسه بعشرة ملايين فرنك لشراء الخيول وتهيئة الوسائل اللازمة لعبور الصحراء ، وتعهد القيصر من جانبه بالضغط على الباب العالي لقفل المضايق في وجه الانكليز .

وهكذا اتفق على الخطة بجميع تفصيلاتها بل ان الروس بدأوا بتطبيقها سراً . غير ان القيصر قتل في هذه الاثناء اي بتاريخ ٢٤ مارس لسنة ١٨٠١ ، ولم يلبث اسكندر الاول الذي خلفه ان حول اتجاه سياسته واخذ يتقرب الى الانكليز .

— ٦ —

ان جلاء عسكرنا عن مصر اوقف الانكليز في موقف صعب . فانكلترة لم تستطع ان تحصل على مساعدة السلطان واذنه الا على شرط اعادة مصر الى حكمه . في حين ان خطورة هذا القطر اخذت تزداد كقاعدة عسكرية جغرافية لمقاومة ما يمكن ان تتعرض له الهند من حملات وزحوف . ولقد فكرت انكلترة منذ ذلك الوقت في الحلول محلنا ، والسيطرة بصورة قطعية على الاسكندرية والسويس والقصير ؛ اي على المواقع التي تتحكم في طريق البحر الاحمر القديمة . ومن اجل هذا اخذت تعضد امراء مصر ضد الباب العالي آملة ان لا يعارض هولاء احتلالها مصر .

ولقد احبطت المادة الثانية من معاهدة اميان (١) التي وقعت في ٢٧ مارس لسنة ١٨٠٢ هذه الامال باعترافها بتمام ملك الدولة العثمانية ، فلم يسع الانكليز الا الجلاء عن مصر في سنة ١٨٠٣ غير انه لم يمض زمن طويل حتى ظهر للعيان ان معاهدة

---

(١) معاهدة بين انكلترة وفرنسا .

اميان لم تكن الا هدنة ، ولم يتردد نابليون في فهم ذلك ، فاخذ يستعد لقطع الصلات ثانية بينه وبين انكلترا ، وتهد الى الجنرال سباستياني بمهمة في الشرق الادنى ظاهرها تجاري ، وحقيقتها درس امكان استيلاء القوات الافرنسية ثانية على سورية ومصر .

ولقد ارسل نابليون وكان اصبح امبراطوراً في سنة ١٨٠٣ الجنرال دي جان من جهة اخرى الى جزيرة فرانس لتهيئة ما يلزم لحركة اخراج على سواحل الهند . وكان في النيـة ان تكون هذه الحركة مرتبطة بحركة جيش افرنسي يتحرك من السواحل الشرقية للبحر الابيض براً . وقد كان مما يقتضي لتنفيـذ هذه الخطة ان يكون تضامن مع الاتراك والايرانيين ، ولم يكن هذا ليتم الا بمساع سياسية شاقة . فلما نشبت الحرب ثانية بين انكلترا وفرنسة فكر الامبراطور بخطة اخرى لفتح الهند تقوم على اساس بحري بحت . وقد اوضح هذه الخطة فيما كتبه في جزيرة القديسة هيلانة . وذلك ان يتحرك ثلاثة اساطيـل من ثغور فرول وبراست وروشفورد نحو جزيرة فرانس تحمل ستة عشر الف جندي ، وهناك تأخذ ما تحتاج اليه من مؤن وتملأ ما في ملاكها من فراغ ثم تتجه نحو سواحل الهند ، وحينما تصل الاساطيل الى النقطة المعينة تنزل القوات منها ثم تعود فوراً الى اماكنها الاولى حتى تنجو من الاساطيل الانكليزية ، وهنـاك يظهر من الجيش الافرنسي المعزول والذي يكون في قيادة قائد باوع ما اعتاد ان يظهر في كل مكان .ولقد عوقت احداث القارة الاوروبية هذه الخطة ايضاً .

على ان الانكليز لم يتهاونوا في امرهم فانزلوا في كانون الثـاني لعام ١٨٠٦ عشرة الآف جندي الى رأس الرجاء ، واعطي الأمر للاميرال دوفورث بعبور الدردنيـل باسطوله في شباط سنة ١٨٠٧ لتهديد الباب العالي وتخويفه . غير ان سفيرنا في الاستانة وكان اذ ذاك الجنرال سباستياني اخـذ على عاتقه حالا امر الدفاع عن العـاصمة العثمانية ، فاضطر الاسطول الانكليزي الى ان يعود ادراجه الى بحر ايجه . وقد نزلت قوات الجنرال فارسر في ١٧ مارس لسنة ١٨٠٧ الى الاسكندرية كعمل انتقامي لهذا الأخفاق ، غير انها تعرضت لهجوم مضاد شديد قام به الجيش المصري بقيادة الباشا الجديد محمد علي في جوار رشيد ، ومنيت بخسائر فادحـة ، واضطرت الى الـتراجع

نحو الاسكندرية ومنها عادت الى مراكبها . وكان ذلك في ١٤ ايلول لسنة ١٨٠٧ .

— ٧ —

وبينما كانت هذه الاحداث تجري تحقق الاتفاق الافرنسي — الايراني . فقد زحف الروس على كرجستان احدى مقاطعات ايران عام ١٨٠٣ ، فاستنجدت هذه بانكلترة واشترطت انكلترة شروطاً ثقيلة لقاء مساعدتها ، مثل اعطائها جميع الموانيء القائمة على بحرر الخزر ، وحق انشائها قلعة في بندر بوشر ، واحتلالها جزيرة قارغ في خليج البصرة . وحينئذ عرض الشاه الاتفاق على نابليون وكان ذلك في كانون الاول من عام ١٨٠٤ .

وقبل ان يجيب الامبراطور على الطلب بالايجاب ارسل في اوائل عام ١٨٠٥ شخصين الى ايران هما روميو وجوبرت ، فذهبا في طريقين مختلفين ، حيث سار الاول بطريق حلب فالموصل فهمدان ووصل الى طهران بسهولة ما ، ولكنه لم يلبث ان توفي فيها . اما جوبرت فقد سار بطريق طرزون وبايزيد وتوريست ولم يصل الى طهران الا في حزيران عام ١٨٠٦ ، لأن الاتراك لم يرتاحوا الى نشؤ صلات ودية بين الافرنسيين والايرانيين اعدائهم . ولم يمكث في طهران الا زمناً قصيراً جداً لانه مرض فعاد الى باريس . ولقد حمل معه استغاثة جديدة وقوية من الشاه الى الامبراطور فلم يشأ نابوليون ان يضيع الفرصة التي جرت اليه اذيالها ، لا سيما وقد استقى مؤخراً من القنصل الفرنسي جوانين ومن ضابط الاستحكام بونتام ومن دو لابلانش معلومات مشجعة عن احوال ايران ، فقرر الاتفاق مع شاهها حاسبا ان العساكر الايرانية يمكن ان تكون الجناح الايمن الأخير لجيوشه .

ولقد كان مما تتصوره تطويق الروس من الناحية الاوروبية بعد اخضاعهم لأمره واضطرارهم الى السير معه الى آسيا من انكلترة . وكان مما يقتضي لتنفيذ هذه الخطة الحصول على رضاء الترك وتوطيد الصلح بينهم وبين ايران التي كانت تطالب بالعراق ، والتوفيق بين روسيا وايران اللتين كانتا في نزاع على كرجستان . ولأجل ذلك بدأ بمفاوضات مع الترك من جهة ومع الايرانيين من جهة اخرى في ربيع عام ١٨٠٧ في قصر فينكستين في جوار استرود ، حيث قام معسكر الامبراطور ؛ ولم يود السفير التركي

ان يقيد نفسه بأي تعهد باتفاق وتواد بين حكومته وايران ، وحينئذ تفاهم الامبراطور مع مندوب ايران منفرداً على ما يقتضي ؛ وكان ذلك في غيبة تاليران الذي لم يكن يستصوب هذه السياسة .

وقد تعهدت فرنسة في المعاهدة الايرانية المؤرخة في ٤ مايس من سنة ١٨٠٧ بضمان ملك الدولة الايرانية كله بما في ذلك كرجستان ، وباجبار روسيا على الجلاء عن هذه المقاطعة ، وبارسال ضباط اختصاصيين ومدافع وبنادق الى الحكومة الايرانية وتعهد الشاه من جانبه باعلان الحرب فوراً على انكلترة ، وبطرد جميع رعاياها من اراضي ايران طرداً تاماً ونهائياً ، وبالتفاهم مع الافغانيين والمهراتيين وسائر الامم المجاورة ، والزحف على الممتلكات الانكليزية في الهند ، والاذن بمرور جميع القوى الافرنسية من اراضي ايران بحرية وسهولة .

وقد اوفد نابليون بعثة برئاسة الجنرال غاردان الى طهران لتعجيل تنفيذ شروط المعاهدة ؛ وكان مما حمله الامبراطور للجنرال ، مهمة تحريك روح العداء والعدوان في كرجستان ضد الروس ، وبذل الجهد في ايجاد تفاهم وعقد اتفاق عسكري بين ايران وتركيا ، وتسليح المراكب في بحر الخزر ، ودرس الطرق المؤدية الى الاندوس ، وانشاء الصلات الودية مع المهراتيين من ناحية ومع الوهابيين في نجد من ناحية اخرى (١) .

ولقد عدل توقيع معاهدة تيلسيت ، وقيام الصلح بين الافرنسيين والروس هذه التعليمات بعض الشيء بعد قليل ؛ حيث تلقى الجنرال غاردان اثناء مروره بالاستانة امراً ببذل الجهد في سبيل تفاهم ايراني وروسي ، وتوجيه كل المساعي والنشاط الى وسائل الحرب ضد انكلترة .

وقد وصلت البعثة الافرنسية الى طهران في ٤ كانون الاول من عام ١٨٠٧ ، وسارع الشاه الى تصديق معاهدة فينكستين ، ووقع ملحقاً تخلى فيه لفرنسة عن

---

(١) كان نابليون يعتبر مسألة الوهابيين خاصة مسألة هامة . وقد طلب من مندوبيه في الشرق الادنى في سنة ١٨٠٣ معلومات عنهم . وقد نشرت المونيتور في ٣١ تشرين الاول من ١٨٠٦ دراسة مستندة الى الوثائق عن هذا المذهب .

جزيرة قارغ في خليج البصرة بصورة باتة ، وقد كان على مركبين حربيين افرنسيين ان يسلما للشاه في بندربوشير عشرين الف بندقية .

وعين الامبراطور للجنرال غاردان اربعة اشهر لاتمام مهمته . فاهتم ضباط البعثة للاسراع في درس افضل الوسائل لتنسيق الجيش الايراني وفتح الهند (١) ؛ وكان ما فكر فيه رئيس البعثة ضبط قبرص قبل كل شيء حتى تكون قاعدة للحركات العسكرية حيث كان من المتصور انزال العساكر الى اسكندرونة وتسييرها نحو البيره (بيره جك) ؛ وهنا ينقسم الجيش الى قسمين فيمر احدهما بالفرات ويتجه شمالا الى اورفه وماردين ويتقوى بالقوى النسطورية قبل ان يسير نحو السلطانية وقزوين ؛ وحينما يصل الى طهران يختلط بالقوى الايرانية التي يكون ضباطنا قد مرنوها على الاصول الاوربية ثم يزحف الى همدان بطريق مشهد . اما القسم الثاني فيدبر ما يحتاج اليه من قوارب ويتجه جنوباً في نهر الفرات الى اتجاه بغداد ، ثم يحول اتجاهه شرقاً نحو كرمنشاه واصفهان فيلتقي مع القسم الاول في هرات حيث يقوم فيها المعسكر العام . وفي حال التفاهم مع الروس فان القوى الروسية التي تشترك في الحملة تلتقي بجيوشنا في هذا المعسكر . اما الزحف على الهند فيكون اما عن طريق كابول وبشاور او طن طريق قندهار . ويظاهر هذا الزحف البري عملية الاخراج البحري الى شمال بومباي التي يكون الجنرال دى جان قد هيأ وسائلها في جزيرة فرانس ، ويكون الجيش مؤلفاً من اربعين او خمسين الف افرنسي ومن نحو ثلاثين او اربعين الف ايراني وهندي ادخلوا في ملاكه .

ومما فكر فيه اقامة حاميات منزلية على طول الطريق ؛ بحيث اذا وجدت قوى انكليزية ذات شأن في البحر الابيض وصعبت او عرقلت عملية الاخراج الى اسكندرونة أمكن بهذه الحاميات تسهيل مرور الجيش من الاناضول الى حلب . كذلك فكر بالاضافة الى هذا في طريق البحر الاسود وطربزون بحيث يمكن امرار الجيش الفرنسي من هنا الى ارضروم فتوريست .

---

(١) انشأ الافرنسيون مصنعاً للمدافع ليتفادوا صعوبة نقل المدافع بطريق الاناضول . المؤلف

ولم تسمح الاحداث بتنفيذ هذه الخطط ايضاً . لاننا لم نستطع ان نتفاهم بوجه ما مع روسية على تقسيم الشرق . فقد رضي نابليون بأن يصبح البحر الاسود بحيرة روسية غير انه كان يحرص على الاحتفاظ بمضيق الدردنيل في يده ، ويستهدف جعل البحر الابيض افرنسياً . وقد وافق القيصر اسكندر من جانبه على ترك قبرص وازمير وسائر موانيء الاناضول وسورية ومصر لنا غير انه لم يرض بالتخلي عن السيطرة التامة على المضايق . وهكذا رأى نابليون خططه القائمة على اساس التفاهم مع الروس تارة ومع ايران وتركية تارة تنهدم أثر واحدة .

ولما احتلت العساكر الروسية كرجستان في تشرين الثاني من عام ١٨٠٩ طلب الشاه من الجنرال غاردان المعونة الموعودة . ولم يكن في استطاعة هذا ان يتصل بالامبراطور بطريقة سريعة وكان هذا مما يؤسف له جداً . لأن الانكليز كانوا اذ ذاك يديرون في جميع انحاء ايران دعاية كيدية قوية لا سيما وقد كان لهم فيها انصار كثيرون . وكان مندوباهم السياسيان هارفورد جون ومالكولم يترصدان الفرصة المناسبة للحلول محل البعثة الافرنسية (١) . فلما سقط في يد الشاه ورأى آماله في فرنسة تخيب هذه الخيبة الشديدة لم ير مناصاً من قبول طلبات الانكليز وكان ذلك في شباط عام ١٨٠٩ ، وحينئذ سارع الجنرال غاردان وافراد بعثته الى الانسحاب من ايران دون انتظار تعليمات من الامبراطور . وقد كانوا مضطرين الى العودة بطريق تفليس وروسية لأن الاراضي التركية كانت مقفولة في وجوههم بسبب كون الباب العالي اذ ذاك حليفاً لبريطانية ، وقد انقطعت الصلات السياسية بينه وبين فرنسه تبعاً لانقطاعها بين هذه وحليفته .

وهكذا غدا نفوذ الانكليز حراً في ايران من دون مزاحم يقوى ويتسع كما يشاء ،

---

(١) كان مالكولم يقيم في بندر عباس والسير هارفورد وجون في بندر بوشير ؛ وكانت المراكب البحرية الانكليزية والعساكر الهندية الانكليزية مستعدة لمظاهرتهما في كل آن .
المؤلف

ولم يكن لنا فيها اي ممثل منذئذ الى تاريخ ١٨٣٩ ؛ حيث قررت حكومة لويس فيليب ايفاد الكونت سرساي مفوضاً فوق العادة .

— ٨ —

على ان اخفاق بعثة غاردان في ايران واستيلاء الانكليز سنة ١٨١٠ على جزيرة فرانس لم يجعلا الافرنسيين يتخلون عن كل أمل لهم في فتح الهند ، لان نابليون لم يكن قد تخلى بعد عن خيال الهيمنة على الشرق . وليس من ريب في انه في خططه ضد روسيا كان يتعقب في قرارة نفسه السير وراء هذا الخيال وتحقيقه . ويدل على هذا ما قاله للموسيو دوناربون قبيل حركته نحو روسيا حيث قال له :

« ان هذه الطريق الطويلة هي طريق الهند ؛ ولقد قطع الاسكندر الكبير في سبيل الوصول الى ضفاف الغانج طريقاً اطول من طريق موسكو ؛ ويبدو انه يجب ان ندور من طرف اوروبا الاقصى الى آسيا حتى نرغم انكلترا ونقهرها . وانكم لتعرفون ما آل اليه أمر بعثتي الجنرالين غاردان وجوبرت حيث لم يأتيا بثمرة ذات شأن . ولكن في حقيبتي الخرائط والمعلومات الوافية عن الطرق والاقوام التي تقع على طريق الهند الانكليزية من اريوان فتفليس فما بعد . وهل تظنون انه في الامكان ان يزحف جيش افرنسي عظيم تظاهره قوات كبيرة معاونة من تفليس الى الغانج ، وهل لا تظنون ان نخزة برأس سيف فرنسة تكفي لهدم البناء الانكليزي الهندي وهو ليس الا سوقا تجارية كبيرة ؟ .. »

— ٩ —

ونرى من المفيد الآن وقد اوضحنا بايجاز الخطط الافرنسية ان نستعرض بايجاز ايضاً أهم ما بذلته حكومة الهند من جهود ، وما اتخذته من تدابير دفاعية ، واحد أثر واحد ، في سبيل احباط تلك الخطط .

ان خبر نجاح حملة بونابارت في سنة ١٧٩٨ أثار اضطراب الموظفين الانكليز وبعث في نفوسهم شديد القلق . حتى ان الخبر الذي وصل اليهم في نفس الظرف بظفر نيلسون في ابي قير الذي حمله ضابط من ضباط نلسون بطريق بادية الشام لم يسكن هذا

القلق . ولقد كان موقف تيبو صاحب مما يزيد في قلقهم ، حيث عرفوا في برهة وجيزة ان هذا الأمير طلب معونة ضدهم من جزيرة فرانس ، وكانوا يرون في اهتمامه المتزايد للتسلح خطراً راهناً ، كما كانوا يعرفون ما بينه وبين حاكم كابول زمون صحاح من صلات وثيقة . ولما ارسل ويلسون وكيلهم السياسي في مخا كتاباً يذكر لهم فيه خبر كتاب ارسله بونابارت الى تيبو صاحب بتاريخ ٢٥ كانون الثاني من سنة ١٧٩٩ يعلمه فيه بقرب حركته من القاهره على رأس جيش جرار لا يغلب الى ميسوري ، واتحاده مع قواه لم يبق لديهم اي شك في ان ما يبدو من نشاط تيبو واستعداده متصل بالحملة المصرية . ولقد كان موقف الانكليز في هذه الاثناء حرجا جداً ، لان كثيراً من الفصائل الافرنسية المتطوعة ظلت في خدمة امراء الهند ، وفي حالة تجمعها تؤلف جيشاً قد يبلغ الستين الفاً . وهذا الجيش المدرب على الطريقة الاوروبية كاف لهزيمة القوى الانكليزية المعدة لحماية الممتلكات الهندية هزيمة ساحقة فكان من شأن هذا ان يزيد من قلقهم وهمهم بطبيعة الحال .

على ان من حسن حظ الانكليز انه كان بين امراء الهند المحليين خلافات كبيرة ، كما ان زعماء القوات الفرنسية انقسموا الى صفين متعارضين صف انصار الملكية وصف انصار الثورة ، واخذ النزاع يشتد بينهم ويستشري بحيث لم يكن من الممكن قيام اتحاد وتضامن لا بين هؤلاء ولا بين اولئك .

ولقد عرف اللورد ويسلي كيف ينتفع بهذه الاختلافات . ولما تخلى عن منصبه كوال عام سنة ١٨٠٥ كانت بلاد الهند قد غدت مقفولة تماما في وجه الأفرنسيين كما كانت الممتلكات الانكليزية قد اتسعت اتساعا عظيما ، وكانت الفصائل الافرنسية المتطوعة قد سرحت وجردت من السلاح ، وبعثر الاشخاص القادرون على التدبير والتشكيل شذر مذر ، وكانت الدول الهندية الرئيسية قد مزقت واضعفت او ضمت الى الممتلكات الانكليزية .

ولم يقتصر جهد ويسلي على داخل حدود الهند بل حول انظارة الى الانحاء البعيدة ايضاً ، فدبر امر تطويق هومز ومضيق باب المندب بلا توان من قبل اسطول الاميرال راينسر ومراكب الشركة الهندية ، فاحتلت بريم سنة ١٧٩٩ وسوقوطرا

سنة ١٨٠١ ، وأوفد الى مسقط (١) مندوب انكليزي لعقد معاهدة صداقة وصلات ودية مع سلطان عمان. واتخذت التدابير لكسب شيخ الكويت .

ومن جهة اخرى ارسل السير جون مالكولم الى ايران سنة ١٨٠٠ ليزاحم بعثة العالم الطبيعي الافرنسي اوليفيه . فاستطاع ان يعقد مع الشاه معاهدة عام ١٨٠١ التي قضت بمنع الافرنسيين من الاقامة في ايران بل وفي سواحل خليج البصره وجزره ايضاً . ثم ارسل الانكليز سنة ١٨٠٣ مندوباً سياسياً الى البصرة لمراقبة وادي الفرات وانشاء الصلات مع زعماء العرب فيما بين النهرين لاحباط خطط بونابارت القائمة على اساس عبور بادية الشام .

ولقد اهتم كل من كورنواليس وبالو وخاصة اللورد مينتو الذين تولوا منصب والي الهند بعد اللورد ويسلي واحداً أثر واحد في سني ١٨٠٥ — ١٨١٣ لتوطيد الحكم الانكليزي في الهند وتقوية دعائمه ؛ بل وشملوا باهتمامهم ما وراء الحدود من قاليم ايضاً ؛ فوطدوا نفوذ انكلترا في بلاد السيخ والافغان والسند وايران وفي بلاد العرب القائمة على خليج البصرة ، ولقد ذهب افنيستون في مارس عام ١٨٠٦ بمهمة خاصة الى كابول ونال من حاكمها الشاه سودجان عهداً بمنع مرور الجيوش الافرنسية المحتمل زحفها من الاراضي الافغانية ، واخذ في آب من نفس السنة توقيع حكام بلاد السند والسيخ على عهد مماثل .

ولقد جعلت مغادرة بعثة غاردان لايران الجو خالياً للمندوبين الانكليز ، فتمكنوا من اخذ موافقة الايرانيين على معاهدة جديدة تعهد فيها الشاه بمنع مرور اي جيش اوروبي يحاول الزحف الى الهند ؛ وكفلت بريطانيا مقابل ذلك استقلال ايران .

---

(١) ان امام مسقط قد استمر في صلاته الحسنة بفرنسة بعد حملة بونابارت ايضا حتى انه كان يطالب بعض الضباط الافرنسيين لتدريب جيشه . غير ان موقفه تغير بالنسبة الينا بعد معاهدة أميان فامتنع عن الاعتراف بالقنصل الذي اوفدناه قائلا ان له في المحيط الهندي مراكب كثيرة ، وانه اذا ما وجد لديه وكيل افرنسي فان هذا يحمل الانكليز على ضبط مراكبه حيث يعتبرونه حليفا لفرنسة ، واذا اعلن الانكليز عليه الحرب فانه يعجز عن مقاومتهم ، ثم قال ان القنصل الاول اذا كان يعده بالمظاهرة والمونة فانه مستعد لقبول الوكلاء الافرنسيين في مختلف انحاء بلاده . . . المؤلف

وبينما كانت هـذه المساعي جارية استطاع كل من الضباط الانكليز غرانت وقيريستي وبوتينغر ان يختبروا ويدرسوا جميع طرق بلوجستان الحربيـة ، وان يعقدوا اتفاقات صداقة مع مختلف زعماء هذه البلاد . وكان البحارة الانكليز ينشطون من جانبهم في تطهير خليج البصرة مما كان يملؤه من القراصنة الذين لم يكادوا يحصون كثرة . وبعد اتفاق عقده الانكليز مع سلطان عمان سنة ١٨١٠ جاءت حملة انكليزيةـ هندية فدمرت معصم القراصنة الرئيسي في راس الخيمة ، وحرقت نحو خمسين من مراكبهم وقد وصل نشاط المندوبين الانكليز في هذه الأونة الى جزيرة العرب وبادية الشام ايضاً ، وكان هدفهم قفل الباب في وجه أي مندوب افرنسي يحاول الاتصال بالقبائل العربية ، ونيل موافقتها وعهدها على التضامن مع حركة زحف افرنسية .

— ١٠ —

ولم يذهب سقوط نابليون قلق الانكليز على ممتلكاتهم في الهند نهائياً . فان الحرب الايرانية ــ الروسية الجديدة والفوائد التي ضمنتها معاهدة كاستان للروس جعلت انكلترة ترى ان الخطر الروسي قد احتل مكان الخطر الافرنسي .

ولقد اوضح ويليان تورن وجون ماكدونالد هذا الخطر ونوها به في الكتاب الذي اصدراه عـام ١٨١٨ ؛ وقد كان موضوع هذا الكتاب درس احتمالات غزو الهند من قبل دولة اوربية ما . ومع ان الكاتبين قالا ان احتمال سير ونجـاح حملة بطريق البحر الاحمر وخليج البصرة خيالي بعيد التحقيق لما يقتضيه هذا من السيطرة التامة القاطعة مقدما على العراق ومقاطعات ايران الجنوبية بالاضافة الى البصرة وسوريـة ، فقـد سلما باحتمال سير ونجاح حمـلة تزحف بطريق ايران وافغان الشمالية ؛ وقالا في خاتمة بحثهم ان جيشاً ايرانياً مدرباً بقيادة ضباط اوربيين بارعين هو أشد الاخطار التي يمكن ان نواجهها في سهول الهند . وان هذا داخل في حيز الاحتمال والتنفيذ . وانه اذا كان الاستيلاء على الهند من قبـل دولة اوربية ليس لهـا طريق بحري امين لا يعود الا بأقل الفوائد فان السياسة الروسية قد ترى ان الهنـد منبع رئيسي من منابع عظمتنا وسلطاننا وان من المفيد انتزاعها من ايدينا .

ويسهل الآن استناداً الى ما استعرضناه من خطط لغزو الهند ان نستخرج الاسس

الرئيسية التي قامت عليها السياسة الانكليزية في الشرق الادنى في القرن التاسع عشر . فقد ترسمت انكلترة التي وقعت تحت تأثير الخوف من حركة زحف وغزو تأتي من طريق سورية او بحر الخزر وطريق او كسوس أبعاد فرنسة عن مصر وسورية وبلاد العرب ، واقصاء ورسية عن البحر الابيض وايران والافغان ، وجعل جميع المعابر المؤدية الى المحيط الهندي والشرق الاقصى من البحر الأحمر وخليج البصره تحت رقابتها واشرافها . لا سيما وقد وطدت اقدامها في رأس الرجاء وجزر مورس وسيشل ، وبعبارة اخرى ترسمت السيطرة على الطرق المختلفة التي تصل الى الهند برية كانت او بحرية ؛ واقصاء كل دولة مزاحمة عن خليج البصرة بكل قوة وحزم ، وجعل هذا الخليج بحيرة انكليزية تستطيع ان تسير منه الى شط العرب كل وقت وبكل سرعة حملة انكليزية هندية تضرب من الوراء اي عدو تحدثه نفسه بالسير بطريق الفرات الى الأندوس . وسنستعرض في الابواب التالية مظاهر هذه السياسة المختلفة وما ولدته بين الدول من تنافس وتزاحم في الشرق الادنى .

الفصل الرابع

التشاد الافرنسي — الانكليزي في القرن التاسع عشر

●

الا تكون فرنسة قريرة العين بقيام دولة جديدة في سورية ومصر تكون هي موجدتها وحليفة طبيعية لها ، وان لفرنسة في الجزائر وصاية فما الذي يبقى بينكم وبين حليفتكم مصر ، لا شيء تقريباً . ولن تلبث تونس وطرابلس البائستان وسائر سواحل افريقيا والقسم الممتد من القدس الى خليج الاسكندرونة ان تدخل في نفوذكم وسيطرتكم المطلقة . وهذا ليس مما يوافقنا .

من رسالة اللورد بالمرستون الى رئيس الوزارة الافرنسية الموسيو غوزبوت في ٤ مارس ١٨٤٠ .

●

الصداقة الافرنسية المصرية — طرق التجارة في الشرق الادنى — مذبحة سورية — فتح قناة السويس — الاحتلال الانكليزي لمصر — مسألة الشيخ سعيد — شؤون مسقط — الاتفاق الافرنسي الانكليزي عام ١٩٠٤ .

— ١ —

بعد سنة ١٨١٥ اتجهت سياسة فرنسة الى التفاهم مع انكلترة . غير انه لم يمر وقت طويل حتى رأينا انفسنا في حالة خلاف وتشاد معها بسبب مصر وسورية .

ومع ان محمد علي حارب ضدنا في ابي قير سنة ١٧٩٩ فانه لم يقصر منذ بدء حكمه في اظهار ميوله الودية نحونا . وقد استعان بكثير من الافرنسيين عسكريين

ومدنيين في تنظيم امور مصر وانهاضها (١) .

ولقد قوبلت هذه الميول والجهود بالثناء والارتياح وجميل العطف من الحكومة الافرنسية والرأي العام الافرنسي على السواء . اما بريطانيا فقد كانت تنظر الى الباشا كعدو حقيقي لها، وتراه هو المسؤول عما منيت به مساعيها في سبيل ترسيخ اقدامها على ضفاف النيل بعد جلاء القوات الافرنسية عنها من اخفاق . حيث انتصر في اول امره على الامير محمد الالفي نصير انكلترة المخلص ، ثم حال دون نجاح اخراج القوة الانكليزية الى الاسكندرية سنة ١٨٠٧ . فلم يستطع جيراننا الانكليز ان ينسوا ما اوقعه فيهم من هزيمة ، وما كان من تشهيره لرؤوس المئات من جنودهم في ميدان الازبكية ، ومن تطويفه بالاسرى الانكليز في الشوارع يتلقون هتافات الشعب التحقيرية .

ولما اصاب محمد علي ما اصاب من توفيق ونجاح وبسطة نفوذ في السنين التالية في البحر الاحمر وبلاد العرب والسودان اشتد شعور العداء فيهم نحوه ، وازداد شدة حينما اقترح علينا في سنتي١٨٢٧ و ١٨٢٩ ارسال حملة ضد الجزائر ووصل عداؤهم له الأوج حينما تقرر في معاهدة كوتاهيه في ٥ مايس ١٨٣٣ ترك ولايات اضنه وسورية له ، حيث رأوا بعين القلق والغضب الشديد ان طريق السويس والفرات تصبح في يد صديق لفرنسة ، فقرروا من جهة وجوب كسر نفوذه ومن جهة اخرى عولوا على الثأر منا لنجاحنا في الاستيلاء على الجزائر وفي ميدان السياسة الشرقية .

ولقد بدأ أثر العداء الانكليزي لنا في الميدان الاقتصادي اولا ، فاحتجوا بالاحتكارات التي احدثت في مصر وتضررهم منها ، وعقدوا مع الحكومة العثمانية في شهر تموز سنة ١٨٣٨ معاهدة ضمنوا فيها لانفسهم حرية تجارية واسعة في بلاد الامبراطورية العثمانية وقضوا على تلك الاحتكارات .

---

(١) يحسن ان نذكر من هؤلاء خاصة الملازم سيوى الذي كان يقود الجيش المصري في حرب تزيب عام ١٨٣٩ .

المؤلف

وقد اغتنموا فرصة الخلاف التركي المصري الذي انتهى الى موقعة نزيب (١) وهزيمة الجنود العثمانية فاستغلوها ضد محمد علي وبالتالي ضد نصيرته فرنسة . ولم تكن لدينا المعلومات الوافية عن مطامع الدول كما اننا لم نكن نعرف حقيقة قوة الباشا وموقفه ، فساقنا جهلنا الى تعضيده ومظاهرته في مطالبه ظانين ان في استطاعته الدفاع عن الاراضي التي استولى عليها ، وعدم تمكين احد من انتزاعها من يده ، في حين لم تكن قوته ونفوذه في الواقع في الدرجة التي يصح الاعتماد عليها . ولقد نجح اللورد بالمرستون بحركة سياسية بارعة وسريعة في ان يجمع حول انكلترة كلا من روسية وبروسيا والنمسا ، فاجتمع مندوبو الدول الاربعة في لندن ، ووقعوا عهداً بتاريخ ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ (٢) بحل الخلاف دون ترك فرصة لتدخل فرنسة .

وقد ووفق في هذا العهد على استعمال العنف والقوة مع الباشا اذا ما اقتضى الأمر وتقرر ارسال اسطول حليف بقيادة الاميرال نابير الى بيروت وآخر بقيادة الاميرال ستوبفورد الى الاسكندرية ، ووصل الاسطولان فعلا الى الثغرين بعد شهر واحد من المعاهدة .

وفي هذه الاثناء دس ريشارد وود الانكليزي اصابعه في لبنان فأثار فيه ثورة ضد الاحتلال المصري فلم يلبث امل الموسيو تيه في مقاومة القوى المصرية أن خاب ، حيث لم يبد منها الا مقاومة ضعيفة جدا ، ثم تلاحقت الاحداث واحداً أثر واحد

---

(١) هذه الموقعة وقعت بعد انسحاب ابراهيم باشا من كوتاهيه بناء على مساعي الدول وانذارها ونزيب كانت من اعمال حلب وهي قرب الفرات .

(٢) هذا العهد كان نتيجة لثورة محمد علي وزحف جيوشه بقيادة ابنه ابراهيم الى الشام فالاناضول ووصوله الى كوتاهيه . ومما يذكر ان السلطان وحكومته قد اعتراهم الهلع فاستغاثوا بروسية ، واغتنمت هذه الفرصة فسارعت الى نجدته وعقدت معه معاهدة دفاعية تعرف بمعاهدة خنكار اسكله سي « ميناء السلطان » فاقلق هذا بال انكلترة لان الدولة العثمانية بهذا العهد اوشكت ان تكون محمية روسية ، فدعت دول النمسا وبروسية وروسية الى مؤتمر في لندن لبحث الموقف . وفي هذا الاجتماع تقرر انذار محمد علي بسحب قواته من الاناضول مقابل منحه ولاية مصر وراثة وولايات الشام واضنه طيلة حياته وهددوه بمساعدة الدولة ضده . وهكذا نقلت بريطانيا المسألة المصرية الى الساحة الدولية .

وبسرعة عظيمة ، فأعلن في الاستانة بتاريخ ١٤ ايلول عزل الباشا واحتلت القوى الحليفة بيروت وصيدا وصور وطرابلس وسقطت عكا بتاريخ ٣١ تشرين الثاني في يد الاميرال ستويفورد ، فما كان من لويس فيليب الا ان تراجع امام خطر اتحاد جميع الدول ضدنا فاستقال في ٨ تشرين اول وخلفه في رئاسة الوزراء غويزوت سفيرنا في لندن ، ووجه هذا اهتمامه الى ادخال فرنسة في المجلس الاوروبي ، ولم يسع محمد علي الا قبول شروط السلطان فقبلها بتاريخ ١٠ حزيران سنة ١٨٤١ وكانت تقضي ان ان تترك مصر لمحمد علي واولاده من بعده ، وان يتخلى عن كل مطلب ودعوى له في آسيا . والغيت معاهدة ١٥ تموز ١٨٤٠ ووقعت فرنسة مع سائر الدول بتاريخ ١٣ تموز سنة ١٨٤١ معاهدة المضايق التي قضت باقفال الدردنيل والبوسفور في وجه جميع الاساطيل الحربية الاوروبية .

ومما لا ريب فيه اننا خرجنا من هذه الازمة ضعفاء الهيبة ؛ مجروحي الكرامة ، ولكننا على كل حال كان لنا ان نرتاح الى كل ما يمكن ان يكون لمحمد علي في مصر من قوة ونفوذ ؛ لأنه كان في ذلك ضمان لدوام نفوذنا فيها .

ومع ان انكلترا قد نجحت في صرفنا عن سوريا والفرات . وفي اقصاء روسية عن المضايق ، فانها ارتكبت من دون ريب خطأ في ما كان منها من موقف عدائي نحو والي مصر على ما قرره الكاتب الانكليزي السير فالانتين شرويل . فقد جاء في كتاب اصدره روجر لابيل عن المسألة المصرية مستنداً الى وثائق كثيرة أن ذلك الانكليزي الذي كتب كتاباً جمع فيه معلومات قيمة عن ما جرى من احداث لام الحكومة الانكليزية ، وتساءل عما اذا لم يكن اجدى على بريطانيا ان يتصرف بالمرستون مع محمد علي تصرفاً حكيما ليناً ، وان يلتزم جانبه : ومن الحق ان انكلترا لو مثلت دور المحامي الظهير لمحمد علي في سورية ومصر وبلاد العرب والسودان ، ووقفت منه موقف المؤيد اكثر مما فعلت فرنسة واثارت في نفسه الحرص باسلوب سياسي بارع ، لاطمأنت على طريق الهند ، واقامت أمنها على قاعدة اقوى ، ولكان في امكانها منذ ئذ ان تنشيء الامبراطورية العربية — الانكليزية التي حاولت بعد هذا الظرف بنصف قرن وما تزال تحاول خلقها .

— ٢ —

وحينما كان المسيو غويزوت يشترك في مذكرات معاهدة المضايق حاول ان يتفاهم مع الحكومة الانكليزية على مسألة طرق التجارة في الشرق الادنى . وهي المسألة التي كانت أهم مواضيع واسباب التشاد والتزاحم بين الافرنسيين والانكليز . وقد ابلغ سفيرنا في لندن اللورد بالمرستون بتاريخ ١٣ كانون الثاني من سنة ١٨٤١ مذكرة شفوية قال فيها : ان حرية طريق السويس - البحر الابيض - البحر الاحمر وطريق البحر الابيض - سورية - الفرات - البصرة التجاريتين وجعلها في نطاق الحياد مسألة مهمة لجميع اوروبا ، ولما كانت الصلات بين اوروبا وآسيا آخذة بالازدياد بسرعة عظيمة فان اقرار مبدأ كهذا ممكن الان من جهة ومفيد جداً من جهة اخرى ؛ وقد لا تسنح فرصة اخرى له . وقد اعاد المسيو غويزوت الكلام في هذه النقطة بعد بضعة اسابيع ايضاً ، حيث جاء في رسالة بعث بها الى القائم باعمال سفارتنا في لندن أن اقرار حرية الانتفاع من الطرق التي بين اوروبا وآسيا سواء كانت طريق برزخ السويس والبحر الاحمر او سورية والفرات وخليج البصرة لجميع الدول والأمم الاوروبية دون ان يكون لأي منها امتياز خاص يصح ان يكون سبب تفاهم وطيد الاركان .

ولم يتأخر جواب انكلترا كثيراً . فقد اجاب اللورد بالمرستون الموسيو غويزوت في تاريخ ٢١ شباط ١٨٤١ قائلا : ان اقرار حق انتفاع الدول الاوروبية من طرق النقل الكبرى بين اوروبا وآسيا بحرية — مهما كانت صيغة العهد الذي يتفق عليه — لن يتلقى الا حركة انكليزية اريد بها ضمان مصلحة انكلترة الخاصة . في حين ان من اهم ما وجه الى السياسة البريطانية منذ ١٥ تموز ١٨٤٠ من مؤاخذات وانتقادات انها ارادت اغتنام فرصة المسألة المصرية لحصر طرق النقل في يدها . وماذا يفيد جعل هذا مبدأ شاملا لجميع الدول في حين أنه ليس هناك دولة اخرى لها امبراطورية في الهند ؟ انه سيقال في حالة اقرار ذلك وموافقتنا عليه ان انكلترا قد ابدت زهداً كاذباً لتخدع به الحلفاء ، وان هذا سيقال خاصة في فرنسة وليس في ايدينا امتياز رسمي ، ولسنا نسعى وراء الحصول على مثل ذلك ، والافضل ان يكون كل حراً

في طلب ما يريد والحصول عليه حسبما تساعده قابليته للسعي ؛ وهذا ليس مما يمكن ان يكون موضوعا لشروط تصاغ في معاهدة . . ولم يلح الموسيو غويزوت بعد هذا فظلت المسألة حيث هي .

على انه كان لدى انكلترة في هذا الوقت اسباب مهمة تسوغ طلب عدم الدخول في مفاوضات مماثلة ، حيث كانت منهمكة في النظر في خطط النقل السريع الذي اقترحها الضابطان واغهورن وفرانسيس شيسي . وقد لمح بالمرستون في قوله « قابلية الشخص للسعي » الى هذا . فان جيراننا عبر المانش لم ينوا منذ الحملة المصرية الافرنسية في تهيئة وسائل النقل السريع بين انكلترة والهند . ولقد عرضت حكومة بومباي على الحكومة التركية مرتين في سنتي ١٨٢٣ و ١٨٢٦ اقتراحا بتشغيل رحلة نقل بحرية تجارية بين الهند والسويس ولم تحصل على موافقتها . وقد حاول واغهورن بناء على ذلك ان يثبت ان سلوك طريق مصر الى الهند حتى بالوسائط القديمة يعود بوفر عظيم فاستأذن بارسال نسخ ثانية من الرسائل التي ترسل بطريق رأس الرجاء على ان يتحمل النفقات ، واستخدم الوسائط النقلية المعتادة ، وسار في طريق الاسكندرية — السويس الصحراوية ، واحرز السبق في ايصال الرسائل . وبناء على هذه التجربة جاء في سنة ١٨٣٠ من بومباي الى السويس مراكب تجارية لأول مرة ، ولما لم يروا محمد علي مرتاحاً الى هذا اضطروا الى درس طريقة النقل النهري في الفرات ، وبعد ثلاث رحلات خلال سني ١٨٢٨ — ١٨٣٢ بين طرق البحر الاحمر ، وما بين النهرين تمكن الضابط الثاني فرانسيس شيسي من الوصول الى نتيجة تختلف عما وصل اليه الاول وايد اختيار طريق خليج البصرة . ولقد اجريت تجارب قياسية بين الطرق حتى امكن الوصول الى هذه النتيجة . غير ان هذه التجارب لم تكن مشجعة لكثرة النفقات من جهة وصعوبة نقل ما يقتضي من الفحم عن طريق رأس الرجاء من جهة اخرى . والطريق التي رؤي انها الفضلى نوعا ما بالنسبة للمستقبل بعد هذه التجارب هي السكة الحديدية والسفينة التجارية معاً في آن واحد . وقد اقترحها شيسي سنة ١٨٣٧ بعد دراسة مديدة وعميقة قام بها لمعرفة قابلية الملاحة في الفرات واقتراحه قام على اساس انشاء خط حديدي يبتدىء من السويدية الواقعة بين اللاذقية

واسكندرونة وينتهي بمسكنه القائمة على الفرات ماراً بحلب ، وتأسيس رحلة نقل نهري بين مسكنة والبصرة اتماماً لهذا المشروع .

فالانكليز كانوا على أهبة الشروع في تنفيذ اقتراح شيسي حينما اقترح المسيو غوبزوت على اللورد بالمرستون الاتفاق على حياد طرق السويس وخليج البصرة وحريتها . وكانت المراكب التي ارسلت قطعاً مرقمة من انكلترا الى بغداد توشك ان تبدأ بسيرها وسفرها في نهر الفرات ، وقد انشأت شركة البنسينسول والشرق من ناحية ثانية في تاريخ ١٨٤٠ رحلة نقل بحري بين الهند والسويس ، وكانت حكومة لندن تفكر في انشاء خط حديدي بين الاسكندرية والسويس بطريق القاهرة ، وتأمل ان تنال امتياز هذا الخط فتتعطل به خطة فرنسة في فتح قناة السويس .

وهكذا يبدو واضحاً ان اللورد بالمرستون لم يكن ليسمح لأي دولة اوروبية اخرى وخاصة لفرنسة بادعاء اي حق في طرق النقل الكبرى الواقعة بين اوروبا وامبراطورية الهند ، ولم يقصر في جوابه في التنبيه على ان انكلترا هي وحدها صاحبة هذه الامبراطورية .

— ٣ —

وفي سنة ١٨٥٤ نشبت حرب القرم . وقد ادخلت معاهدة باريس المؤرخة في ٣٠ مايس ١٨٥٦ والتي انتهت بها تلك الحرب بعض التعديلات في الصلات بين تركيا والدول الاوروبية (١) فقد تكلفت كل من انكلترة والنمسا وفرنسة وبروسية وروسية

---

(١) تحالف في هذه الحرب كل من انكلترة وفرنسة وسردينيا (ايطاليا) والنمسة وبروسية مع الدولة العثمانية وكان النصر في جانب الحلفاء على روسية فعقدت هذه المعاهدة التي اعترف فيها بدخول الدولة العثمانية في ساحة الدول الاوربية وتمتعها بالحقوق الدولية العامة ، وباستقلالها وتمام ملكها واعتبار الاخلال بموادها اخلالا بالمنافع الدولية العامة . وتعهدت الدولة العثمانية فيها بحسن رعاية ومعاملة النصارى واحترام حقوقهم وحرياتهم وابقت حكم عهد لندن ببقاء المضايق مسدودة في وجه جميع الاساطيل الحربية الاجنبية نافذا ، واوجبت حل الخلاف الذي قد ينشب بين احدى الدول والدولة العثمانية بواسطة الدول بصورة سلمية قبل الاحتكام الى القوة ومع ان الدولة العثمانية كانت حليفة ومنتصرة فالمعاهدة تعتبر وثيقة خولت الدل الاوروبية حق التدخل في شؤونها .

المعرب

وساردينية باستقلال الامبراطورية العثمانية . وكان هذا بمثابة اعتراف بان اية حركة من شأنها الاخلال بهذا الاستقلال تعتبر مغايرة لمصالح اوروبا . وقد تقرر وجوب طلب وساطة الدول الموقعة على المعاهدة في حالة قيام خلاف بين تركيا واحدى هذه الدول قبل الاحتكام الى القوة . وهذا يعني ان الدول ستتدخل دائماً في سياسة الامبراطورية العثمانية . ولم يمض وقت طويل حتى وقعت مذبحة سوريا فكانت الفرصة الاولى السريعة لتطبيق احكام معاهدة باريس .

ان السلطان سليم حينما انتزع سورية من ايدي المماليك عام ١٥١٦ اهتم كثيراً لنيل مساعدة امراء لبنان واصحاب الشأن فيه . وقد ابقاهم في حكمهم ولم يتعرض لحقوقهم وامتيازاتهم ، واكتفى بضريبة خفيفة فرضها عليهم . اما سائر اقسام سورية فقد قسمت الى ثلاثة اقسام او ولايات والحقت بالاستانة ؛ وعهد بادارتها الى موظفين من الترك . وقد استمرت الامتيازات والحقوق الممنوحة لامراء لبنان الى عام ١٨٤٠ حيث نجمت ازمة الشرق الادنى . وقد حاولت تركيا استناداً الى دول اوروبا باستثناء فرنسة اغتنام الفرصة ، وحرمان لبنان من امتيازاته ، وادخاله تحت سيطرتها المباشرة . فاعتقلت امير لبنان ونفته ، وحاكت المكائد واثارت النزاع بين الدروز والموارنة ؛ واقنعت الدول رغم مخالفة فرنسة بتبديل الامير الشهابي وتقسيم لبنان الى حكومتين احداهما نصرانية في الشمال واحداهما درزية في الجنوب ، وكان هذا التقسيم نواة حرب اهلية بين الدروز والموارنة بلغت اوجها في مذابح عام ١٨٦٠ .

وقد كان من فرنسة التي كانت حامية الموارنة في احدى الحملات الصليبية ان تدخلت في الامر منذ البدء وبكل حزم وعزم ؛ غير ان حركتها هذه كانت تتعارض مع حركة انكلترة صديقة الدروز . ولقد اوقع الدروز في الموارنة عام ١٨٤٥ مذبحة بتحريض ضمني من القنصل الانكليزي روز ، فوقفت حكومة لويس فيليب موقفاً شديداً ، وهددت الباب العالي باحتلال سورية ، فامكن بذلك وبفضل بعض التدابير التي اتخذتها تركيا اعادة السكينة موقتاً . غير ان الاعداء لم يصطلحوا فيما بينهم ؛ واخذ عمال الانكليز يصورون للمسلمين ان فرنسة هي المسؤولة عما منح للنصارى من امتيازات سنة ١٨٥٦ لانها هي التي طلبت ذلك وفرضته بتدخلها . وقد انتهت هذه

التحريكات والمكائد الى مذبحة هائلة في ربيع عام ١٨٦٠ ، حيث اعتدى الدروز يشجعهم تحريض الموظفين العثمانيين وخاصة خورشيد باشا والي بيروت على الموارنة في كل مكان ؛ في ضواحي بيروت وصيدا وحاصبيا وزحلة وبشما ودير القمر واوغلوا فيهم ذبحاً حتى بلغ عدد الضحايا سبعة الاف في مدة قصيرة (١) وفي النصف الاول من شهر تموز حدثت اضطرابات اخري في دمشق لعبت فيها كذلك اصبع الوالي التركي احمد باشا فقتل اكثر من عشرة الاف نصراني (٢) ولم ينج باقيهم الا بتدخل الامير عبد القادر عدونا القديم . وقد كان المسلمون يبدون نحو الاوروبيين من العداء بقدر عدائهم للنصارى المحليين ، ولقد قتل قنصل هولاندة ، وتمكن ممثلو الدول الاخرى من النجاة ولكن مساكنهم دمرت . وقنصل انكلترا المستر برانك هو الوحيد الذي كان في طمأنينة تامة ؛ يستطيع ان يتجول في المدينة حراً اثناء المذبحة برعاية اصدقائه المسلمين وحمايتهم ، ولم يمس اي ملك لرعايا الانكليز كما لم تمتد يد بسوء للقنصلية البريطانية ومما يدعو الى الحيرة ان المستر برانك كان يتهم رفاقه الذين كانوا يشعرون بالهياج ويتوقعون الاضطرابات ويوصون بالاحتياط بالوسوسة وكثرة التوهم . وكان الوالي احمد باشا هو الشخص الوحيد الذي سارع الى التنصل من اي ترتيب ضد النصارى ، وكان يعرف ان حكومة لندن ظهيرة له ، وقد ظهر صدق ذلك حيث وقف السير فرغوسون في ١٣ اغستوس سنة ١٨٦٥ في مجلس النواب يلصق التهمة بين هتاف الاعضاء وتصفيقهم بالنصارى مقرراً ان تبعة ما وقع تعود اليهم .

وقد دعت فرنسة الدول الى مؤتمر وفقاً لمعاهدة باريس فاجتمع ممثلوها في تاريخ ٥ ايلول ١٨٦٠ ووقعوا عهداً بعدم استغلال اي واحدة منها هذه الفرصة . ثم قرروا

---

(١) الغالب ان الرقم مبالغ فيه كثيرا . وما نشر عن حادثة الستين ومقدماتها وسيرها من رسائل ويوميات لبعض مشاهديها وما كتب بعد ذلك من كتب مستندة الى الوثائق والحقائق يظهر ان هذه الحادثة كانت نتيجة التحريكات الاجنبية التي لم يكن ممثلو فرنسة بعيدين عنها . وان هذه التحريكات هي التي اثارت النعرة الدينية بعد ان كانت سياسة لبنان قائمة على العصبية الحزبية (قيسي ويمني) وكان النصارى والدروز والسنيون جنباً الى جنب في هذه النعرة .

(٢) وهذا الرقم مبالغ فيه كثيرا . . .

المعرب

بالاتفاق مع السلطان القيام بمظاهرة ارهابية . واخذنا على عاتقنا الوكالة عن اوروبا ، فارسلنا حملة الى سوريا بقيادة الجنرال بوفورد مؤلفة من ستة آلاف جندي ، ونزلت الحملة الى البر وطوفت في انحاء لبنان ، ولكنها لم تجد فرصة للتدخل ، ولا للسفر الى الشام . ولقد تقرر ان تمكث الحملة في سورية ستة اشهر فقط ، ثم مددت المدة الى ٥ حزيران ١٨٦١ ، حيث نجحت انكلترا في دعوة قوتنا الى الانسحاب والعودة وكان الأمن من ناحية اخرى قد عاد الى نصابه فعادت .

على ان العقوبات لم تكن كافية ، وقد تصرفت الحكومة العثمانية مع المسلمين بمحاباة عظيمة ، واهتمت قبل كل شيء لعدم اغضاب الانكليز . ومع ذلك فقد رمي احمد باشا بالرصاص وسم خورشيد باشا في الاستانة .

وقد وضعت لجنة دولية اجتمعت في بيروت بتاريخ ٩ حزيران ١٨٦١ دستوراً جديداً للبنان ضمن استقلاله وحماية نصاراه حماية قوية . ولقد خالف اللورد دوفرين ممثل انكلترة في اللجنة كل اقتراح بتوسيع حدود الجبل ، وكان موقفه سبباً لرد طلب النصارى ضم سهول عكار والبقاع وثغور بيروت وطرابلس وصيدا الى لبنان وتخييب آمالهم .

ومما يجدر ذكره من ناحية اخرى ان تدخلنا وموقفنا حفزا الدروز على ترك لبنان فنزح منهم جماهير غفيرة الى جبل حوران ، وتمتعوا هناك فيما بعد بحماية مندوبي الانكليز ورعايتهم ، ولم يقصر هؤلاء في اي وقت في الدفاع عن حقوق الدروز ومطالبهم تجاه رجال الحكم العثماني . ولقد ساعدهم تدخلنا على نشر فكرة « فرنسة النصرانية العدوة » في اوساط المسلمين وترسيخها في اذهانهم .

— ٤ —

ولعل المناسبة تسمح بالاستطراد الى توضيح الدور الذي قام به عبد القادر في اثناء المذبحة . فمن المعلوم ان عبد القادر بعد ان حاربنا بكل شجاعة في الجزائر من عام ١٨٣٢ الى عام ١٨٤٧ استسلم بتاريخ ٢٣ كانون الاول من سنة ١٨٤٧ الى الجنرال موريسيه وطلب السماح له بالانتقال مع عائلته الى مصر او الجزائر . ومع ان الدوق دومال قبل هذا الطلب الا ان حكومة لويس فيليب لم تجد في نفسها القوة على مخالفة

الرأي العام الافرنسي الذي كان يطالب بمعاملة عدونا بالمثل ، فظل الامير بسبب ذلك معتقلا في طولون ثم في بو واخيراً في امبواس ، وهنا اخبره البرنس ريس اي لويس نابليون في تاريخ ١٦ تشرين الاول ١٨٥٢ انه قد اخلي سبيله من دون قيد ولا شرط . فربطت هذه المنحة النبيلة الزعيم الجزائري بنا الى الابد . ولقد كتب الى ولي نعمته الذي غدا بعد بضعة ايام نابليون الثالث السطور الآتية :

« اني اقسم بان لا اقوم بحركة من شأنها الاخلال بالثقة التي منحتني اياها ، وان لا أخل بعهدي هذا وان لا انسى في اي وقت اللطف الكريم الذي نلته » .

ثم سافر في ٢١ كانون الاول من السنة نفسها الى بورسه على ظهر مركب افرنسي ، واستأذن سنة ١٨٥٥ نابليون الثالث بالانتقال الى دمشق والاقامة فيها (١) ولقد وجد هنا جزائريين كثيرين ، وخاصة الخليفة ابن سالم ومن هاجر معه سنة ١٨٤٧ حينما استسلم عبد القادر لنا ، وبعد قليل التحق به آخرون ، وهكذا تجمع حوله نحو (١٢٠٠) مغربي مخلصين له كل الاخلاص . وقد اشترى في دمشق عام ١٨٥٧ في حى العمارة القريب من الجامع الاموي بضعة مساكن واخذ يقضي حياته معتزلا السياسة متفرغاً للعبادة وتربية اولاده ورعاية جماعته وتوطينهم في ما استأجره واشتراه من المزارع في جنوب الشام . ولم يمض الا قليل حتى صار للأمير الذي اشتهر اسمه في الجهاد ، واتصل نسبه بالنبي (صلعم) نفوذ وحرمة عظيمتان في اوساط المسلمين . واخذ الشعب ينوه بورعه وتقواه وتبحره في العلم على الرغم من حسد العلماء له بسبب تفوقه في العلوم والمسائل القرآنية .

وحينما علم عبد القادر في مارس سنة ١٨٦٠ ان احمد باشا يدبر مكيدة للنصارى اخبر حالا قنصلنا المسيو لانوس بالامر . وهذا بدوره اخبر رفاقه القناصل غير انهم وخاصة قنصل بريطانيا لم يلقوا للانذار سمعاً ، وفي ٩ تموز انفجرت الثورة فرفع

---

(١) مما يجدر التنوية به ما كان من الامير من روح التسامح الديني حيث طلب ان يشهد مراسم تلبيس التاج للامبراطور في كنيسة نوتردام حينما كان في باريس . فادهش بطلبه الافكار الافرنسية العامة . المؤلف

الامير على بيته الراية المثلثة الالوان وسارع الموسيو لانوس وقناصل روسية والولايات المتحدة واليونان الى الالتجاء اليه . ثم بذل جهده مع الجزائريين حتى اعاد الامن الى نصابه وانقذ حياة اثني عشر الف مسيحي . وقد منح نابوليون الثالث عبد القادر وسام الشرف مكافأة على موقفه الجميل . واخذ الرأي العام الافرنسي يعلق عليه آمالا عظيمة . حتى ان الصحف اقترحت انشاء امبراطورية شرقية تضم سورية وما بين النهرين وجزيرة العرب يتولى هو امرها . ومع ان هذا المشروع لم يقترن باي سعي او نتيجة فانه لم يخل من اثارة لقلق الانكليز ، وصاروا من ذلك الحين يحسبون حساب النفوذ العظيم الذي كسبه الزعيم الجزائري الكبير في سورية ، ويترصدون حركاته بانتباه عظيم ؛ وقد اتسعت مخاوفهم فشملت اولاده واحفاده من بعده على اعتبار انهم يمثلون قضية فرنسية في الشرق الادنى . ولقد جهدت انكلترة عقب الحرب العالمية في اسقاط قيمة الامراء الجزائريين من العيون وترسمت ابعادهم عن سورية على اعتبار انهم قد يكونون عائقاً في طريق سياستها فيها . (١)

— ٥ —

كانت الخطة الافرنسية القديمة لحفر قناة السويس قد تركت موقتاً بعد جلاء عساكرنا عن مصر ؛ هذا بالاضافة الى خطأ حسابي وقع فيه المهندس لوبير اثار خوفاً من وجود فرق بين مستوى البحر الابيض ومستوى البحر الاحمر . غير ان مساعي واغهورن في سبيل ايجاد واسطة اتصال سريعة ومنتظمة بين الهند وبريطانية في طريق مصر جعلت بعضهم يعودون الى دراسة المشروع ثانية خلال سني ١٨٣٣ — ١٨٣٧ ؛ ثم أخذ فرديناند دى ليسبيس يفكر في حل المسألة ايضاً ، واخيراً صحح خطأ لوبير خلال سني ١٨٤١ — ١٨٤٧ من قبل لينان بك وستيفنسون ونكريلي وبوردالوس وظهر امكان نجاح المشروع .

غير ان محمد علي كان مخالفاً لفتح القناة ؛ بل لقد رفض طلب الانكليز لامتياز

(١) في فقرة الامير عبد القادر يبدو اسلوب الكاتب المستهجن الذي علقنا عليه واضحاً وعجيبا . . .
المعرب

تمديد خط حديدي بين النيل والبحر الاحمر ، وقرر ابدال الموظفين الانكليز بموظفين مصريين في المحطات المنزلية القائمة في طريق الصحراء بين الاسكندرية والسويس ايضاً . وهذا الموقف لم يتغير في عهد خلفه عباس مع ان انكلترة عدلت طلبها ، واخذت تسعى في تمديد خط حديدي بين الاسكندرية والقاهرة . فلما استلم الحكم سعيد باشا تغير الموقف ، وكان ان منح فرديناند دى ليسبس بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني من سنة ١٨٥٤ امتيازاً بانشاء وادارة شركة تضطلع بحفر قناة السويس ، ولم يتردد الخديوي الجديد الذي خلفه في اصدار مرسوم بتاريخ ٣ كانون الثاني من سنة ١٨٥٦ يؤيد مرسوم الامتياز الاول .

ولقد احدث هذا الامتياز ازمة حادة في الصلات الافرنسية الانكليزية ؛ في حين كان يظن ان من شأن الدم الانكليزي الافرنسي الذي امتزج في حرب القرم ، والذي لم يكن قد جف بعد ان ينتج اتحاداً وطيد الاركان بين فرنسة وانكلترة . ولكن جيراننا عبر المانش اغتاظوا جداً مما احرزناه من نجاح ، لا سيما وانهم لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً في خطة شيسي التي عادوا اليها ثانية بنتيجة دراسة جديدة قام بها المهندس أندرو ، حيث اقترح ان يمتد الخط الحديدي المتصور تمديده بين السويدية ومسكنه الى خليج البصرة مخترقاً وادي الفرات ، ولقد كانوا مطمئنين كل الاطمئنان الى اجابة الباب العالي الى طلب امتياز هذا الخط بالايجاب ولكنهم ادركوا ان هذا المشروع لن يكون الا مقابلة ضعيفة لفتح قناة السويس التي ستكون فرنسة صاحبة الحكم والنفوذ عليها بدون شك . ولقد كانت ثورة السباهيين في الهند بتاريخ ١٨٥٧ - ١٨٥٩ أكدت لهم شدة ضرورة طريق مستقيم يسيطرون عليها ، ويستطيعون بها تسيير القوى الى الهند بسرعة كافية ؛ فليس والحالة هذه محل لاستغراب المعارضة الشديدة التي اثارها مشروع دى ليسبس في انكلترة والتي لم تخف شدتها يوماً خلال السنين الخمس عشرة التي استغرقها تنفيذ هذا المشروع فعلا . ولقد كان في المشروع الافرنسي نقطة هامة كانت هي اكثر ما اثار غضب الانكليز ، فقد منح مرسوم الامتياز الشركة جميع الاراضي التي تستطيع ان تحييها ، وكان دى ليسبس يأمل ان ينشيء مشروع ري لستين الف هكتار من اراضي جسين القديمة الواقعة غربي القناة ، والتي كانت

شديدة الخصب في عهد التوراة . ومما تصوره حفر اقنية يجري فيها اليها ماء النيل العذب ، وجذب بدو شبه جزيرة سينا نحوها . ولقد دعا الامير عبد القادر الى مشاهدة عمليات الحفر عام ١٨٦٢ على امل توجيه انظار هؤلاء البدو وطمأنة قلوبهم ؛ حتى انه خصص للامير الفي هكتار في اراضي بئر ابي بلح الواقعة جنوب منفيس . ولقد بدأ الامير يستغل ما له من حرمة وصيت في نفوس المسلمين في جذب البدو وتجميعهم حول مشروعات الشركة ، بل ولقد فكر في ارسال احد اولاده ليعيش بينهم ايضاً . فمن السهل والحالة هذه تخمين شدة ما يمكن ان يثور في نفس اللورد بالمرستون من قلق حيث اخذ يرى من الان نشوء دولة صغيرة في منطقة السويس تحت الحماية الافرنسية تستطيع ان تقفل طريق الهند في وجه انكلترة . ولما لم يكن في امكان الوزير البريطاني تعطيل المشروع مباشرة فقد عمد الى اثارة حسد الخديوي وهواجسه ، لا سيما وقد كان الخديوي في قلق من جراء ما صار لعبد القادر من صيت ونفوذ في الشرق العربي . وقد كان من تأثير التلقين الانكليزي ان طلب اسماعيل من دى ليسبس العدول عن مشروعه ، فاستجاب هذا الى الطلب بتفاهم تام مع الامير عبد القادر . . .

ومما يجدر ذكره ان الانكليز فكروا في وسيلة خاصة بهم لتأمين اتصالهم بالهند في حالة قفل قناة السويس في وجوههم ، ولمزاحمة هذه القناة في الوقت ذاته ايضاً . وهذه هي مشروع فتح ترعة بين البحر الابيض والبحر الاحمر تبتدىء من حيفا وتمر بمرج عامر فالغور الذي ينحط عن سطح البحر نحو ٣٩٣ متراً وتمتزج ببحيرة لوط ، وتنتهي الى البحر الاحمر عند العقبة .

وفي تاريخ ١٧ تشرين الثاني من سنة ١٨٦٩ افتتحت قناة السويس رسمياً على رغم كل ما بذله الانكليز من سعي ومعارضة . وهذا التاريخ في تجارة البحر الابيض هو تاريخ انقلاب حقيقي حقاً ؛ وقد تمكن التجار الافرنسيون منذئذ من الاستيلاء على قسم من تجارة آسيه ولم تعد سلعها منحصرة في لندن ولا تتصل الى اوروبا الا عن طريقها ؛ ولم تلبث انكلترة ان اندمجت في الامر الواقع ولم تبق جامدة نحوه ، فلقد اقتنعت بان طريق البحر الاحمر قد اصبحت طريق الهند الكبرى ثم اخذت تبذل جهدها في سبيل كسب حق ويد في ادارة شركة القناه بعد ممانعتها اشد الممانعة

للاشتراك المالي في المشروع في اوله . ولقد واتتها الفرصة في تشرين الثاني من سنة ١٨٧٥ حيث اشترت من الخديوي الى (١٧٦٦٠٢) سهماً التي قدمتها الشركة هدية اليه (١) بمئة مليون جنيه فكسبت بذلك حقاً يكاد يقرب من حق فرنسة في ادارة الشركة . ونحن المسؤولون الوحيدون عن هذا الفوز الانكليزي ؛ فلقد راجعنا الخديوي قبل غيرنا في امر ما هو في حاجة اليه من مال ؛ على ان وزراءنا لم يجرأوا على الدخول في اي تعهد قبل مراجعة البرلمان ؛ فاضاعوا فرصة جعل القناة افرنسية بحتة .

— ٦ —

وقد كان التبذير الجنوني الذي اندفع فيه اسماعيل هو السائق له الى بيع اسهمه ومع ذلك فان بيعها لم يفده الا تأخير الازمة الحادة التي كان فيها برهة وجيزة ولم تلبث مصر ان افلست في ٦ نيسان ١٨٧٦ .

ولقد كان هذا الحدث سبباً للتدخل الاوروبي ، فقررت دول اوروبا قيام لجنة اشراف وتنظيم افرنسية – انكليزية ، غير ان حزب عرابي الوطني عرقل نشاط اللجنة ثم تلاحقت احداث مهمة من انسحاب اسماعيل الى نصب توفيق الى ثورة داخلية الى عدوان على الاوروبيين وقتلهم (٢) مما هيأ للانكليز الفرصة ، فسارعوا الى اغتنامها حيث ضربوا الاسكندرية بالمدافع ثم انزلوا عسكرهم الى البر في ١١ تموز من سنة ١٨٨٢ ، وهزموا جيش عرابي في التل الكبير ودخلوا القاهرة .

ولقد كان من الواجب علينا ان نشترك في عملية الاحتلال ، ولكن حكومتنا تمسكت بعهدها باحترام معاهدة باريس وانتظرت توكيل اوروبا لها حتى تتدخل ، ولم

---

(١) هذا خلاف الواقع وهو مفارقات المؤلف واسلوبه الذي علقنا عليه . والوثائق التاريخية المصرية تثبت ان مصر اشترت نصف اسهم الشركة يوم انشائها بثلاثة ملايين ونصف جنيه وان مصر تنازلت عن املاك وقدمت عمالا ودفعت تعويضات بلغت قيمتها ١٣٫٥ مليون جنيه علاوة على ثمن الاسهم وان اسماعيل باعها باربعة ملايين ونصف جنيه .

المعرب نقلا عن مجلة مسامرات الجيب المصرية العدد الثاني تاريخ ٢٢ يوليو ١٩٦٥

(٢) هذه نكتة ثبت زيف كبير فيها بالدراسات والمذكرات التاريخية المصرية . المعرب

يتسن لها هذا فتركت الميدان خالياً للانكليز فسارعوا الى اشغاله ايضاً .

وبدلا من ان يكون استنكافنا عن التدخل عاملا في توطيد السلام فقد سبب بعض الارتباكات ؛ حتى لقد كاد الامر يصل في سنة ١٨٩٨ الى اشتباك انكليزي افرنسي . ولقد قال الموسيو دوفر بيجنت « ان دول اوروبا لو تصرفت في مسألة مصر صرفها الحكيم الموفق في المسألة السورية ، ولو انها انابت عنها فيها انكلترة وفرنسة معاً لما حدث ما حدث من هذه الارتباكات ؛ ولكن الدول لم تستطع ان تتفاهم فيما بينها وتقوم بحركة مشتركة ومنسجمة بل لقد وقفت المانيا موقفاً غامضاً يبعث على الشك والحيرة حتى كأنها كانت ترغب في بقاء المسألة المصرية وسيلة تشاد وسوء تفاهم دائمة بين انكلترة وفرنسة .

ومما يجدر ذكره ما تم سنة ١٨٨٨ بين حكومتي باريس ولندن من تفاهم حول مسألة قناة السويس ؛ كان من نتيجته توقيع معاهدة دولية في الاستانة بتاريخ ٢٢ ايلول من هذه السنة تنص على حياد القناة وحرية الانتفاع بها اثناء الحرب ؛ حيث منح المحاربين حق المرور منها ضمن بعض القيود .

على ان الاحتلال الانكليزي لمصر ابقى هذه المعاهدة في حكم النظريات فقط ؛ ولا سيما قد تقدمت انكلترة عند توقيع المعاهدة بقيد تحفظي حول تطبيق موادها وهو وجوب رعاية الحالة الاستثنائية الناتجة عن الاحتلال الانكليزى الموقت ؟ وعدم اخلال المعاهدة بحرية حركة الانكليز اثناء احتلال عسكرها مصر . ولقد كانت المعاهدة ضرورية جداً لا لأن القناة هى قناة بحرية فقط بل لأن هذا الحياد الذي نصت عليه كان مما لا بد منه ليس بالنسبة لمصر وقناتها بل وللبحر الاحمر وباب المندب اذا ما اريد الانتفاع به وجعله حقيقة راهنة (١) .

ولقد غدت سياستنا بعد هذه الاحداث قاصرة على طلب تعيين أجل لأنهاء الاحتلال الانكليزى من آن لآخر . على اننا حاولنا في اواخر القرن التاسع عشر فتح

---

(١) ان دى ليسبس كان اقترح في سنة ١٨٥٦ اضافة شرط الى معاهدة باريس ينص على حياد قناة السويس المؤلف

المسألة المصرية بما كان من دخول بعض فصائلنا اراضي مصر من جهة النيل الاعلى . غير ان الاتفاقية الافرنسية الانكليزية التي وقعت بتاريخ ٢٦ مايس سنة ١٨٩٩ بعد حادثة فاشوده (١) اعترفت بسيطرة انكلترة على السودان المصري . اننا لم نحاول استرداد الالزاس واللورين باعلان حرب خاصة فمن الطبيعي ان لا نحارب من أجل مصر !

— ٧ —

وكان مما لا مندوحة عنه ان يبدو أثر التشاد والمزاحمة على برزخ السويس بين انكلترا وفرنسه في البحر الاحمر وباب المندب . فلما استقر الانكليز في عدن سنة ١٨٣٩ اراد المسيو تيير مقابلة هذه الحركة فأمر بانزال عساكر افرنسية الى رأس الشيخ سعيد الواقع امام بريم ، وقد استند في عمله هذا الى معاهدة عقدت في القرن الثامن عشر بين دولا بوروبنيه وزعماء قبائل الخميس ودربن حيث تخلى هؤلاء عن هذا الموقع لفرنسة ، وكان ذلك نتيجة لما قام بين فرنسة وانكلترة من تزاحم على المواقع العسكرية الجغرافية في مدخل البحر الاحمر ورغبة كل منها في الاستيلاء عليها . على انه لما يكن لما كان من جهد افرنسي اذ ذاك نتيجة عملية ما . وقد كان والحالة هذه من الطبيعي ان يكون فتح قناة السويس عاملا في اشتداد تلك المزاحمة في تلك المناطق .

ولقد خطت انكلترة الخطوة الاولى سنة ١٨٥٤ بأخذها جزائر قرية ومرية من سلطان مسقط ؟ فارسل نابليون الثالث في سنة ١٨٥٧ اسطول الاميرال ماركيت ليتجول في تلك الانحاء واجاب الانكليز على هذه المظاهرة باحتلالهم بريم في السنة التاليه بصورة نهائية .

---

(١) فاشوده موقع على النيل على بعد ٥٠ كيلومتر من جنوب الخرطوم ، جاء اليها من داخل افريقية ضابط افرنسي اسمه مارشان على رأس فصيلة افرنسية زنجية ، ورفع عليها العلم الافرنسي . وكان كتشنر يقود الحملة الانكليزية المصرية لاخماد ثورة الدراويش في السودان ، فذهب على رأس قوة الى فاشوده وطلب انزال العلم فأبى الضابط الافرنسي ذلك على الرغم من ضعف قوته ازاء قوة كتشنر واستعد للدفاع عن العلم المرفوع . ثم جرت اتصالات بين العاصمتين صدر الامر بنتيجتها الى مارشان بالانسحاب . المعرب

وفي سنة ١٨٦٠ تخلى الرأس تفري لنا عن جزيرتي زوللا ودمسية في خليج اودوليس ، ولكننا لم نقم بأي حركة لاحتلالها والتصرف فيهما . ولما سير الانكليز حملتهم عام ١٨٦٤ الى ماغدالا ضد النجاشي تئودوروس لم يترددوا في انزال عساكرهم الى زوللا استفادة من ذلك التقصير . على انهم تركوا خليج اودوليس بعد انتصار حملتهم ، واعترفوا بحقنا في تلك المنطقة .

وفي عام ١٨٦٢ اهتم الموسيو توفيل بصورة خاصة لتنفيذ خطة احتلال الشيخ سعيد والاستقرار فيها ، وحاول كذلك الاستيلاء على اوبوق فقام بمفاوضات في سبيل ذلك مع زعماء ونقله انتهت الى نتيجة ايجابية نظريا بتاريخ ٢٠ مايس ١٨٦٢ حيث لم نخط خطوة عملية حينئذ الى الاحتلال وتثبيت التصرف الافرنسي ، وظل الامر كذلك الى عام ١٨٨٣ اي الى ان اغلق الانكليز في وجهنا عدنا بحجة الحياد حينما نشب الخلاف بيننا وبين الصين .

وكذلك حدا فتح قناة السويس بريطانية الى تزيد اهتمامها للتبسط في انحاء جزيرة العرب الجنوبية وخاصة حضرموت ، ولقد اعترفت تركيا رسمياً بالسيطرة الانكليزية على هذا القسم عام ١٨٧٣ ثم عام ١٩٠٣ ، ونتيجه لذلك ادخلت بريطانية شيوخ وامراء هذه المنطقة في حمايتها واحدا بعد آخر . ونذكر خاصة ان سلطان قشين وسلطان ماكالا قد قبلا بهذه الحماية في عامي ١٨٧٥ و ١٨٨٨ .

وفي سنة ١٨٦٨ باع علي ثاباط احد زعماء قبيلة درين جميع حقوقه في الشيخ سعيد لبازين رابود احد كبار تجار مارسيليا ، وعلى الرغم من احتجاج الباب العالى وضع مواطننا يده على المكان الذي اشتراه ، وصار في سنة ١٨٧٠ مستودع فحم للسفن الافرنسية . وقد اغتنمت بريطانية الفرصة فحملت سلطان لحج على التخلي عن اراض له ، ثم وسعت سيطرتها في منطقة عدن وبسطت يدها اخيرا على زيلع وبربره وسوقوطرا .

ولقد انصرفت نفس بازين رابود بعد حين عن الشيخ سعيد فعرض على الحكومة الافرنسية شراء حقوقه فيها ، فرفضت الحكومة هذا العرض . وقد اغتنمت تركية فرصة ترددنا فحلت محلنا مطمئنة القلب بان لندن ترتاح الى هذه الحركة وتراها

في مصلحتها ، لأن الاتراك يعرفون ان الانكليز متحسبون من وجودنا في الشيخ سعيد ، حيث تكون قيمة بريم العسكرية صفرا اذا ما حصن ذلك الموقع تحصيناً قويا .

وقد بذلنا جهدنا في التبسط في منطقة اوبوق لتعويض ما اضعناه ، فاستولى الموسيو لاغارد في سنتي ١٨٨٤ و ١٨٨٥ على بعض المواقع من سلطاني غوبا وتاجورا ، واستولى سنة ١٨٨٥ على جيبوتي ، وكانت هذه ذات خطورة خاصة لانها مخرج تجاري لاقليم هرر الحبشي الغني . وقد استطاع لاغارد ان يعقد اتفاقا مع منليك نجاشي الحبشة سنة ١٨٩٧ وافق هذا فيها على ان تكون جيبوتي ثغر الحبشة الرسمي . وقد ساعد هذا الاتفاق على تأسيس الشركة الحبشية الافرنسية في عام ١٩٠٨ لخط حديد جيبوتي — اديس ابابا ، وبوشر في الحال في انشاء هذا الخط ، وكانت الانشاءات قد تقدمت تقدما كبيراً عندما نشبت الحرب العالمية .

ولقد كان استقرارنا في جيبوتي داعياً لاحتجاج انكلترة ، ثم عقدت معاهدة بين حكومتي باريس ولندن في ٨ شباط من سنة ١٨٨٨ نصت من جهة على ضمانة ملك ولاية هرر ، وثبتت من جهة اخرى الحدود بين الاراضي الافرنسية ومنطقتي زيلع وبربره اللتين احتلها الانكليز عندئذ عام ١٨٦٨ .

ولقد اخذت ايطاليا تقوم في هذه الاثناء بدور ناجح في سبيل الحلول في بلاد الحبشة وكان للتشجيع الانكليزي اثر في حركة ايطاليا ونجاحها ، فقد رأى الانكليز ان الحلول الطلياني يمكن ان يكون من جهة وسيلة من وسائل الضغط على انصار المهدي السوداني ، ومن جهة وسيلة لمزاحمة نفوذنا في سواحل البحر الاحمر . وقد ثبتت الاتفاقات الثلاثة التي عقدت بين ايطالية وانكلترة في عامي ١٨٩١ و١٨٩٤ الشروط التي تتخلى في نطاقها انكلترة عن حقوقها ومطاليبتها في بلاد الحبشة . وقد انطوى الاتفاق الثالث منها على نقض صريح بعهد ضمان ملك ولاية هرر الذي نص عليه الاتفاق الافرنسي الانكليزي عام ١٨٨٨ ، مما حمل فرنسة على الاحتجاج والاعتراض على ان ما نزل في الطليان من النكبة في عدوه جعل احكام هذه الاتفاقات بعد قليل في حكم العدم .

— ٨ —

ولما كنا في حالة تشاد وتزاحم مع الانكليز على سواحل البحر الاحمر ومضيق باب المندب فقد كنا كذلك على عمان والمواقع الاخرى التي تقع على المحيط الهندي في خليج البصره .

ولقد اقامت حكومة الهند معتمدا مقيما لها في مسقط اثناء حملة نابليون على مصر كما ان نفوذ الانكليز اخذ يقوى لدى السلطان السيد سعيد نتيجه لما اسدته البحرية الانكليزية اليه من معونة وتشجيع تجاه الوهابيين ، وفي التنكيل بقراصنة ولصوص الحسا والبحرين وسائر تلك السواحل . على ان حكومتي انكلترة وفرنسة عقدتا اتفاقا فيما بينهما سنة ١٨٦٢ تعهدتا فيه باحترام استقلال كل من سلطان مسقط وسلطان زنجبار(١)

وقد ايد الاتفاق الذي عقدناه عام ١٨٩٠ مع الانكليز والذي تخلينا به عن مطالبنا وحقوقنا في الزنجبار مقابل اعترافهم بحقوقنا في مادا غسقار استقلال سلطنة مسقط وعمان ولكن هذا لم يمنع الانكليز من بذل السعي والحصول بصورة خفية من سلطان مسقط على ارض يقيمون عليها مستودعا للفحم في مدينة عمان . وقد حدا هذا بالافرنسيين الى سلوك نفس الخطة والحصول سنة ١٨٨٨ على اذن باقامة مستودع للفحم في بندر السحت الواقعة على بضعة كيلو مترات من جنوب مسقط ومع ذلك فقد كان هذا مبعث توتر شديد بين الافرنسيين والانكليز ، وارسل والي الهند العالم الجديد اللورد كورزون في شباط سنة ١٨٩٩ المعتمد الانكليزي في بندر بوشير الى سلطان عمان يطلب منه استرداد الاذن الذي منحه لنا . ولقد وقعت هذه الحادثة عقب حادثة فاشودة بقليل فاحدثت دويا وهاما في الاوساط السياسية . على ان الامر انتهى الى اتفاق اعترف فيه الفريقان بحق متساو لكل من امتيها ، واعترف الانكليز بحقنا في انشاء مستودع للفحم مثلهم .

---

(١) ان اهتمام نابليون الثالث لمسقط نشأ ايضاً عن ما كان يربط اهالي الزاب في الجزائر بالاباضية في مسقط من صلات دينية . المؤلف

وتجدد الخلاف عام ١٩٠٢ ، حيث تشجع سلطان مسقط مما رآه من التشاد بين الافرنسيين والانكليز فاقدم على سلب حق القضاء من قنصلنا الذي كان يمارسه في محميانتا ، واحيل الامر الى محكمة لاهاي التي ايدت حقنا سنة ١٩٠٥ مع بعض التحديد .

وقد نجمت مصاعب وخلافات كذلك في صدد تجارة السلاح . حيث اخذ الانكليز يتبرمون من هذه التجارة التي كانت منحصرة في الايدي الافرنسية ، ويشتكون من انها مما يشجع على التمرد والثورة في حدود الهند الغربية ؛ ولم نقبل نحن التخلي عن هذه التجارة الا بالغاء مثيلتها على سواحل فاس بالمقابلة . ومع ذلك فقد انتدب الاميرال سلاد لمكافحة هذه التجارة ووفق على القضاء عليها في عمان سنة ١٩١٢ بعد ثلاث حملات قام بها سني ١٩٠٩ و ١٩١٠ و١٩١١ . على ان لاتفاق الافرنسي الانكليزي عام ١٩٠٤ كان خفف كثيراً من حدة التشاد والتزاحم بين الطرفين في اقليم مسقط .

— ٩ —

ومؤخراً اخذت السياسة الالمانية التي كانت تنذر بخطرها يوما بعد يوم تقلق بال حكومتي لندن وباريس في آن واحد ؛ وساقتهما الى ادراك وجوب حل كل خلاف بين الانكليز والافرنسيين في اي مكان .

لم تكن فرنسة التي كشفت جهودها في شمال افريقيا تضمر نية فتح في الامبراطورية العثمانية ، ومع عزمها على الدفاع عن حقوقها في حالة تقسيم هذه الامبراطورية فانها لم تكن ترغب في تمزيقها . وكانت تقدر انها لا تستفيد شيئاً من انحلالها ما دام في امكانها ادامة نفوذها فيها بحرية بواسطة بعثاتها التبشيرية والثقافية ، ولم تكن تريد شيئاً غير الاحتفاظ بما لها من حق الحماية الدينية ، وما خولتها اياه الامتيازات ، كما انها لم يكن لها من مطمع الا في حرية تجارية معقولة في الاقاليم الاسيوية التي تضمها هذه الامبراطورية . ثم انها من جهة اخرى ليس لها ان تستمر الى ما شاء الله في الاعتراض على ما لانكلترة في مصر من مصالح خاصة ، ولا سيما قد كان

اشتراكها في الاحتلال العسكري سنه ١٨٨٢ ميسوراً لها ومنوطاً برغبتها فلم يكن لها والحالة هذه الا قبول الامر الواقع والاعتراف به والرضاء عنه . غير انها كان لها الحق في الحصول على تعويض عادل عن ذلك بالتسليم بحريتها التامة في فاس وهذا ما تضمنه الاتفاق االافرنسي — الانكليزي في ٨ نيسان سنة ١٩٠٤ ، فكان خاتمة لذلك الدور الطويل الذي قضته فرنسة وانكلترة في حالة تشاد وخلاف وحالاً للمسألة المصرية بينهما . ولقد تعهدت بريطانيا فيه ان لا تغير في مصر شيئاً من الحالة الراهنة (الستاتيكو) ، وتخلت فرنسة من جانبها عن طلب تعيين اجل لانتهاء الاحتلال الانكليزي فيها .



الفصل الخامس

تبسط روسيا

●

ان بلاد الهند قارة احيط طرفان من اطرافهـا بالمحيط وطرف ثالث بالجبال . ووراء هذا السور بلاد مترامية الاطراف وليس لنا مطمح في احتلالها . ولكننـا لا نطيق ان ينفذ اليها عدو . ونظل قريري العـين اذا كانت في ايدي اصدقاء وحلفاء . اما اذا حاول محاول ان يقـترب من اسوارنا بنية عدائيـة فانا نضطر الى النضال والدفاع وهذا هو مفتاح سياستنا في بلاد العرب وايران وافغان .

من خطاب للورد كوزون في ٣٠ مارس ٩٠٤

●

الأسس الرئيسية للسياسة الروسية - مسألة المضائق - ارمينية - ايران - خليج البصرة - تركستان وافغانستان - الاتفاق الروسي الانكليزي سنة ١٩٠٧ - مسألة الخط الحديدي الايراني - المفاوضات الانكليزية الروسية في سنتي ١٩١٢ و ١٩١٤

— ١ —

لم تستطع روسيـا بسبب الوضع الجغرافي ان تساير الدول الغربية في حركات الحلول في آسيا عن طرق الشرق الادنى القديمة ورأس الرجاء ، ولكن هذا لا يعني انهـا لم يكن لها مطمع ورغبة في الحلول والتبسط نحو البحر الابيض المتوسط وقلب القارة الاسيوية وشواطىء المحيط الهندي ، او انهـا لم تسر وراء تحقيق هذا المطمع والرغبة سيراً عملياً . فلقد بذل بطرس الاكبر جهوده خلال اربعين سنة (١٦٨٢ — ١٧٢٥) في سبيل طرد تركيـة من سواحل البحر الاسود الشمالية بسـائق ذلك المطمع ولو لم يحصل على نتيجة ، ولقد اهتم كذلك للانتفاع من طرق بحر الخزر في تحويل تجارة آسيا التي كان يتنازعها دول الغرب وتتزاحم عليها في البحر الاحمر والمحيط

الهندي الى بلاده . ولقد اشار مرة الى سلسلة من المعابر والطرق المؤدية الى جنوب بحر الخزر وقال لبعض ضباطه « هذه هي طرقنا الى الهند ، ولن يستطيع احد في الدنيا ان يأخذها منا » . ولقد دس يده في النزاع الذى قام في ايران عام ١٧٢٣ وانزل جنوده الى استراخان وسيرهم منها الى طاغستان . ولم يمض وقت طويل حتى صار سيد الدربند وباكو وجيلان ومازندران واستر آباد .

ومع ان هذه المناطق قد عادت الى ايران في سنتي ١٧٣٠ — ١٧٤٠ في عهد آنا ايوانانونا الا ان فتحها يمكن ان يعد خطوة عملية في سبيل التبسط الروسي نحو خليج البصرة والمحيط الهندي كما هو واضح .

ومنذ هذا العهد اخذت سياسة القياصرة الشرقية تستهدف ثلاثة اهداف رئيسية .

اولا — تمزيق الامبراطورية العثمانية للاستيلاء على ارث الباليولوغيين البيزانطيين الذي اعتبروا انفسهم إصحاب الحق فيه .

ثانياً — النزول الى خليج البصرة وشواطىء المحيط الهندي .

ثالثاً — تحويل تجارة ايران وهندستان وآسيا الوسطى الى روسيا .

وقد صارت هذه الاهداف الواسعة مبعث خلاف وتشاد مستمرين بين روسية وانكلترة في القرن التاسع عشر لتعارضها مع المصالح البريطانية .

— ٢ —

ان الانكليز لم يدركوا لاول وهلة مدى خطورة ما كان في سنة ١٧٧١ من قدوم السفن الروسية من بحر البلطيق ودخولها الى البحر المتوسط . كما انهم لم يستشعروا بخطر كبير يحفزهم الى الاهتمام حينما مكنت معاهدات قينارجة عام ١٧٧١ واستانبول عام ١٧٨٤ وباريس عام ١٧٩٢ (١) الروس من توطيد اقدامهم في

(١) معاهدة قنارجة عقدت نتيجة للحرب الروسية العثمانية التي نشبت سنة ١٧٦٨ ودامت ست سنين وانتصر فيها الروس ودمر الاسطول العثماني . وفي اثناء هذه الحرب اندلعت نار ثورة شيخ البلد وابي الذهب في مصر والشيخ ضاهر في فلسطين فساعدهم الاسطول الروسي وانزل بعض الفصائل الى صيدا وبيروت وقد نال الروس بموجب المعاهدة حقوقاً كثيرة من جملتها حق حماية الارثوذكس . وقد انسلخت القرم جا عن الدولة العثمانية في ما انسلخ . اما المعاهدتان الاخريان فهما دوليتان . نالت روسيا بهما اعترافات دولية ببعض الحقوق والمراكز على شواطيء البحر الاسود .

سواحل البحر الاسود الشمالية في عهد كاترين الثانية . غير انهم لم يلبثوا ان قلقوا واضطربوا وادركوا الخطر حينما رأوا ملاحي السيس اولوف يحتلون بيروت عام ١٧٧٣ وحينما لمسوا اليد الروسية تندس لتدبير بعض المكائد في مصر . كذلك فقد انزعجوا من وضع جزر ايونيين (١) تحت حماية القيصر نتيجة لمعاهدة اميان ولم تقبل حكومة لندن في أي وقت اشتراك الاساطيل الانكليزية الروسية في حركة ما ضد الاستانة لانها كانت تخشى ان يجر مثل ذلك الى توطيد قدم الروس في المجال البحري او بروزهم في الميدان الدولي بصورة قوية تجر لها اشكالات وتنافسات جديدة . ولما مكنتها الظروف عام ١٨١٤ من الحلول محل الروس في جزر ايونيين لم تضيع الفرصة لحظة ما ، لان موقع هذه الجزر يساعد سفنها على ترصد مكائد الروس والوصول بكل سرعة حين الاقتضاء الى مضيقي الدردنيل والبوسفور .

وبعد سنة ١٨١٥ اشتد قلق الانكليز ، لان الروس انشأوا اسطولا في البحر الاسود بعد ان وطدوا اقدامهم في سواحله . ولم يكونوا يكتمون حرصهم على عبور اسطولهم المضايق وايجاد مخارج لغلات ولاياتهم الجنوبية في البحر الابيض ، ولاسيما بعد أن خولتهم معاهدة ادرنة (٢) عام ١٨٢٩ حق عبور المضايق ، وحينئذ اتخذت انكلترة لنفسها صفة الحامي الرسمي لتركية ، واخذت تقف في وجه مطامع القياصرة دون تستر . وقد اغتنمت فرصة مفاوضات اتفاقية المضايق عام ١٨٤١ (٣) ومعاهدة باريس عام ١٨٥٦ وعهد لندن عام ١٨٧١ (٤) فحملت الدول الاوربية على ابعاد روسية عن البحر المتوسط .

---

(١) مجموعة من جزر بحر ايجه .

(٢) هذه معاهدة اتفاق دفاعي عقدت بين الدولة العثمانية وروسية سمح فيها لروسية بعبور المضايق .

(٣) هذا الاتفاق عقد بين الدول الاوربية بما فيهم الدولة العثمانية وايد بقاء المضايق مسدودة في وجه الاساطيل الحربية باستثناء سفينة حربية صغيرة تتبع سفارة الدولة التابعة لها وترفع علمها وترسو في مياه الاستانة بمرسوم سلطاني خاص .

(٤) عدل هذا العهد بعض احكام اتفاقية عام ١٨٤١ حيث اعطى للدولة العثمانية حق السماح بمرور الاساطيل للدول المتحالفة معها من المضايق ايام السلم .

على ان معاهدة برلين (١) بخلقها دولتي بلغاريا ورومانيا قد ادخلت تعديلا جوهريا على مسألة المضايق ، حيث لم تبق تركية وروسية وحدهما دولتي البحر الاسود ، وصار لرومانيا وبلغاريا مصالح فيه ايضاً قد تكون مضادة لمصالح روسيا . ولم يمض طويل وقت حتى صارت هذه المسألة مسألة دولية ولا تحل الا دوليا .

وبعد هذا لم تحاول روسية ادعاء اي حق رسمي على الاستانة ، وصارت تكتفي بطلب استمرار الحالة الراهنة في الاراضي العثمانية . وركزت رغبتها في حق مرور اسطولها الحربي وسفنها التجارية من المضايق في كل وقت . ولقد جعلت روسية هذه الرغبة موضوع بحث في سنتي ١٩٠٨ و ١٩١٢ ، وقوبل عرضها بالاجمال مقابلة ملائمة من كل جانب ؛ غير انه لم يقع تغيير ما في الموقف الى ان انفجرت الحرب العالمية . وحينئذ صدقت انكلترة — وكان ذلك في تشرين الثاني سنة ١٨١٤ وبدون مشاورتنا وموافقتنا — حق روسية في التصرف في الاستانة والمضايق واذاعت ذلك متراجعة في هذا تراجعاً عجيباً عن سياستها التقليدية .

على ان الروس لم يكونوا يرغبون في الوصول الى البحر الابيض عن طريق الاستانة فحسب بل وعن طريق الاناضول ايضاً . ولقد منحتهم معاهدة ادرنة القسم الممتد من انابا الى بوطي من سواحل البحر الاسود . ومنحتهم معاهدة اياستفانوس (٢)

---

(١) عقدت هذه المعاهدة سنة ١٨٧٨ للنظر في معاهدة اياستفانوس وقد ادخلت اليها بعض التعديلات .

(٢) عقدت هذه المعاهدة نتيجة للحرب الروسية العثمانية التي نشبت سنة ١٨٧٧ – ١٨٩٣ والتي انتصرت فيها روسية . والموقع في ضواحي الاستانة وقد اعترفت الدولة العثمانية فيها باستقلال القرم ورومانيا والجبل الاسود نهائياً وبنشوء امارة بلغارية واسعة تابعة بالاسم لها كما تنازلت بموجبها عن القارص واردهان والباطوم وبايزيد في ارضروم وتعهدت باجراء اصلاحات في ولايات الارمن تحت اشراف روسية . وقد قلقت بريطانية من العواقب وسعت لدى الدول الموقعة على معاهدة باريس بحجة ان معاهدة اياستفانوس قد اخلت بتلك المعاهدة فاجتمع ممثلو الدول في برلين سنة ١٨٧٨ واعادوا النظر فيها ووضعوا معاهدة جديدة بدلها عدلت كثيرا من احكامها . ومن جملة ذلك تضييق حدود بلغاريا وابقاء بايزيد في ملك الدولة العثمانية وسلخ اختصاص روسية بالاشراف على اصلاحات الولايات الارمنية وجعل ذلك لدول معاهدة باريس جميعها .

اردهان وقارس وبايزيد من ولاية ارضروم لولا مؤتمر برلين ، ولو تم هذا لسيطروا على جميع ارمينية . ولاصبح في امكانهم التقدم من طريق ملاطية اوديار بكر حتى يصلوا الى اسكندرونة .

غير ان انكلترة كانت يقظة فاثارت قلق اوروبا من عواقب معاهدة ايا ستفانوس ، وتمكنت من الغائها تقريبا في مؤتمر برلين واقامة معاهدة برلين مقامها . بل لقد تمكنت من عقد معاهدة سرية مع الباب العالي بتاريخ ٤ حزيران ١٨٧٨ بين فترتي المعاهدتين تعهدت فيها بالدفاع عن اراضي الامبراطورية العثمانية في آسيا الصغرى ، وحصلت مقابل ذلك على جزيرة قبرص وهي جزيرة عظيمة الخطورة من الوجهة العسكرية الجغرافية ، وصار في امكان انكلترة بها جعل طريق الفرات تحت ترصدها والتحكم في خليج اسكندرونة وقفل طريق فلسطين في وجه روسية ، حيث ظل ممثلو القيصر بالرغم عن احكام معاهدة باريس يدعون حماية الارثوذكس فيها . ولقد استخلصت انكلترة ايضاً وعداً من الدولة العثمانية بجعل اصلاحات الولايات الارمنية تحت اشرافها ، على انها رضيت باشتراك الدول الاوروبية في هذا ، لان المهم لديها ان لا تدع الميدان لروسية وحدها في ارمينية .

وقد قرر مؤتمر برلين بناء على اقتراح انكلترة ان تكون باكو ثغراً حراً ، وان لا يقيم الروس فيه اي تحصينات . ونفيد ان هذا الشرط لم يمنع القيصر اسكندر الثالث من اقامة منشئات عسكرية عديدة في اطراف هذه المدينة .

— ٣ —

ولقد انتهى النزاع الروسي الايراني الذى اشرنا اليه في سياق الكلام عن بعثة غاردان بمعاهدة كلستان عام ١٨١٣ التي سلم الشاه فيها بحق الروس في التصرف في كرجستان وطاغستان وشيروان ومنغريلية وايمرينية وايتاسية وغورية ، كما اعترف بحقهم في الملاحة في بحر الخزر ، بل وقد وقع عهد بين الطرفين بتحالف دفاعي وهجومي ايضاً . غير ان قيمة هذا الاتفاق قد نقصت كثيراً بعد تصديق المعاهدة المعقودة بين ايران وانكلترة سنة ١٨١٤ على اثر انسحاب غاردان . ولقد نصت هذه

المعاهدة على توسيط انكلترة في كل نزاع تكون ايران فيه طرفا . وهكذا غدت ايران محصورة بين روسية وانكلترة ، وصار لكل منها مجال لتهديدها وجذبها وخدعها ونهبها وسلبها .

وفي سنة ١٨٢٨ نشبت حرب بين روسية وايران انتهت بمعاهدة «تركمان شاي» ؛ وقد نالت روسية بها اريفان وناهشيوان وجبل اراراط وبلاد الارمن الممتدة الى ساحل اراس ؛ ومنذئذ اقامت كل من انكلترة وروسيا ممثلا في طهران ثم وقعتا فيما بينهما سنة ١٨٣٤ اتفاقا ضمنتا فيه استقلال ايران ليخف بينهما التزاحم والتصادم .

على ان هذا ايضا لم يمنع روسية من بث الدسائس والتحريك في جميع الاراضي الايرانية وتحريض الايرانيين احيانا على العدوان على بلاد الافغان . ولقد حال الانكليز مرتين دون استيلاء الايرانيين على هرات ، وكانت الاولى باحتلالهم بندربوشير وجزيرة قارغ سنة ١٨٣٣ ، والثانية بقصفهم بندر بوشير وبندر عباس من البحر سنة ١٨٥٥ . وقد تمكنت روسية بعد سنة ١٨٧٨ من تأليف قوة من (٥٠٠٠) قازاقي ايراني وتدريبها وجعلها تحت اشرافها ، ووطدت بذلك نفوذها في طهران على اساس مكين .

— ٤ —

وبينما كانت روسية تسير قدما في سياسة السيطرة والتحكم في ايران كانت بريطانية تسرع الخطى في سبيل جعل خليج البصرة بحيرة انكليزية ؛ حيث سيرت في سنتي ١٨١٩ و ١٨٢١ حملات تنكيلية ضد لصوص رأس الخيمة ، وقام الملازم ماك كلور في هذه الاثناء برحلات فنية عديدة في انحاء الخليج ، وساعد البحارة الانكليز سلطان عمان في غزو بعض سواحل ايران والاستيلاء عليها ، واجريت خلال سنتي ١٨٣٦ — ١٨٣٨ استكشافات على طول خط القرن . وفي سنة ١٨٤٠ وطد الانكليز اقدامهم في جزيرة قارغ وخليج هرمز والبصرة . ونقيد هنا ان هذه الاحتلالات كانت عابرة وموقتة ؛ لان الاقليم لم يكن مساعداً على دوامها . على ان المعاهدات التي كانت تتجدد وتتوثق آنا بعد آخر من جهة اخرى قد ضمنت استتباب النفوذ الانكليزي على السواحل التي كان يعبث فيها اللصوص ،

وخضوعها لحماية بريطانية . وقد اخضع الانكليز البحرين لسلطانهم سنة ١٨٧٠ كما تعاقدوا سراً سنة ١٨٩٩ مع كل من شيخي الكويت والمحمرة اتماما لسلسلة هذه الحلقات .

وهكذا استطاعت بريطانية في اواخر القرن التاسع ان تبسط النفوذ والسيطرة على خليج البصرة من الوجهة العسكرية ومن الوجهة السياسية . وان يكون لها في كل من مسقط والكويت والبحرين وبندر عباس وبندر بوشير معتمد انكليزي هندي يرعى المصالح الانكليزية في هذه الارجاء . وقد كان نفوذ هؤلاء يستند الى اسطول قوي بالاضافة الى حامية انكليزية قوية مستقرة في القاسط الواقعة في مدخل الخليج . وكان يبدو من خلال الموقف ان طريق الهند قد سد نهائياً في وجه الروس .

غير ان المانية في هذه الآونة اخذت تندس بين روسية وانكلترة في الشرق الادنى وكان من المقدر ان لا يمضي وقت طويل حتى تثير ضجة ، وتتقدم بمطالب ودعاو هي الاخرى في خليج البصرة وايران .

— ٥ —

وقد كان مما فكر فيه بطرس الاكبر تحويل تجارة الهند الى روسية عن طريق تركستان . وقد سيرت روسية حملتين على خيوه واحدة بعد اخرى فمنيتا بالهزيمة . ولم تتمكن بعثات الروس التبشيرية والسياسية من الوصول الى خيوه وبخارى الا بعد عام ١٨١٩ على ان روسية هنا عام ١٨٣٩ منيت بهزيمة ثالثة فانشأت بعدها خط خفارة من القازاق بين نوا والكساندرويك وبحر آرال ضمن لها بعض الاستقرار حيناً من الدهر .

وقد اقلقت حركات الروس ومساعيهم بال الانكليز منذ البدء ففكروا هم ايضاً في توسيع نفوذهم حتى يشمل تركستان . واخذ بعض ضباطهم في جيش الهند يجوسون خلال بخارى وخيوه منذ سنة ١٨٢٤ ؛ غير ان فاجعة قتل الكولونيل ستوددارت اولا عام ١٨٣٨ ثم قتل الكابتن قوللين عام ١٨٤٢ ثانياً ، — وقد قتلا بامر امير بخارى — جعلتهم يكفون عن محاولاتهم ، وحفزتهم الى السعي

في التفاهم مع روسية على حياد امارات تركستان ؛ حيث وقع عهد سري بذلك بين حكومتي لندن وبطرسبرج .

على ان هـذا العهـد لم يعمر الا مـدة قصيرة جـداً ؛ لأن استمرار حركات القيرغيز وزحوفهم وغزواتهم كان يعطل الاتصال بين روسية وسيبيرية . فقررت روسية في سنة ١٨٦٥ ان تفتتح تركستان بحملة تدور من الناحية الشرقية من بحر آرال ، واخذت في تطبيق الخطة فوراً . فتم لها في نفس السنة الاستيلاء على طشقند وبعد بضعة اسابيع من سقوط هـذه المدينة سقطت مدينة خوجاند في ايديهم ، وفي سنة ١٨٦٨ دخل الجنرال قوفمان سمرقند ، واصبح امير بخارى والياً تابعا للقيصر ، وفي سنة ١٨٧٣ اتم الروس احتلال اقليم خيوه ، وجاء الدور في سنة ١٨٨٠ الى واحات التركمان فسيطروا عليها واخيراً استولوا عام ١٨٨٤ على مرو الموقع الحربي المتحكم في مدخل بلاد الافغان .

ولقد اقلق ما اصابه الروس من نجاح وتوفيق بال انكلترة اشد القلق ، لأنها ما زالت تحت تأثير خطر خطط نابوليون لغزو الهند بطريق بحر الخزر . وقد كانت اهتمت منذ زمن بعيد لادخال امير الافغان في نطاق سياستها ونفوذها لتوقي ذلك الخطر متظاهرة بتأييده ازاء مطامع ايران وعدوانها . ولكنها لم تنجح في ما ارادت لأن الافغانيين حرصوا على استقلالهم اشد الحرص ، وقاوموا محاولة دمجهم في سياسة ونفوذ حكومة الهند الانكليزية اشد مقاومة ، حتى انهم وقفوا مواقف عنيفة من البعثات الانكليزية في سبيل ذلك وهزموها هزائم منكرة اكثر من مرة .

ومع ان ما قام من حركات في الاقاليم التركية عام ١٨٧٢ قد خفف حدة التشاد الانكليزي الروسي قليلا فأنه لم يلبث ان عاد الى شدته بعد احتلال الروس لمرو ، ثم بلغت الشدة اوجها حينما انشأ الروس عام ١٨٨٨ الخط الحديدي عبر الخزر ، حيث كانت له خطورة عظيمة من الوجهة الحربية . وقد احتل الروس في هـذا الدور من التشاد الحاد شترال ، وحصنوا جميع معابر جبل هندو كوش ، وقووا وسائل الدفاع عن منطقة كيتة (في اقليم بلوجستان) الخطيرة الشأن .

ولقد كان هذا التشاد بين لندن وبطرسبرج في هذه الساحة سببا لتحمل الفريقين

نفقات عظيمة ولتعطيل قسم من جيشها ، في حين كانت روسية التي منيت بالهزيمة في الحرب اليابانية عام ١٩٠٥ وخرجت ضعيفة مهيضة منها في حاجة الى عهد سلم طويل تضمد فيه جراحها ، وكانت تعرف في نفس الوقت ان المعاهدة المعقودة بين اليابان وبريطانية قد ضمنت مساعدة الاولى للثانية في الدفاع عن حدود الهند الشمالية الغربية ، وفي حين كانت انكلترة من جانبها تستشعر القلق من محاولات التقدم الالماني نحو خليج البصرة وتستسيغ بعض التضحيات في سبيل اهون الشرور .

وهكذا بدت الظروف ملائمة لتقارب روسي — انكليزي . وكانت فرنسة من جانبها راغبة كل الرغبة في مصالحة حليفتها روسية مع صديقتها الجديدة انكلترة ، فقامت بدور الوسيط وانتهت هذه الوساطة الى نتيجة سعيدة حيث امكن عقد المعاهدة الروسية — الانكليزية في ٣٠ اغسطس من سنة ١٩٠٧ .

ولقد صرحت انكلترة في هذه المعاهدة بان لا مطمع لها في تركستان ، واكدت روسية بالمقابلة بانها لا تضمر نية فتح ما تجاه الهند . واعترفت الدولتان من جديد باستقلال ايران وتمام ملكها ، ولكنهما اتفقتا على تعيين مناطق نفوذ فيها لكل منهما ، وعين القسم الشمالي منطقة نفوذ لروسية ، والجنوبي بما في ذلك خليج البصرة منطقة نفوذ لانكلترة . واتفق الطرفان على ترك شقة حياد بين منطقتي النفوذ ، وتعهد كل منهما بعدم ممانعة حصول رعايا الاخر على امتيازات في المنطقة الحيادية ، وبحث الحالة اذا ما حدث ما يحمل على الممانعة والاعتراض بنية طيبة . واكد الانكليز احترامهم للحالة الراهنة في الافغان وعدم استخدام نفوذهم في هذه البلاد ضد المصالح الروسية ، وسلم الروس مقابل ذلك بان هذه البلاد داخلة في مجال بريطانية وخارجة عن مجال روسية . وقد صرح في مادة خاصة من المعاهدة بان انكلترة ذات مصالح خاصة في خليج البصرة .

— ٦ —

على ان الاتفاق المذكور رغم شموله لم يحل دون نشوء خلاف روسي — انكليزي فقد ظلت مسألة المضايق معلقة كما ان مسألة الخط الحديدي عبر ايران لم تحل ايضاً . وكان هذا الخط من المسائل التي يصعب حلها حلا وديا ، لما بين وجهتي نظر لندن

وبطرسبرج من تضاد شديد حوله .

في سنة ١٨٥٦ تأسست شركة انكليزية لمد خط حديدي يربط انكلترة بالهند ، وكان من المتصور ان يمر الخط من فينا واستانبول والاناضول ووادي الفرات وسواحل بلاد ايران . ولقد عارض اللورد بالمرستون هذا المشروع معارضة شديدة لان من شأنه ان يهدد سلامة الهند . وحملت هذه المعارضة حكومات لندن على معارضة كل الخطط التي قدمت فيما بعد وكانت تمت الى ذلك المشروع بسبب . وقد وقع عهد بين انكلترة وروسية عام ١٨٨٥ تعهد فيه الطرفان بعدم القيام باي حركة في سبيل انشاء هذا الخط الى سنة ١٩٠٠ ، بل وتعهدتا بمعارضة كل طلب امتياز تمثل هذا الخط يقدمه اشخاص من رعايا دولة اخرى ايضاً . وقد مدد امد هذا العهد عام ١٨٩٩ عشر سنين اخرى .

على انه مما يجب قيده ان خطورة هذا الخط كانت تبدو في هذا الدور ضعيفة جداً ، وكان اللورد كوزون يصرح بانه عملية خاسرة من الوجهة التجارية .

وفي سنة ١٩٠٠ وضع المهندس الروسي بيتيش مشروعاً جذابا يقوم على اساس خط حديدي يربط مدينة الكساندروبول ببندر عباس عن طريق تبريز وطهران واصفهان وشيراز ، ومد فرع له من طهران الى مشهد . غير ان الاتفاق الروسي الانكليزي عام ١٩٠٧ نص على تعليق هذا المشروع ايضاً الى مذاكرات تجري في المستقبل .

ولما انتهى اجل المعاهدتين المعقودتين في سنتي ١٨٨٥ و ١٨٩٩ في سنة ١٩١٠ كانت المسألة واقفة حيث كانت . وحينئذ تأسست شركة غايتها انشاء خط حديدي ذي صبغة دولية بين القفقاس وبلوجستان . وقد قبلت هذه الشركة مشروعاً وضعه الكولونيل يات يبتدىء الخط وفقه من رستاو وباكو ويعقب شواطىء بحر الخزر الى رشت ثم ينتهي الى كرمان بطريق قزوين وطهران ويزد . وكانت نقطة الانتهاء محل تردد بين نوجكي ولاسكانا وكاراشي ؛ وكان مد فرع بين طهران ومشهد مما تضمنه المشروع .

غير ان كلا من حكومتي روسية وانكلترة لم تبديا رغبة قوية في تعضيد وتنفيذ

هذا المشروع . فالروس كانوا يقولون انه لن يكون منه الا اغراق روسية بالسلع الانكليزية في حين كان الانكليز يرون ان لا أمان فيه الا اذا مر بمنطقة نفوذهم ، وكان طريقه بندر عباس وكاسك وجابار وكاراشي وشواطيء خليج البصرة ؛ وان اي طريق اخرى له ستضطرهم الى زيادة قواتهم في الهند . ولهذا وذلك لم تتفق الحكومتان على رأي قاطع في شأن هذا الخط في هذا الدور ايضاً .

وقد كان هذا في الظرف الذي اشتد فيه طلب المانية وسعيها في سبيل الحصول على مركز ونفوذ في الشرق الادنى اسوة بغيرها ، وقد كان ان اجتمع فيه القيصر نيقولا الثاني والامبراطور غليوم الثاني في بوتسدام ، وكان ذلك في ١٩ اغسطس من سنة ١٩١١ وان تم تفاهم بين العاهلين على بعض الامور في هذا الشرق ، حيث اعترف الامبراطور بحرية وتصرف روسية في منطقة النفوذ الايرانية — الروسية ووافق القيصر مقابل ذلك على مد خط حديدي برأس مال الماني روسي يربط كرمنشاه بخانقين ويمر بطهران وهمدان ويرتبط في خانقين بخط بغداد الحديدي الالماني .

وقد حرك هذا التفاهم ما كان ساكناً من التشاد بين روسية وانكلترة حول الخط الحديدي عبر ايران بل واعادته الى شدته الاولى . وحينما حصل الروس عام ١٩١٣ على امتياز خط غولفا — تبريز من حكومة ايران سعى الانكليز وحصلوا بالمقابلة منها على حق الرجحان في انشاء خط المحمرة — اهواز — شوستر — ديزفول — خرم آباد ، وكان امتداد هذا الخط نحو همدان مما ادخل في البحث . وحصلوا كذلك على امتياز فرعين يربطان بندر عباس بشيراز وبكرمان . وقد استهدفوا بهذا الحيلولة دون احتمال تمديد الالمان خطاً الى منطقة الحياد الايرانية في المستقبل .

— ٧٠ —

ان الاتفاق الروسي الانكليزي عام ١٩٠٧ لم يكن في الحقيقة الا مسكناً موقتاً للتشاد بين روسية وانكلترة ، وقد كانت انكلترة تأخذ على روسية احتلالها الفعلي لمنطقة نفوذها الشمالية وتصرفاتها المفرطة فيها ، في حين كانت روسية تشتكي من وضع

انكلترة يدها على ساحة نفط قارون الواقعة في المنطقة الحيادية . وكان الفريقان في نفس الوقت قلقين من جراء بقاء هذه المنطقة هدفاً مكشوفاً لمساعي ومحاولات الالمان في سبيل التبسط . وكانت المانية تذيع وتصرح بانها لا تعترف بالاتفاق الروسي الانكليزي لعام ١٩٠٧ الذي لم تشترك فيه ، ويضاف الى هذا كله مسألة الخط الحديدي عبر ايران الشائكة وسيلة لخلاف مستمر بين لندن وبطرسبرج .

وقد جعلت هذه الظروف اعادة النظر في الاتفاق القائم بين الفريقين لتعديله وتوثيقه ضرورة لا مناص منها . ولقد جرت مفاوضات من اجل ذلك اثناء زيارة سازانوف انكلترة في صيف عام ١٩١٢ بينه وبين ادوارد غراي في بلتيمور ، ولكنها لم تقترن بنتيجة ، وظل الامر واقفاً عند هذا الى صيف سنة ١٩١٤ ، حيث اعلن وزير الخارجية البريطانية في ٢٩ حزيران ١٩١٤ في مجلس العموم ان مفاوضات تجري الان بين روسية وبريطانية . وقد اوقف نشوب الحرب العالمية بعد زمن قصير هذه المفاوضات موقتا ثم وصلت في اثنائها الى نتيجة ايجابية بالاتفاق الذي تم بين روسية وبريطانية وفرنسة على شؤون المضايق والاستانة والاناضول .

ولقد ذكر بوانكاره في مذكراته انه قام بدور الوسيط بين روسية وانكلترة للتوفيق بين وجهتي نظرهما في رحلته الاخيرة الى روسية . ويستفاد من هذه المذكرات انه تحدث يوم الثلاثاء ٢١ تموز سنة ١٩١٤ مع القيصر نيقولا الثاني في شأن الصلات الروسية والانكليزية وشكاوي انكلترة من تصرفات قناصل الروس المناقضة لاتفاق عام ١٩٠٧ ، وان القيصر اعترف بكل اخلاص بصحة هذه الشكاوي ، واكد بانه اتخذ الاجراآت اللازمة لمنع تكرر اسبابها المؤسفة ، ومما جاء في المذكرات انه قد امكن التوفيق بين روسية وانكلترة في ما لم تتفق عليه الدولتان قبلا من نقاط مشروع الخط الحديدي عبر ايران ، ولم يبق الا نقطة الانتهاء في خليج البصرة التي كانت اشد نقاط الخلاف تعقيداً ، وان القيصر قد قال في صدد ذلك ان هذه المسألة يمكن ان تحل في ما بعد ، وان المهم الان ان لا تثار مسألة من شأنها الاخلال بحسن الصلات بين روسية وانكلترة .

الفصل السادس

التبسط الجرماني

•

ان الاناضول هو المكان الوحيد الذي لم تسيطر عليه دولة من الدول الكبرى ، في حين انه بلاد يمكن ان تستعمر وتستثمر . فاذا لم تضع المانية فرصة الاستيلاء عليه قبل ان تمتد اليه ايدي القازاق فانها تكون قد نالت اكبر نصيب في قسمة الدنيا .

الدكتور سبنفر سنة ١٨٨٦

•

مبادىء النفوذ الالماني في الشرق الادنى – السير نحو الشرق – خط حديد بغداد – المصالح الروسية – المصالح الافرنسية – المصالح الانكليزية – حادثة الكويت – خط حديد حيفا – مسألة طابا – دسائس الالمان في خليج البصرة وفي ايران – المانية والاتفاق الثلاثي .

— ١ —

ان مبدأ النفوذ الالماني في الاستانة يرجع الى عهد فردريك الثاني غير ان هذا النفوذ لم يبرز قويا واضحا الا في عام ١٨٣٥ ، وفي ظروف النزاع الذي نشب بين محمد علي والسلطان محمود ، حيث طلب هذا من فردريك غليوم الثالث ملك بروسية ضباطاً لتدريب جيشه وتنظيمه ، وكان الكابتين مولتكه — الذي صار مارشالا — ضمن بعثة الضباط الالمان . ولقد نظم الجيش العثماني واتي بالعجائب ، وقام برحلات استكشافية على ضفاف الفرات ، وشهد حرب نزيب عام ١٨٣٩ التي خسرها الاتراك على الرغم من تدخله ونصائحه لقائد الجيش حافظ باشا وكان ما اقترحه مولتكه على بروسية الاستيلاء على فلسطين .

ولقد ازداد نفوذ الالمان في الشرق الادنى بعد سنة ١٨٧٠ كثيرا وبنتيجة ذلك توطن المستعمرون الزراعيون النازحون من المانيا في يافا وحيفا والقدس .

على ان الذي نفخ في سياسة الالمان الشرقية اقوى الروح واشد النشاط هو مؤتمر برلين ١٨٧٨ ، فقد لاحظت المانية اثناء مذاكرات هذا المؤتمر شدة حرص انكلترة على ابعاد الروس عن الاستانة ، فاستغلت ذلك احسن استغلال ، وكان من نتيجة ان تركت حكومة لندن الميدان لالمانية ، فلم تضع هذه الفرصة ، ولم تلبث تلك ان رأت انه قد فات الوقت الذي تستطيع فيه اغلاق باب آسيا في وجهها .

وقد انتشر النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية بسرعة عظيمة ، وساعد على هذا ما قام في الاذهان من وهم بان حكومة برلين لا تسعى وراء منفعة خاصة . والواقع انّ ما تظاهرت به المانية من ازهد كان مضاداً على طول الخط لما كان يبدو من فرنسة وانكلترة من حرص على الاستيلاء على مصر وتونس . وقد استغل السفيران الالمانيان هاتزفليد وررودتيز هذه المظاهر المتضادة استغلالا ماهراً ، فملأ دوائر الدولة العثمانيه تدريجاً بالموظفين البروسيين ، ونظمت البعثات العسكرية التي كان يرأسها الجنرال فون درغولتز الجيش العثماني ودربته ، كما ان المانية سلحته ببنادق الماوزر ومدافع كروب .

وفي سنة ١٨٨٩ زار غليوم الثاني الاستانة زيارة رسمية ، وكانت هذه الزيارة الظاهرة البارزة للتفاهم التركي — الالماني . وقد زار الامبراطور تركية مرة اخرى وكان ذلك بعد مذبحة الارمن في عام ١٨٩٨ ، وطاف في فلسطين وسورية طوافا طنانا . وكان مما حاوله ان يشمل بحمايته كاثوليك الالمان في الارض المقدسة — مع انهم كانوا تحت حماية فرنسة الدينية — فضلاً عن اعلان حمايته للبروتستانية ، ولم يكتف بهذا ، فقد زار دمشق بعد القدس وسط مظاهر الابهة وهنا وجه خطابا خطيراً للمسلمين قال فيه :

ان صاحب الجلالة السلطان ، والثلاثمائة مليون مسلم الذي يدينون بخلافته يستطيعون ان يتأكدوا من ان امبراطور الالمان صديق مخلص لهم .

— ٢ —

وقد وعد عبد الحميد غليوم الثاني كمقابلة لهذه المظاهرة الودية بامتياز خط حديد بغداد في المستقبل ؛ وهكذا اخذ مبدأ « الى الشرق » الذي تقوم عليه فكرة التبسط الجرماني يجد مجال نشاط فسيح ، وأخذ الالمان يستعدون للجولان فيه بكل ما فيهم من قوة .

وهذا المبدأ يرتكز على نظرية سياسية المانية ملخصها ان المانية بلاد تنجب اطفالا كثيرين وتنتج سلعاً عظيمة ، وهي في حاجة الى مخارج لنفوسها وصناعاتها المتزايدة ، وحاجاتها الى المستعمرات لا تقل عن حاجة غيرها من الدول الاوروبية الكبرى ان لم تزد ، ولقد تأخرت عن شهود تقسيم افريقية واستعمارها ، فعليها ان تتجه نحو آسيا على امل ان تجد فيها اقاليم تجعل منها ما يماثل امبراطورية انكلترة الهندية . ومما يدخل في البرنامج الالماني هذا اراضي كليكية وما بين النهرين ، فهذه الاقاليم يمكن ان تكون من احسن البلاد لسكنى المهاجرين الالمان ، ولانشاء مستعمرات زراعية لهم فيها ، كما يمكن ان تكون مجالا لانتشار الثقافة الالمانية وسوقا او مخرجا للمصنوعات الالمانية ، ومما يدخل فيه ايضاً انشاء شبكة واسعة من الخطوط الحديدية تخترق الاناضول وتنتهي من جهة بشواطىء البحر الابيض ومن جهة بخليج البصرة ؛ فتستهلك مقادير عظيمة من المصنوعات الحديدية الالمانية ، وتوزع مقادير كبيرة من المصنوعات الالمانية الاخرى . ولاخراج هذا البرنامج العظيم الى حيز الفعل يقتضي ان يكون لالمانية نفوذ في اوروبا الوسطى والبلقان ، حيث تقيم عليها معابر تربط امبراطوريتها الشرقية الجديدة بعاصمتها . وقد اشركت المانية من اجل ذلك دولة النمسا والمجر في نشاطها ومساعيها وكان مما تصورته ان تدفع هذه الى سلانيك .

وقد ادركت المانية ان عليها في سبيل تحقيق هذا البرنامج ان تبذل كل جهد في اكتساب محبة الامم البلقانية اولا ، وان تظهر بمظهر الحامي الرسمي للامبراطورية العثمانية ثانيا ، وكان من مدى ذلك ايضاً تشجيع فكرة الجامعة الاسلامية ، وتنظيم الجيش العثماني وتدريبه ، وتلقين الدولة العثمانية بحاجتها الى شبكة حديدية تساعدها

على الحشد العام والنقل العسكري السريع حين الاقتضاء ، ومعاونة السلطان في تحكيم امبراطوريته وتدعيم كيانها .

ونقيد انه لم يكن في برنامج التبسط الجرماني صدم المصالح الافرنسية والانكليزية التي صارت راسخة مع الزمن مواجهة وجهرة ، وانه لم يكن ينطوي على جعل البلاد العثمانية مستعمرة المانية ، وكل ما كان يذكر بصورة رسمية هو قصد تحويل تلك السهول العظيمة التي كانت من اخصب بقاع الارض ثم اهملت وجفت الى منابع ثروة فياضة لينتفع بها الناس جميعاً . ولكن مما لا شك فيه ان الامبراطور حينما يتم المشروع مكبير — اي حينما ينتشر المستعمرون الالمان في فيافي الاناضول والعراق ويتوطنون ويصل الخط الحديدي الى خليج البصرة — سيقف ويدعى انه هو الحاكم الاعلى للامبراطورية العثمانية ، كما انه سيتقدم بمطالب ودعاو في آسية الوسطى ايضاً .

— ٣ —

ولقد خطا برنامج التبسط الجرماني في فجر القرن العشرين خطوات كبيرة في سبيل التنفيذ فانشأ فون بريس مدير بنك دوتش الالماني عام ١٨٨٨ لحساب تركية خط حديد حيدر باشا — ازميت الحديدي (١) ثم حصل على امتياز خط آخر يربط ازميت بانقرة ، وعلى وعد بامتياز خط ثالث يربط هذا الخط ببغداد عن طريق سيواس ودياربكر والموصل . وفي السنة التالية اتحد دوتش بنك مع بنك وورتمبرغيس في ستوتارد واسسا شركة الخطوط الحديدية الاناضولية العثمانية وكان رأس مال الشركة المانياً ، وعهد بانشاء الخطوط الى شركة المانية اخرى تأسست في فرانكفورت اسمها « شركة انشاء خطوط حديد الاناضول » .

ولقد وصل الخط الحديدي عام ١٨٩٣ الى انقرة ، وفي ١٣ شباط من هذه السنة حصلت الشركة على امتياز خطي اسكيشهر — قونية ، وانقرة — قيصري ، وكان امتياز الخط الثاني يتضمن وعدا بامتياز خط يمتد الى سيواس فديار بكر فبغداد ،

---

(١) كان امتياز هذا الخط في عهدة دوتش بنك الالماني ثم بيع لشركة انكليزية ثم اشتراه جماعة من الاتراك خلال سنتي ١٨٧١ - ١٨٧٣

وقد ترك خط قيصري بعد قليل . غير ان الخط الاول قد تم حيث وصل الى قونية في آخر سنة ١٨٩٥ .

وهكذا انشئت شبكة حديد الاناضول باموال وعدد وادارة المانية ، وكان هذا النشاط مصادفا للدور الذي بدأ الامبراطور الالماني يهتم فيه اهتماما خاصا لبرنامج التبسط الجرماني في الشرق الادنى . ولقد كان نتيجة لهذا الاهتمام ان عقد الباب العالي في ٢٧ تشرين الثاني من عام ١٨٩٩ وبعد زيارة الامبراطور الثانية للاستانة مع الدكتور سيمنس مدير شركة خطوط حديد الاناضول ، عقدا تضمن وعدا باعطاء الشركة امتيازا بخط حديدي يمتد من قونية الى خليج البصرة . وكانت الشركة قد نالت قبل هذا التاريخ ببضعة اشهر امتيازا بانشاء مرفأ حيدر باشا ومخازن استيداعها وبادارتها ، وفي سنة ١٩٠٣ انقلب وعد خط بغداد الى امتياز ؛ واتفق على ان يكون في طريقه اركلي واضنه وبغجه وكليس وحران والموصل وبغداد و كربلا ونجف والبصرة ، غير ان البصرة لم تعين بصورة قاطعة كنقطة انتهاء للخط ؛ وانما عينت الزبير التي هي اخر محطة قبل البصرة كنقطة نهائية ، واتفق على ان يعين طريق الفرع الذي يمتد منها الى خليج البصرة ونقطة انتهائية فيما بعد بالاشتراك مع الباب العالي وعلى كل حال كان من المسلم به ان الخط يصل الى خليج البصرة . وقد افتكر فيما افتكر فيه مشاريع خطوط حديدية اخرى تمتد الى مرعش وحلب واورفة وماردين واربيل وخانقين . وكان مما تضمنه امتياز الشركة حق الملاحة النهرية ، وحق التنقيب عن المعادن وتشغيلها وغير ذلك من الفوائد العظيمة ، كما تضمن نصا على حق الرجحان لها في انشاء اى خط حديدي يتصل بخطوطها ، ويمتد الى مرسين وطرابلس الشام او بالاحرى يصل هذه الخطوط بالبحر الابيض في المستقبل ، وعلى حق الشركة في انشاء مرافيء ومستودعات في خليج البصرة وبغداد . وما نص عليه ان يكون للشركة ضمانة كيلومترية سنوية مقدارها (١٥٥٠٠) فرنك ، وان تقوم الشركة بانشاء مائتي كيلومتر بعد مائتي كيلومتر ، وبعد ان تكون الحكومة العثمانية قد سددت الضمانة النقدية للاقسام التي تكون قد انشئت .

ولقد كان هذا الامتياز فوزاً عظيماً لالمانية ، وكان في ذات الوقت مناقضاً لصالح

كل من فرنسة وانكلترة وروسية مناقضة تامة . وهكذا اصبحت مسألة خطوط حديد الاناضول بهذا الامتياز ذيلا اضيف الى المسأله الشرقية ؛ وكان من المقدر له ان يكون وسيلة لمصاعب سياسية دولية ...

— ٤ —

ولقد كان من الطبيعي ان تولد خطط الالمان التوسعية قلقاً عظيماً في روسية من الوجهة التجارية اولا ، لانها من شأنها ان تغرق ارمينية والقفقاس وايران بالمصنوعات الالمانية ، ومن الوجهة السياسية ثانياً ، لانها تجعل انتشار الروس وتوسعهم الحر في ارمينية وكردستان وايران ، وسيرهم في اتجاه اسكندرونة متعذراً ، ومن الوجهة الحربية ثالثاً ، لان من شأن شبكة حديد الاناضول ان تساعد على سرعة حشد الجيوش العثمانية حين الاقتضاء . ولهذا فقد ابدت معارضة شديدة وخاصة في امر تمديد خط حديدي الى ديار بكر وسيواس من طريق انقره وقيصري ، وطلبت من السلطان في كانون الاول من سنة ١٨٩٩ الاعتراف بحق رقابتها على الخطوط الحديدية التي يمكن ان تنشأ في الولايات المجاورة لحدود القفقاس . وقد قبل السلطان طلبها في شباط عام ١٩٠٠ بالنسبة لولايتي ارضروم وطربزون ، كما تعهد بعدم اعطاء امتياز خطوط حديدية في ولاية سيواس الا لرعايا عثمانيين ؛ وبذلك سدت ارمينية الكبرى في وجه التبسط الجرماني .

ولما تقرر بصورة نهائية عام ١٩٠٣ مرور الخط الحديدي باضنه عاود روسية القلق ، لانها كانت ما تزال وراء امل الامتداد الى خليج اسكندرونة عن طريق كليكية ؛ غير ان الحرب الروسية — اليابانية جعلت المانية لا تعبأ كثيراً برضاء روسية وموافقتها . ومع ذلك فان روسية وقفت موقفاً معارضاً كمبدأ ، ورفضت قبول ما عرض عليها من الاشتراك في الشركة بنسبة اربعين في المائة ، وظل الامر عند هذا الى مقابلة بوتسدام عام ١٩١١ حيث عقد اتفاق اعترفت فيه المانية بمنطقة نفوذ روسية الايرانية كما سبقت الاشارة اليه واعترف الروس مقابل ذلك بامتيازات الالمان في الاناضول .

— ٥ —

ولقد اضرت مشاريع الالمان ضرراً بليغاً بخطوط حديد مدانية وازمير ومرسين وحلب المنشأة برؤوس اموال افرنسية ، كما كانت في ذات الوقت خطراً كبيراً يهدد نفوذنا في الشرق الادنى .

واول سهام هذا الخط امتياز خط اسكيشهر — قونية ، حيث لم يعد في الامكان تمديد خط حديد بورسة — مدانية الافرنسي الذي انشيء سنة ١٨٩٣ الى كوتاهيه وقره حصار وقونيه كما كان متصوراً ومأمولا . وقد سعت الحكومة الافرنسية لدى السلطان فنالت وعداً بامتياز خط الشام وحلب كتعويض عن الضرر الذي لحق بالاموال الافرنسية ، وكان الوعد يتضمن مد الخط الى البيره (بيره جك) ماراً بالفرات ، ولما اشترى بعض الماليين الافرنسيين بعد قليل خط ازمير — قصبة الانكليزي حصلوا على امتياز بمده الى قره حصار ، غير انهم لم يروا بداً من التوفيق بين مصالحهم ومصالح شركة خطوط الاناضول الالمانية ، وكان هذا في عهد وزارة هانوتو الذي كان يترسم التقارب بين فرنسة والمانية ضد انكلترة وخاصة بسبب المسألة المصرية . وقد حاول بعض الماليين الافرنسيين عام ١٨٩٦ ان يغتنموا فرصة وجود قونستان في الاستانة فيدخلوا في مشروع خط قونيه — بغداد الالماني ؛ غير ان هانوتو كان قد سقط وحل محله دلكاسه ، فوقف هذا موقفاً معارضاً . ولقد تم التفاهم بعد قليل بيننا وبين انكلترة فقضى على مثل هذه المحاولات نهائياً .

وكان امتياز خط بغداد وما تضمنه من حقوق الاستغلال على حفافي طريقه ضربة شديدة اخرى على المصالح الافرنسية في كليكية والاقسام الشمالية السورية ، وفي حوض الفرات ايضاً . وقد انقطع به امل ارتباط خط مرسين واضنه الذي كانت تملكه شركة افرنسية انكليزية بولايتي قونيه وحلب ، فلم تر الشركة مناصاً من التخلي عنه للشركة الالمانية . وقد ظننا في بادىء الامر ، وحينما منح وعد امتياز خط بغداد عام ١٨٩٩ ان الخط يسير في طريق القوافل الاولى ماراً باضنه وعنتاب

والبيره ، وكان هذا الظن مما جعلنا نأمل بفوائد مهمة من تحقيق وعد الامتداد الى حلب والبيرة الذي وعدت به شركة خط الشام وحماه وتمديداته الافرنسية ، حيث يلتقي خطنا بالخط الالماني في البيره غير ان هذا الامل لم يدم طويلا ، لان مرسوم الامتياز الصادر عام ١٩٠٣ عين نقطة الالتصاق في تل الجيش التي تقع على نحو خمسين كيلو مترا فقط من شمال حلب ، وبالاضافة الى هذا فقد نال الالمان وعداً بمد فرع الى حلب نفسها ، وهكذا قطعت الطريق علينا . بل ان الامر لم يقف عند هذا الحد ، فقد منح الالمان كذلك حق الرجحان في انشاء اي خط يتفرع من اي فرع من فروع الخطوط الالمانية وينتهي باي نقطة على ساحل البحر الابيض بين مرسين وطرابلس الشام ؛ فحيل بذلك دون ارتباط خط حلب الافرنسي باي ساحل من سواحل سورية الشمالية ، وصار الطريق الى اسكندرونة واللاذقية مفتوحة امام التبسط الالماني .

على ان الخطر الجرماني من الوجهتين الاقتصادية والسياسية كان أعم شمولا من حلب ومنطقتها ، حيث لم تلبث المانية ان اخذت تبذل كل جهد ، وتتوسل بكل وسيلة الى هدم اساس حمايتنا الدينية في فلسطين وسورية ايضاً .

ولهذا كله املنا في ان يكون الاتفاق الافرنسي الانكليزي الذي تم عام ١٩٠٤ عونا قويا وفعالا على ايقاف الخطر الالماني الذي بدا كالح الوجه في الشرق العربي ، ومهددا لمصالحنا ونفوذنا فيه .

— ٦ —

ولقد كان مما تصوره الانكليز حينما استقروا في قبرص عام ١٨٧٨ مد خط حديدي يربط خليج اسكندرونة بخليج البصرة ، وكانت خطة شيسي واندرو القديمة بتمديد هذا الخط في محاذاة الفرات قد ابعدت عن البحث ، فحلت محلها الخطة المقترحة من قبل لوفوت كامرون والقائمة على اساس بدء الخط من طرابلس الشام ، ومروره بحمص وحلب واورفة ونصيبين والموصل وبغداد ومنها ينتهي الى البصرة . غير ان احتلالهم لمصر عام ١٨٨٢ ، ودخول قناة السويس فعلا تحت اشرافهم ، جعل حكومة لندن تحول انظارهم موقتاً عن الاناضول .

من اجل ذلك فأن الانكليز لم يقلقوا كثيراً مما ناله الالمان من امتياز اول خط حديدي في تركية ، بل انهم رأوا هذه الحركة بمثابة سدود وحوائل امام مطامع الروس في ارمينية ، وآمال الافرنسيين ودعاويهم في ازمير وكليكية وسورية . غير ان هذا الموقف لم يطل ، فأن سياحة غليوم الثاني الطنانة في الشرق الادنى ، وموقفه في القدس وخطابه في دمشق ، لم يلبث ان اثار القلق في جيراننا عبر المانش وقد كان منح تركية للدكتور سيمنس وعداً بامتياز خط حديد قونيه — بغداد عام ١٨٩٩ منبها قويا لهم ايضاً ، حيث ادركوا ان الالمان وهم يسيرون تحت ستار التجارة انما يسيرون في الحقيقة وراء فكرة سيطرة من شأنها ان تهدد الامن والسلام في بلاد الشرق . على ان الالمان لم يتأخروا في الكشف عن نيتهم ، وان كانوا قد فعلوا ذلك بتحفظ كبير حيث اختفوا وراء الدولة العثمانية وشجعوها ضد الانكليز في مسائل الكويت وحيفا وطابا .

— ٧ —

لم يكن من الممكن ان ترضى انكلترة عن وصول خط بغداد الى خليج البصرة ، فقد حرصت منذ قرن على تحويل هذا الخليج الى بحيرة انكليزية ؛ كما ان تحكمها في شط العرب كان امراً لامعدى لها عنه في سياستها التي ترسمتها منذ امد طويل ، وقد كانت تفكر ان يكون لها في المستقبل القريب او البعيد خط يمر وينتهي في المنطقة التي اخذ الالمان امتيازهم فيها .

ولقد كانت انكلترة ادخلت امير الكويت الشيخ مبارك في نطاق نفوذها واتفاقها من اجل ذلك الهدف ، وحملته على التخلي لها سراً عن ميناء خور عبد الله. ولما كان الالمان يستهدفون هم الاخرون ان يصلوا الى خليج البصرة ، فقد حرضوا الدولة العثمانية سراً على توطيد سلطانها الفعلي على الكويت بمساعدة ابن الرشيد امير شمر ، وقد علق السلطان عبد الحميد أملا اكثر مما تتحمله الامور على معونة الالمان ، فخطا في سنة ١٩٠٠ خطوته في سبيل تنفيذ تلك الخطة ، غير ان الانكليز كانوا يقظين فوقفوا موقفاً حاسماً واضطروا الفصائل التركية بتهديد

الاسطول الانكليزي الذي كان يرابط في الخليج الى التراجع ، على ان بعض الفصائل التركية تمكنت عام ١٩٠٢ من احتلال بعض السواحل في شمال الكويت ، فما كان من الانكليز الا ان اعلنوا مقابل ذلك حمايتهم لمدينة الكويت عام ١٩٠٣ ، ثم ادلى وزير الخارجية البريطانية اللورد لانسدون في ٥ مايس من هذا العام في مجلس اللوردات ، بالبيانات التالية التي توضح وجهة نظر الانكليز ازاء المطامع الالمانية حيث جاء فيها :

« اني اصرح بدون اى تردد اننا نعتبر كل محاولة من اية دولة في سبيل اقامة قاعدة بحرية على خليج البصرة او انشاء ميناء مستحكم فيه تهديداً شديداً للمصالح الانكليزية نقاومه بكل ما في ايدينا من وسائل » .

وقد ابلغت حكومة لندن في نفس الوقت الدولة العثمانية رغبتها في الاشتراك في الخط الحديدي الذي يمكن انشاؤه مستقبلا ليصل بين بغداد والبحر . وقد اغتنمت فرنسة الفرصة فاحتفظت هي الاخرى بحقها في ذلك لدى الدولة المذكورة .

— ٨ —

ومع ان الانكليز كانوا يعتبرون الكويت كنقطة انتهاء صالحة وطبيعية لخط حديدي يكون في المستقبل طريقاً اضافياً الى السويس ، فقد كانوا مترددين جدا في تعيين نقطة ابتداء هذا الخط على ساحل البحر الابيض ؛ فكان بعضهم يرى خليج الاسكندرونة هو الاصلح بينما كان بعضهم يرجح بور سعيد ، وبعضهم يرجح بيروت ، وبعضهم حيفا ، ولقد انشأ انصار فكرة حيفا عام ١٨٩١ شركة برأس مال انكليزي سموها « شركة خط حديد سورية العثمانية » ؛ وبدأت هذه الشركة فعلا بالاستعداد لانشاء خط يربط حيفا بالشام ، على ان يكون في الامكان تمديده يوما ما الى خليج البصرة ؛ غير ان دراسة الحالة الاقتصادية في حوض النهرين الجنوبي دلت على ان امل الربح من هذا الخط ضعيف جدا فعدلت الشركة عن العمل مكتفية بما صار لها في انشاء الخط من حق راهن .

وفي سنة ١٩٠٢ وبينما كان الانكليز منهمكين في حرب البوير ، ومهملين امور الشرق الادنى ، اشترى السلطان عبد الحميد بتحريض الالمان امتياز خط حديد حيفا

من الشركة ؛ ولم تمض ثلاث سنين حتى تمكن مهندسو الالمان من انشاء خط حديدي بين حيفا ودرعا مخترقا مرج ابن عامر . وكان الخط هنا يلتقي بطريق الحج الى المدينة . وهكذا طار طريق حيفا — خليج البصرة من يد الانكليز ولم يكن في امكانهم الاحتجاج ، لان الالمان كانوا رسميا بعيدين عن المشروع الذي كان في الظاهر مشروعا تركيا صرفاً .

— ٩ —

وفي سنة ١٩٠٦ نجم خلاف تركي — انكليزي جديد على حدود سورية ومصر ، كان للأصابع الالمانية يد فيه . فهذه الحدود من ناحية البحر الابيض تبتدىء من رفح وتسير بجنوب جبل الابن والمغارة وتنتهي عند اسفل العقبة على ساحل البحر الابيض ، وتكون العقبة ضمن حدود سورية بينما تكون سواحل طابا ضمن الحدود المصرية .

وقد رأى اصحاب فكرة التوسيع الجرماني الذين لم ينجحوا في الوصول الى خليج البصرة ان يسيروا في خطة اخرى من ناحيه ثانية ، فحرضوا السلطان على الاستيلاء على طابا أملا بان يكون لهم على البحر الاحمر مخرج حر ؛ وكانوا يأملون ايضا في وضع ايديهم على جزيرة فرسان الواقعة في شمال مضيق باب المندب في البحر الاحمر ، وكان مما تصوروه ربط العقبة بمعان التي كانت محطة من محطات خط حديد الحجاز ، وكانت الحجة لهذا الفرع تسهيل واسراع القوات الحربية التي ترسل الى قمع ثورات اليمن ، حيث تركب البحر من ميناء العقبة . ولقد اخترقت الفصائل التركية فعلا حدود مصر في ١٥ شباط سنة ١٩٠٦ ، واحتلت طابا ، ولكن الانكليز وقفوا موقفاً حازما ، وحشدوا قوى بحرية وبرية كبيرة اتوا بها من جبل طارق ومالطة والهند وجزيرة بريطانيا ؛ واعلن الباب العالي من جهة النفير العام والاخذ بالحشد . على ان السلطان لم يلبث ان قبل الانذار الانكليزي ، لان غليوم الثاني لم يكن يشعر بعد بقوة الوقوف رسمياً موقف المؤيد لجانب الدولة العثمانية .

— ١٠ —

على ان مواقف انكلترة الحازمة لم تمنع المانيا من دس الدسائس في خليج البصرة ؛

فقد انشيء عام ١٨٩٦ في بندر عباس محل دوتشوس التجاري الالماني تحت ستار تجارة اللؤلؤ واتسعت الشركة عام ١٩٠٢ وازداد نشاطها فجأة، وانشأت فروعاً لها في البحرين والبصرة وسائر مراكز الخليج، وطلبت من السطان امتيازا باحتكار تجارة اللؤلؤ كما عرضت عليه شراء جزيرة ابي موسى؛ ومع ان حكومة لندن استطاعت ان تحمل الباب العالي على رفض هذه الطلبات فأن هذا لم يمنع المانيا من استمرار النشاط، وقد اعلنت سنة ١٩٠٦ وجودها في خليج البصرة بصفتها دولة بحرية تجارية ولم تلبث متاجر دوتشوس ان تحولت الى وكالة شركة هامبورغ اميركا البحرية، ولم تعتم هذه الشركة ان انشأت بعد قليل خط نقل بحري بين هامبورغ وعدن ومسقط وخليج البصرة.

ولم يمض طويل وقت حتى وجه الالمان انظارهم نحو ايران ايضاً، حيث طلب الامبراطور من حكومة الشاه امتياز قناة قارون، وان كان هذا الطلب رفض نتيجة لاعتراض ومساعي انكلترة.

وقد نشأت اسباب جديدة من شأنها ان تدفع الانكليز الى معارضة وعرقلة المطامع الجرمانية في شط العرب وبين النهرين ومنطقة ايران الحيادية. فقد اخذ السير ويلكوكس الذي اشتهر في مشاريع الري المصرية يلفت انظار مواطنيه الى امكانيات مشاريع ري كبرى بين النهرين، ويدعو الى وجوب شمول اهتمام الحكومة الانكليزية ورقابتها لهذه المنطقة. وكان بعض الرعايا الانكليز من جهة اخرى قد نالوا امتياز نفط من الشاه في مناطق الحدود الايرانية التركية التي اكتشف فيها طبقات النفط من جديد، فأعارت الحكومة الانكليزية اهتماماً شديداً لهذا المنبع العظيم من الوقود الذي سيكون في المستقبل كبير النفع وشديد الضرورة لاسطولها.

ولقد كان كل هذا دافعاً لحكومة لندن الى الاتصال بباريس وبطرسبرج في سبيل عقد اتفاق معها فيما يستهدفه سد طريق آسيا في وجه المانيا، حيث ادركت خطر التبسط الجرماني ووجوب التضامن في ايقافه.

— ١١ —

وقد كانت رحلة غليوم الثاني الى طنجة وحادثة طابا الجواب الاول من

المانيا على التقارب الودي الجديد الذي اخذ يتوطد بين فرنسة وانكلترة ؛ وكان هذا اعلاناً صريحاً من الامبراطور بان ما تم الاتفاق عليه بين الدولتين في معاهدة عام ١٩٠٤ لن يغير شيئاً من مركز مصر وفاس وفلسطين ؛ وان معاهدتي ١٨٥٦ و ١٨٧٨ الدوليتين اللتين تعترفان بسلطان الدولة العثمانية على مصر هما الواجب رعايتهما ، وانه ليس من شأن الاتفاق الانكليزي الافرنسي تعديل ذلك او الاخلال به ؛ كما انه ليس من شأنه ان يغير مركز سلطنة فاس ؛ لان المانيا لم تشهده . وكان غليوم الثاني يطلب حصة في حالة تقسيم الامبراطورية العثمانية ، ويريد ان تكون حصته جميع آسيا التركية ممتدة الى سواحل البحر الاحمر من جهة وخليج البصرة من جهة اخرى . ومما لا ريب فيه ان هذه المطالب كانت مما يبعث الدهشة والحيرة ، لا سيما وان المانيا لم تؤيد في يوم ما فرنسة حينما كانت تطالب انكلترة بتعيين اجل لاحتلالها مصر .

على ان قيام الائتلاف الثلاثي اقنع غليوم انه لن يستطيع تحقيق اطماعه في الشرق الا بالقوة . ومع رغبته في الحرب فانه كان يرغب في تأخيرها مدة اخرى ، ريثما يصبح في مقدور اسطوله الوقوف في وجه الاسطول الانكليزي موقف الند . وقد رأى الى ان يأتي هذا الوقت ان يدس الدسائس لتعكير صفو الصداقة الافرنسية الانكليزية ؛ وفصم عرى الاتفاق الروسي — الافرنسي ، وبالتالي لتفريق المتفقين الثلاثة عن بعضهم ، وكسباً للوقت وافق من جهة على المفاوضات للاتفاق على حل المسائل الشرقية على ما سوف نذكره في احد الفصول الآتية ، بينما ظل من جهة اخرى يهدد فرنسة في اغادير والدار البيضاء ، ويجتمع ويتفاوض مع قيصر روسية في بوتسدام ، ويعرض على اللورد هالدن الانصراف عن برنامجه البحري ، والاعتراف بمصالح الانكليز في خليج البصرة مقابل وقوف انكلترة موقف حياد ودي في حالة اشتباك المانية مع فرنسة .

ومن حسن الحظ ان مساعي بوانكاره احبطت دسائس الامبراطور ، وادامت الاتفاق الثلاثي بين فرنسة وروسية وانكلترة .

الفصل السابع

سياسة ايطالية

•

ان ايطاليا اصبحت متحدة وحرة واصبح في ايدينا
اسعادها وايصالها الى مصاف الدول الكبرى .

من خطاب فيكتور حانويل في فلورنسة
في ٥ كانون الاول سنة ١٨٧٠

•

مطامع رومية وآمالها — حركاتها في البحر الاحمر وسواحل افريقية الشمالية — عدوان ايطاليا على حماية فرنسة الدينية في الشرق العربي — الحرب الطليانية التركية .

— ١ —

كان لا بد لايطالية الحديثة وريثة روما وجنوه والبندقية من السعي لزيادة نفوذها في البحر الابيض ، وللبروز كدولة استعمارية كبرى ايضاً . ومما يؤسف له ان تكون خطواتها الاولى في سياستها الشرقية موجهة ضدنا وان يكون ما بدا منها من اتجاه الى مصادقة انكلترة اولا والمانيا اخيراً والاتفاق معها لضررنا وعلى حسابنا .

فعلى الرغم مما اسداه نابوليون الثالث من يد طولى في سبيل الوحدة الطليانية ، ومن وحدة الحضارة والمصالح ، ومن زمالة الحرب في ميادين القرم وايطالية التى كانت نتيجة لتحالف فرنسة وحكومة بيمونتي ، فان المطامع الاستعمارية قد فصمت الروابط المتنوعة التي كانت تربط فرنسة بايطالية وصار من المقدر للامتين ان تتنازعا من اجل تونس والحبشة والشرق العربي .

على ان مطامع المانيا والنمسة في البحر الابيض والشرق ، جعلت حكومة روما تدرك اخيراً ان مصلحتها الحقيقية في جانب الائتلاف الثلاثي بصورة عامة ، والتقرب الى فرنسة بصورة خاصة .

— ٢ —

ان كثرة النفوس الايطالية اضطرت حكومتها الى البحث عن اراض يستطيع ان يستقر فيها من تضيق بهم شبه الجزيرة من مهاجريها ؛ وقد اتجه نظرها في بادىء الامر نحو تونس ولكن فرنسة لم تكن لتتخلى عن هذا الاقليم ، لانه لا بد لها منه من اجل سلامة املاكها في شمال افريقيا . ولما خاب امل الحكومة الطليانية هنا حولت نظرها الى البحر الاحمر والحبشة . وكان ظرف انكلترة مما يحمل حكومتها على تشجيع ايطالية وتحريك مطامعها هنا ، اذ تستطيع بالتعاون معها ان تقمع ثورة المهدي وتعرقل جهود وحركات فرنسة نحو الهند وطرقها .

ولم تلبث خطوات ايطالية في الشرق ان اسرعت واتسعت . وقد بدأت هذه الخطوات اولا بالبعثات التبشيرية ، ونذكر منها خاصة بعثة الكونت بير انطونيلي الذي اصبح في برهة وجيزة المستشار الاول لنجاشي الحبشة ، والممثل الرسمي لحكومة ايطالية عنده .

وفي عام ١٨٨٢ احتل الطليان عصب ، وفي عام ١٨٨٥ اي في السنة التي استولى المهدي فيها على الخرطوم تصرف الانكليز باراضي مصر التابعة للخديوي تصرف المالك الكريم فسمحوا للقوى الطليانية بالحصول على مصوع ، وطلبوا من الحامية المصرية ان تنسحب منها فانسحبت .

على ان القوى الطليانية منيت في سنة ١٨٨٧ بخيبة وهزيمة في اقليم تيغري الذي كانت احتلته . وحينئذ تفاهمت حكومة روما مع النجاشي منليك الذي كان ينافسه الرأس تيغري ، وعقدت معه معاهدة « العجالي » في ٢٢ مايس ١٨٨٩ ، وهي المعاهدة التي جعلت جميع بلاد الحبشة تحت حماية روما من الوجهة النظرية .

وفي نفس السنة استطاع الطليان توطيد اقدامهم في جنوب بلاد الحبشة وسواحل افريقية الشرقية ، وفي عيبه وبنادير وجميع الانحاء الممتدة من نهر غوبا الى غرب رأس غوارد افولي . وفي سنة ١٨٩٠ احتلوا كسالة واغوردي على طريق الخرطوم ، فأثار هذا هواجس انكلترة ، وحملها على التفاهم مع ايطالية ، بحيث تطلق يدها في جميع بلاد الحبشة على أمل ان تحد حركاتها في وادي النيل ، وان توجه سيرها

وانظارها الى انحاء أخرى ، وقد عقد بين الفريقين فعلا سنة ١٨٩١ اتفاقان احدهما في ٢٤ مارس وثانيهما في ١٥ نيسان ، ثبتت فيهما من جهة حدود بلاد الحبشة الجنوبية الغربية من ساحل المحيط الهندي الى النيل الازرق ، ومن جهة حدود هذه البلاد الشمالية الغربية من النيل الازرق الى البحر الاحمر ، ثم عقد اتفاق ثالث في ٥ مايس سنة ١٨٩٤ ثبتت فيه الحدود بين بلاد الحبشة كذلك وبين الصومال الانكليزي ، ولم يحسب في هذا الاتفاق اي حساب لما تم عليه بين فرنسة وانكلترة في عهد عام ١٨٨٨ من احترام تمام اقليم تيغرى .

ولم يكن النجاشي منيلك يفكر حينما اتفق مع ايطاليـة الا بالخلاص من راس تيغري ؛ فلما تحقق امله سارع الى اعلان انفساخ اتفاق العجالى ومنذئذ قام الخلاف المسلح بين النجاشي والطليان ؛ وقد مني هؤلاء بهزائم عديدة كان اشدها وافظعها وآخرها نكبة عدوه في شباط عام ١٨٩٦ ، ولم يكن لهم مناص بعدها من عقد الصلح مع منليك ، وكان ذلك في ٢٦ تشرين الاول سنة ١٨٩٧ حيث الغيت معاهدة العجالى واعترف باستقلال الحبشة ، وانسحبت القوى الطليانيـة الى الاريتره مترصبة فرصة اسعد حظاً للتوغل ثانية في الداخل .

وفي اثناء ما كانت حكومة روما توطد سيطرتها على الاريتره لم تحسب حساب حقوقنا التي اكتسبناها سابقا في ادوليس وعدوه وام فيلا ، بل ان وزارة كريسبي وقفت منا عام ١٨٨٨ موقف المعتدي ايضاً مما حمل وزارة خارجيتنا على تقديم احتجاج حازم وان صيغ باسلوب معتدل . على ان توتراً اخر حصل في كانون الثاني من عام ١٨٨٦ قبل هزيمة عدوه ، وعلى أثر استلام الحاميـة الطليانيـة في مكالا ، فقد اراد كريسبي ان ينزل حملة الى المصوع ويسيرها على هرر ، فرأت فرنسة ان تذكر انكلتره بان تمام ملك هذا الاقليم قد صودق عليه واعترف فيه في المعاهدة الافرنسية الانكليزية لعام ١٨٨٨ ؛ وحينئذ لم تسمح حكومة لندن لايطالية بتنفيذ ما ارادت .

واول تفاهم على الحدود بين الممتلكات الافرنسية في جيبوتي وبين الارتيرة الطليانية كان عام ١٨٩١ . وفي سنة ١٨٩٨ حدث خلاف حدودي ساق حكومتي باريس وروما

الى تفاهم آخر تم سنة ١٨٩٩ . وفي سنتي ١٩٠٠ و ١٩٠١ عقدت بروتوكولات ثبتت فيها هذه الحدود نهائيا ومنذئذ لم يقع هنا حادث يخل بالصلات الافرنسية الطليانية .

— ٣ —

اما في الشرق العربي فأن ايطالية لم تقم في بادىء الامر الا بدور ضعيف جداً ؛ ومن عام ١٨٧٠ الى ١٨٩٥ لم يكن من شأنها الا السير وراء السياسة الانكليزية . غير انها اخذت بعد ذلك تخطو خطوات سريعة ، وخاصة في ميدان التجارة والملاحة والثقافة ، ومن جملة ذلك ما كان من نشاط شركة كومرسيال في تسيير السفن في خطوط عديدة بين موانىء الدولة العثمانية بتشجيع ورعاية كريسبي ، وما كان كذلك من نشاط جمعيات الدعاية والثقافة الطليانية مثل جمعية دانتي اليكري ، وجمعيه اومانيارا اللتين قامتا بجهد عظيم في سبيل نشر اللغة الطليانية ، والنفوذ الطلياني في هذا الشرق .

ومما يؤسف له ان هذا النشاط كان على حساب فرنسة وضررها ايضا . فأيطاليا الداخلة في الاتفاق الثلاثي (المانية — النمسة — ايطالية) والمناوئة للبابا والفرمسونية معاً لم تر ما يمنعها من بذل مساعيها جهرة ضد حمايتنا الدينية في الشرق العربي ، وقد نجحت المساعي التي بذلتها منظمة « الاتحاد القومي لحماية البعثات التبشيرية الطليانية » ومؤسسات « غوستودوي » والفرنسيسكان في القدس والتي اندفع في تعضيدها المركيز امبريالي سفير ايطالية في الاستانة وجميع القناصل الطليان اندفاعاً شديداً في حمل بعض المؤسسات المذهبية والروحانية على الانفصال عن حمايتها الدينية والدخول في حماية حكومة رومة .

ولقد كان البابا ليون الثالث أيد حقوق حمايتنا هذه عام ١٨٨٨ . غير اننا لم نلبث ان ابتعدنا عن الفاتيكان ، ثم قطعت حكومتنا صلاتنا به نهائياً بينما اخذت حكومة رومة من جهة تتقرب اليه ، ومن جهة تحل المدارس التبشيرية في الشرق العربي محل المدارس العلمانية . وظل الامر على هذا الى ان انفجرت الحرب العالمية .

— ٤ —

ولقد طمعت ايطالية في طرابلس الغرب وبنغازي منذ امد طويل ، وفي ١٢ كانون الاول من سنة ١٨٨٧ نالت وعداً من انكلترة بعدم معارضتها من حيث المبدأ فيما قد تخطوه من خطوات في سبيل تحقيق مطمعها . وقد ضمنت كذلك بدخولها في الاتفاق الثلاثي موافقة كل من حليفتيها المانية والنمسة . وكانت هذه الموافقة تتجدد من حيث المبدأ كلما تجدد امد هذا الاتفاق . ولقد حصلت عام ١٩٠٢ على موافقة كل من فرنسة وروسية ايضاً .

فلما اعلنت النمسا ضم البوسنك والهرسك ، وقامت فرنسة بحملتها على فاس ، واحتل الاسبان العريش والقصر ، وبرزت المانية على المسرح اخيراً في حادث اغادير رأت ايطالية ان تقدم هي الاخرى لتحقيق املها في ذينك الاقليمين ؛ فاخبرت الدول في شهري آب وأيلول من سنة ١٩١١ بعزمها ، واعلنت الحرب على الدولة العثمانية وقصفت بمدافعها مدينة بيروت والحديدة ، وانزلت قواتها الى طرابلس الغرب . وقد انتهت الحرب بمعاهدة اوشي في ١٥ تشرين اول عام ١٩١٢ التي تخلت فيها الدولة العثمانية عن اقليمي طرابلس وبنغازي لحكم ايطالية وسيطرتها .

ولقد احتلت القوات الطليانية في اثناء الحركات الحربية الجزر الاثنتي عشرة في بحر ايجة ؛ فلم تجل عنها بعد عقد المعاهدة بل صدرت اليها الاوامر بعدم مغادرتها ، كضمانة على تنفيذ احكام المعاهدة تنفيذاً تاما ؛ اي الى ان لا يبقى جندي تركي واحد في الاقليمين المذكورين (١) هذا في حين انه كان من المتفق عليه بين الدول ان تعطي بعض هذه الجزر لليونان .

وفي عام ١٩١٢ جدد الاتفاق الثلاثي ، ثم قام المركيز سان جيولاتي برحلة الى

---

(١) تخلت الدولة العثمانية عن طرابلس وبنغازي بموجب قانون منحتهما به استقلالا ، وانشىء به نيابة سلطنته . وتعهدت الدولة بسحب ضباطها وجنودها ، فانفتح المجال لايطالية لاحتلال البلاد وبسط سيطرتها عليها بجهدها . ولقد ظل الجهاد مستمرا ضدها وبقي كثير من ضباط وجنود الدولة من ترك وعرب مندمجين في هذا الجهاد ؛ فكان هذا ما اتكأت عليه ايطاليا في موقفها من الجزر . . . المعرب

برلين ، وتقابل فيكتور عمانوئيل في تموز عام ١٩١٣ مع الامبراطور في كيل ، فانعشت هذه المظاهر الاتفاق المذكور ، واغتنمت ايطالية الفرصة فنالت موافقة حليفتها على الاحتفاظ برودوس وجزر بحر ايجة المذكورة . وفي هذه الاثناء اخذت الصحف الطليانية تشير الى احتمال قيام ايطالية بحركة سلمية تجاه مدينة انطاكية والاقسام المواجهة لجزيرة رودوس من اقليمها ، ولم يلبث ان وضح معنى هذا الكلام ، حيث تقدمت ايطالية الى الدولة العثمانية بطلب امتياز بانشاء مرفأ للمدينة المذكورة ، وخط حديدي يربطها بمدينة بوردو وكان من المتصور ان يتصل هذا الخط بخط حديد الانكليز الممتد بين بوردو واكريدير وآيدين وازمير ، ثم اخذ الكلام يدور على امتياز خط آخر بين انطاكية واريكلي لوصل هذه الشبكة بخط بغداد .

وفي شباط عام ١٩١٤ اخذت الصحف الطليانية تومىء الى ان جلاء القوات الطليانية عن الجزر منوط بامتيازي مرفأ انطاكية وخط حديد بوردو ، ودفع غرامة حربية ، وتبرهن على حق ايطالية بالغرامة بما كان من امتداد امد المقاومة في طرابلس الغرب ، وبما تحملته من نفقات كبيرة اثناء احتلال الجزر .

ولم تكن مطامع ايطالية لتتفق بطبيعة الحال مع مطالب ودعاوى اليونان التي كان يدلي بها فنزيلوس سنة ١٩١٢ اثناء مفاوضات صلح البلقان . فقد كانت السياستان الطليانية واليونانية ومطالب كل من الدولتين شديدة التضاد ، وكان الامر كذلك حينما انفجرت الحرب العالمية .

الفصل الثامن

الدول الاوروبية والاقليات العثمانية

•

ومع ذلك فان الاصغاء الى مطـالب بعض رعايـا الدولة العثمانية بحسن نية ورغبة خير مما يقضي به العقل السليم في سبيل اجتناب المصاعب الداخلية في المستقبل .
ومنذ شهور عديدة وسفيرنا في الاستانة بالتضـامن مـع سفراء الدول الاخرى يؤيدون لدى الباب العالي مطالب اللبنانيين الذين قدموها باللائحة الاصلاحية . غير ان النصائـح لا تزال تقابل بالمطـل والتسويف ولم يمكن الوصول الى نتيجة ما بعد .

من خطاب للمسيو بوانكاريه امام مجلس الاعيان في كانون الاول سنة ١٩١٢

•

تدخل الدول الاوروبية لمصلحة الاقليات العثمانية – الحماية الدينيـة – المسألة الارمنيـة – الصهيونية ــ الحاق اروام الاناضول باليونان ــ الاستقلال الاداري لسوريا ولبنان ــ تيار الانفصال في العرب .

— ١ —

لم يحاول الاتراك ان يبيدوا الامم التي كانت متوطنة في سواحل البحر الابيض ، والتي خضعت لسلطانهم حينما سيطروا على هذه السواحل بل توطنوا بينهم ، غير انهم لم يريدوا يوما ما ان يتمثل فيهم غيرهم ، حتى الذين اعتنقوا دينهم منهم . وهكذا ظل الرعايا غير المسلمين مللا وطوائف متفرقه تحت نفوذ رؤسائها الدينيين وسلطتهم .

غير ان هذا لم يكن في الحقيقة نتيجة لشعور طيب ورغبـة في تصرف صالح . وانما كان رغبة في الابقـاء على جمـاعـات كثيرة تقطن في اراضي الامبراطوريـة ،

وتؤدي لخزينتها الضرائب . ومع ان الاقليات المسيحية قد احتفظت باديانها ولغاتها رقوانينها المدنية ومحاكمها الطائفية ، فانها ظلت عاجزة وبدون نصير ازاء ما كانت تتعرض له من تصرفات حكام الترك الكيفية وعدوانهم وتحقيرهم .

وهذا البيان الوجيز من شأنه ان يجلي المنطق الذي يرتكز عليه ما كان يبدو على الدول الاوروبية من حزن وانفعال من جراء ما وقعت الاقليات المسيحية فيه من مشاكل ومصاعب ، وما كانت تقوم به هذه الدول من تدخل وجهد متواصلين لدى السلاطين كواجب انساني وديني معاً ، في سبيل حماية هذه الاقليات والرفق بها .

وبعد ان كان هذا التدخل والجهد يقعان على عاتق فرنسة او روسية فقط ، صارا يحملان الطابع الدولي الاوروبي منذ معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ، التي ثبت فيها تمام ملك واستقلال الدولة العثمانية . غير ان انقسام الدول الاوروبية الى معسكرين متعادين جعل تدخل اوروبا المشترك غير مفيد وغير منتج في اغلب الاحوال ، وقد استطاعت الدولة العثمانية التي كان يظاهرها غيلوم الثاني ان تتملص من كل وعد وعدته لانكلترة وفرنسة وروسية بالاصلاحات عقب كل مذبحة وقعت على طائفة من هذة الاقليات .

ومما يجدر ذكره ان هذه التدخلات الرسمية التي كانت تقوم بها الدول بسائق الواجب الديني والانساني كانت ترفق احيانا بمساع تحريضية لهذه الاقليات على اضعاف الروابط التى تربطها بحكومة الاستانة استهدافا لبعض المقاصد والاغراض السياسية ايضا .

ولقد كان تدخل الاوروبيين في شؤون الدولة الداخلية يثير سخط الترك وحنقهم ، وكثيرا ما جعلهم يترصدون الفرص للانتقام من العناصر الساخطة والتخلص منها . وقد سنحت لهم في الحرب العالمية فلم يضيعوها .

فمن الضروري والحالة هذه لفهم بعض اسباب وبواعث الحرب العالمية في الشرق الادنى جيداً ان نستعرض المسائل التي كانت تحدو بالدول الاوروبية الى التدخل في شؤون الدولة العثمانية لمصلحة الاقليات العنصرية منذ امد طويل . وخاصة في السنوات التي تقدمت هذه الحرب وهذه المسائل هي :

الحماية الدينية — المسألة الارمنية — الصهيونية — ضم اروام الاناضول الى اليونان — الاستقلال الداخلي لسورية ولبنان . — تيار الانفصال في العرب .

— ٢ —

ان حق حماية فرنسة لكاثوليك الشرق يرجع الى عهد الخليفة هارون الرشيد ، الذي اوفد بعثة سياسية الى شارلمان تحمل اليه مفاتيح كنيسة القبر المقدس . وبعد هذا الحادث بقليل انشأ الامبراطور في القدس مأوى للعجزة وبعض منشئات دينية . وقد عني لويس الصالح بالمقامات المقدسة في القدس نفس العناية التي اعارها اياها الامبراطور ، ومنحها المخصصات المرتبة لها .

ولقد تضمنت الامتيازات المعطاة لفرنسة عام ١٥٣٥ وما تبعهما من المعاهدات الافرنسية العثمانية الاعتراف بحق فرنسة بصورة رسمية بحماية جميع النصارى اللاتين ، سواء كانوا تجاراً او رهباناً ، وبحماية المنشئات الكاثوليكية والاماكن المقدسة كذلك ؛ وكان من حق القنصل الافرنسي وحده ان يشهد حفلات القبر المقدس وهو متقلد سيفه .

ولم يكن حق حمايتنا يشمل من الوجهة النظرية الكاثوليك من رعايا الدولة العثمانية ، غير انهم كانوا بالفعل داخلين في نطاقها تبعاً لتقاليد مرت عليها الاحقاب ، وتمشيا كذلك مع ضرورات السياسة ومقاصدها .

اما الذين كانت تشملهم حمايتنا فهم الروم واليونان والكلدان والارمن والموارنة . وفي ايدي الاخيرين رسائل بخط لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر تتضمن صراحة انهم في حماية فرنسة .

ومع ان عهد الامتيازات الافرنسية قد جدد عام ١٧٤٠ ، فأن معاهدة قينارجة عام ١٧٧٤ منحت قيصر روسية حق حماية النصارى الارثوذكس اي الروم غير الكاثوليك والارمن الغريغوريين .

ولما لم تكن الاماكن المقدسة المعترف بحمايتنا لها مذكورة باعيانها في عهد الامتيازات المتجدد عام ١٧٤٠ ، فأن الروم الارثوذكس الذين يضمرون اشد العداء للاتين اغتنموا فرصة هذا الغموض فاستطاعوا بما بذلوه من جهد ان ينتزعوا بعض

الحقوق والامتيازات لانفسهم في هذه الاماكن ، وفي سنة ١٨٠٨ خاصة نالوا حقوقاً في كنيستي القبر المقدس في القدس والمهد في بيت لحم .

ولقد تكرر عدوان هؤلاء وسرق من كنيسة المهد ثريا فضية ، فحدا هذا وذاك بفرنسا عام ١٨٤٧ الى تقديم احتجاج الى الحكومة العثمانية ، ولكن روسية التي كانت تنفس علينا نفوذنا في الاستانة سارعت الى التزام جانب الارثوذكس ؛ وكان هذا من اسباب حرب القرم .

وقد نالت روسية نتيجة لمعاهدة باريس اراضي واسعة في شمال القدس ، فانشأت عليها منشآت متنوعة ، ومن جهة اخرى فقد نشطت دعايتها نشاطاً عظيماً بواسطة الجمعية الارثوذكسية الفلسطينية . ولقد عارضت اشد معارضة للرغبة التي ابدتها البابوية في توحيد الكنيسة الشرقية ، والمساعي التي بذلت في سبيل تحقيقها ، لما في هذا من حد لمجال التنافس في هذه الساحة ، ولم يكن الاتفاق الروسي الافرنسي ليحول دون استمرار الخلاف والتشاد بين اللاتين والارثوذكس ، حيث ظل كل فريق يحتفظ للآخر بأشد عواطف العداء والضغينة .

على ان حق حمايتنا الدينية قد تعرض لتهجم شديد جدا بعد هزيمتنا سنة ١٨٧٠ ، فحدا هذا بحكومتنا الى ان تشترط بكل حزم وتوكيد لاشتراكها في مؤتمر برلين اعتراف الدول المشتركة فيه بحق فرنسة الصريح في ذلك ، ولقد تضمن متن المعاهدة شرطنا هذا وبذلك اعترفت الدول بصورة رسمية بتقاليدنا وحقوقنا في الشرق .

ولقد اعترفت معاهدة برلين بحق حماية كل دولة لرعاياها ، وظل الباب العالي يراوغ امدا طويلا في الاعتراف بهذا لفرنسة وحدها . ولقد استغلت ايطالية اعتراف معاهدة برلين بهذا فادعت انه لم يعد لفرنسة حق حماية جميع كاثوليك الشرق بلا استثناء ، وان كل ما يمكن ان يكون لها حق حماية الكاثوليك من رعايا الدولة العثمانية . ونقيد مع الشكر ان البابا ليون الثالث عشر ايد حق حمايتنا المطلق ودافع عنه بكل حماسة .

وفي سنة ١٨٨٨ استطاعت حكومة كريسبي ان توفق بعض التوفيق بين دول الاتفاق الثلاثي وانكلترة في صدد توطيد حماية ايطالية للاساقفة الطليان ، فسارع البابا الى اصدار امر عام لجميع البعثات والمؤسسات الدينية بالاستمرار في الاعتراف بحق الحماية الافرنسية فقط ، وبعدم مراجعة غير فرنسة في ما قد تحتاج اليه من معونة وتعضيد .

ولقد حاولت الحكومة الطليانية بعد هذا ان تتفاهم مع البابوية ، ولم تتراجع عن موقفها ضدنا . وكانت التحريضات على الحقوق الافرنسية تبث خاصة من مؤسستي غوستودوي والفرنسيسكان الطليانيتين في القدس ، وكانت هاتان المؤسستان تعتديان على صلاحيات قنصلنا في القدس ، وتعرقلان مساعيه ومواقفه في ممارسة حقوق الحماية الافرنسية .

على ان انزعاجنا والتهجم على حقوقنا لم يبقيا قاصرين على ما كان يبذل ضدنا من الروس والطليان ، فان رحلة غليوم الثاني عام ١٨٩٨ الى القدس انتجت تهجما جديداً على حقوق حمايتنا ، حيث وصف نفسه حامياً لكاثوليك الالمان ، مما حدا بالبابا الى اصدار رسالة جديدة الى الكاردينال لانجيفنو ايد فيها حقوق فرنسة علناً .

ومن هذا يبدو ان البابوية فقط هي التي كانت تقف مانعاً دون اضعاف حق حمايتنا الذي تعرض لتهجم المنافسين ومساعيهم المضادة والاخلال به ، ومن هذا يسهل تخمين ما اصاب حقوقنا ومركزنا في الشرق من ضرر بليغ بسبب انقطاع الصلات السياسية بين فرنسة والبابوية نتيجة للقوانين التي اصدرناها ضد المذاهب الدينية ، والسياسية التي سرنا عليها في التفريق بين الدولة والكنيسة ، والميول المضادة للدين التي ظهرت في البرلمان .

ولقد كان حق حمايتنا الدينية قبيل انفجار الحرب العالمية على وشك الزوال ، وكان من المقدر ان لا يبقى بعد الحرب البتة . وقد كان اول عمل قام به الاتراك عقب نشوبها اعلانهم الغاء الامتيازات التي كان يرتكز عليها ذلك الحق .

— ٣ —

ان السكان الاتراك في الاقسام الممتدة في البحر الاسود والقفقاس وايران وسورية

وخليج اسكندرونة من آسية الصغرى وخاصة في ولايات دياربكر وسيواس وطربزون وارضروم فمليون ، وكتلة السكان الكبرى فيها تتألف من عناصر مسيحية اكثرها عدداً الارمن ، وفيها اقليات سريانية وكلدانية كما فيها كتلة قوية وكبيرة من الاكراد المسلمين . وكان هؤلاء الاخيرون يلقون عطفاً وتأييداً من الاتراك ويحملون نحو جيرانهم المسيحيين حقداً وكراهية . وهم الذين كانوا يقترفون مذابح الارمن التي تكررت منذ الفتوحات العثمانية .

ولقد منحت معاهدة قينارجة عام ١٧٧٤ لقيصر روسية حق حماية الارمن الغريغوريين (١) والروم غير الكاثوليك ، ومنذئذ اخذت روسية تباشر حقها لمصلحة محميها بانتظام وعناية ، وكانت تأمل ان يأتي يوم تستطيع فيه السيطرة على ارمينية ، والنزول على ساحل البحر الاحمر من طريق الاناضول ، غير ان معاهدة باريس عام ١٨٥٦ قضت على انفراد روسية في التدخل بشؤون ارمينية وجعلت ذلك في نطاق الدول المشتركة بالمعاهدة . وقد استطاعت هذه الدول في مؤتمر برلين ومعاهدته عام ١٨٧٨ ان تبطل مفعول كثير من احكام معاهدة اياستفانوس التي قضت بتخلي الدولة العثمانية عن اردهان وقارص وبايزيد للروس ، وان تنتزع من الباب العالي عهداً اصلاحياً لمصلحة النصارى الساكنين في الولايات الارمنية تحت اشرافها جميعا .

على ان الاتراك لم يراعوا هذا العهد الذي نصت عليه المادة ٦١ من معاهدة برلين كما كان شأنهم في ما قطعوه على انفسهم بالاصلاح في خط الكلخانة عام ١٨٣٩ والخط الهمايوني (٢) عام ١٨٦٥ ؛ بل لقد انشأ السلطان عبد الحميد عام ١٨٩٠

---

(١) ان الفاتحين الترك اعترفوا في اول الامر ببطرك ارمني واحد ولكن الارمن الكاثوليك انشأوا لانفسهم في القرن التاسع عشر بطركية خاصة قامت الى جانب البطركية الغريغورية . المؤلف

(٢) خط الكلخانة وخط الهمايوني علمان على مرسومين سلطانيين عثمانيين باجراء الاصلاحات ورعاية حقوق الاقليات . المعرب

كتيبة من الكرد سماها الكتيبة الحميدية ، ورسم لها محو الارمن بصورة تدريجية ومنتظمة ؛ ولقد كانت هذه الكتيبة في الحقيقة بلاء عظيما على الارمن ؛ ومع ذلك فان السلطان لم يجد هذا كافياً ومؤدياً الى الغاية بسرعة ، فاخذ يرتب المذابح المنتظمة ضدهم ؛ حيث كانت مذابح سني ١٨٩٤ و ١٨٩٥ و ١٨٩٦ التي ذهب فيها نحو مئة الف ضحية ارمنية .

ولقد وضع سفراء روسية وفرنسة وانكلترة عقب المذبحة الاولى عام ١٨٩٤ التي تعرف بمذبحة ساسون مذكرة احتجاجية واصلاحية مشتركة ايدتها الدول الاخرى الموقعة على معاهدة برلين وهي المانية والنمسة وايطالية ، وقد قبلها السلطان ولكنه لم ينفذها . والواقع ان عبد الحميد كان يعرف انه يستطيع الاستناد في موقفه الى وعد التعضيد والمناصرة الذي قطعه له امبراطور المانية اثناء زيارته الاستانة ، كما انه كان يرى ما بين الدول من تشاد وتنافس وخلاف ، فجعله هذا وذاك يماطل في تنفيذ ما وعد به . وفي الحقيقة ان التنافس الروسي الانكليزي في آسية في هذه الظروف كان مشتدا اشتدادا عظيما ، كما كان الخلاف قائما بين انكلترة وفرنسة حول المسألة المصرية ، ولم تكن روسية تخفي رغبتها في ضم ارمينية اليها ، وظلت فرنسة حائرة مترددة بين مراعاة مصلحة روسية وبين رغبتها في بقاء ملك واستقلال الامبراطورية العثمانية سليمين ، وقد التزمت انكلترة جهرة جانب الثوريين الارمن الذين التجأوا الى بريطانية ، مستهدفة بذلك حمل الدولة العثمانية على الاعتراف باحتلالها مصر وقيام نوع من كيان ارمني يكون مماثلا للكيان البلغاري ووسيلة للتدخل الاوروبي المشترك ، فتستطيع بذلك ان تحول دون تقدم روسية نحو خليج اسكندرونة .

على ان روسية لم تبد في اي وقت عطفا صادقا وقويا على الارمن ، ولقد جنحت الى سياسة سحق الميول الانفصالية التي اخذت تبدو في ارمن القفقاس ، حتى انها وعدت الباب العالي سرا عام ١٩٠٠ بالوقوف بالمرصاد للارمن العثمانيين الذين لجأوا الى الحدود القفقاسية بعد مذابح سنتي ١٨٩٤ — ١٨٩٦ ، وانتزعت مقابل ذلك منه وعدا بعدم منح امتياز بخط حديدي ما في ارمينية لغير الروس ، ومع هذا فانها اخذت وقتاً ما تلوح للارمن ببعض الآمال ، وتشعرهم بامكان مساعدتها لهم على احياء

مملكة اراراط الارمنية تحت حمايتها ؛ وكان الارمن مستعدين لقبول اي يد ومساعدة تمد اليهم ولو كانت من الروس ؛ لانهم كانوا في كرب عظيم ، وكل ما كانوا يتمنونه حق الحياة والسلامة من عدوان جديد .

وفي عهد تركية الفتاة وقعت في عام ١٩٠٩ مذبحة ارمنية جديدة لفتت نظر الدول الاوروبية ثانية الى المسألة الارمنية ، ولكن هذه الدول لم تستطع ان تفعل شيئاً مجدياً حيالها .

وفي اوائل عام ١٩١٢ عهدت جمعية اجميازيان الى بوغوص نوبار باشا بمهمة السعي لدى الدول الاوروبية ، واثارة اهتمامها لتنفيذ المادة ٦١ من معاهدة برلين ، ولم تسفر مساعي الرجل عن نتيجة عاجلة ما ، لانها كانت تنطوي بصورة خفية على مشروع جعل الاصلاحات المطلوبة باشراف روسية .

على ان روسية استمرت سائرة وراء المشروع ، فقد رأت ان نجاح المساعي الالمانية في مد الخطوط الحديدية في الاناضول مما يمكن ان يكون له اثر وصلة بالامن في ارمينية ، فحداها هذا الى التخلي عما اعتادته من سياسة التظاهر بعدم الابوة لمسائل الاقليات العثمانية ، وكانت فرنسة وانكلترة ترغبان فعلا في نجاح الاصلاحات الارمنية على امل القضاء على مطامع روسية في الولايات الارمنية ، حيث كان من شأن تحقيق هذه المطامع ان يفتح الطريق الى تصفية الامبراطورية العثمانية تصفية عامة ، وحيث كان من المحتمل حينئذ مبادرة المانية الى احتلال الاناضول وكليكية وتوطيد اقدام الاسطول الالماني بعد ذلك في خليج اسكندرونة واخلاله بموازنة البحر الابيض .

ومن جهة اخرى فان الدولة العثمانية التي خرجت من حرب البلقان منهوكة جداً كانت في حاجة الى مساعدة اوروبة المالية ، وقد تقدمت فعلا بطلب هذه المساعدة فتراءى للدول الاوروبية في هذه الظروف احتمال وامكان تطبيق اللائحة التي قدمتها الى لدولة المذكورة باصلاح الولايات الارمنية ، وعهدت الى حكومة بطرسبرج بحمل الباب العالي على تطبيقها . ولقد ادت المساعي في هذا السبيل الى عقد اتفاق بين سفير روسية في الاستانة والصدر الاعظم بتاريخ ٨ شباط سنة ١٩١٤

تعهد فيه الباب العالي بادخال بعض الاصلاحات على ادارة الولايات الارمنية ، حيث تقسم الى قسمين احدهما يتألف من ولايات سيواس وارضروم وطربزون ، وثانيهما من ولايات بتليس ووان وخربوط ودياربكر ، ويقوم على رأس كل قسم مفتش اوروبي توافق الدول عليه ، مهمته العناية بأمن وسلامة العناصر غير التركية ، وكانت هذه الخطوة على وشك التنفيذ قبيل الحرب العالمية ، حيث عين المفتشان وكان احدهما هولاندياً والاخر نروجياً واستعدا للسفر والعمل . غير انه كان من المقدران تحول الحرب دون ذلك ، وان يغتنمها الترك فرصة سانحة لقلع جذور الارمن من الاناضول .

— ٤ —

ان السلطان محمد الثاني بعد فتح القسطنطينية جعل جميع اليهود تحت سلطة رئاسة حاخامين واحدة . وكان اكثر اليهود العثمانيين — باستثناء بعض جماعات متفرقين في انحاء مختلفة — يقطنون في فلسطين وخاصة في القدس . وكان هؤلاء باستثناء نادر جدا في حالة بؤس شديد ، يعيشون على صدقات ترد اليهم من بني دينهم في مختلف انحاء الارض .

ومنذ تاريخ ١٨٧٠ جعلت الاضطهادات الروسية والميول ضد السامية التي اخذت تنتشر في مختلف البلاد الاوروبية تسوق اليهود الى الهجرة بكثرة الى فلسطين . وفي هذه الاثناء انبثق في نفس بعض المثاليين اليهود امل جمع كتلة كبيرة يهودية في فلسطين ، وتجديد مملكة صهيون ، واخذت منظمات محبي صهيون و « الاتحاد الاسرائيلي العام » على عاتقها ادارة وتعضيد وتنسيق الحركات الصهيونية . وقد ظاهرها البارون روتشيلد مظاهرة نبيلة وسخية جدا ، وادمجت الحركة الصهيونية في حركة جمعية الاستعمار اليهودي التي كانت تحت رعايته . ومما يجدر ذكره ان الحركة الاستعمارية اليهودية الاولى لم تأت بثمرة ذات بال على الرغم مما بذل من جهود ، ولم تسر في طريق النجاح الا بعد ان اضطلع بالامر الجمعية المذكورة منذ عام ١٩٠٠ .

ولقد لقي توطن المهاجرين اليهود في فلسطين ممانعة قوية من جانب الدولة العثمانية ، فان الترك لم يرضوا بحال عن انتزاع الاراضي من ايدي اصحابها وتسربها الى الايدي الصهيونية .

ولقد عرض الصهيونيون على السلطان عبد الحميد ان يمنحهم حق الاستملاك مقابل تعهدهم بجميع ديون الامبراطورية ، ولكن عرضهم قوبل بالرفض . وكل ما سمح لهم السلطان به حق الاقامة والاستملاك في العراق على شرط ان لا يتجاوز عدد اليهود في مكان ما الالف ، وقرر مع هذا تحديد وانقاص عدد المهاجرين اليهود الى درجة كبيرة ، ولم يسمح كذلك بتحقيق مشروع السير اوليفانت الانكليزي الذي يتضمن تحويل مناطق جلعاد ومواب (١) الى مزارع خصبة مساحتها ستمائة الف هكتار لاسكان اليهود فيها ، ولقد رفضت حكومة الاتحاد والترقي ايضاً مشروعاً مثل هذا (٢) لانها خشيت ان يتولد عنه اضطرابات واعتداءات ضد اليهود .

ومع ذلك فان النشاط الصهيوني ظل مستمراً ، على الرغم من اوامر الاستانة بفضل تستير وتساهل الحكام الترك الذين كان يجذبهم الكرم الذي لم تقصر فيه الجمعيات اليهودية ، فاتسعت حركة الاستعمار اليهودي حتى صار لليهود في سنة ١٩١٢ اربعون قرية مساحة اراضيها اربعون الف هكتار يزرع ثلاثة ارباعها . وكان اليهود المستعمرون الذين بلغ عددهم اذ ذاك خمسة وستين الفاً (٣) موزعين في مناطق اليهودية والسامرية والجليل وما وراء الاردن ، وكانوا يلقون تعضيداً ومظاهرة من المنظمات اليهودية المتنوعة في المانية وفرنسة وانكلترة ، وكانت مدارس جمعية الاليانس تعلم اللغة الافرنسية كما كانت مدارس هيلفسورين تبث الثقافة الالمانية ، وكانت مدارس اليهود الدينية الارثوذكسية تدرس التلمود والتوراة باللغة العبرانية .

ولقد كان مستقبل الصهيونية قبل انفجار الحرب العالمية غامضاً مشكوكا فيه ،

---

(١) هذه مناطق في شرق الاردن . والتسميات هي توراتية . وجلعاد منطقة السلط اليوم كما ان مواب منطقة عمان ومادبا .

(٢) الراجح ان هذا المشروع هو الذي عرف بمشروع الاصفر . وقد كانت حكومة الاتحاديين مترددة بين الاعطاء والمنح فيه حيث كان بين اعضائها اختلاف في ذلك . ولقد هاج اهل فلسطين لاشاعات هذا المشروع وعقدوا الاجتماعات ورفعوا الاحتجاجات فلم يلبث ان تعطل .

(٣) العبارة توهم ان العدد هو عدد اليهود الزراعيين فقط في حين انه عدد جميع اليهود في فلسطين . المعرب

وكان استمرار اليهود في شراء الاراضي والهجرة يثير خوف اهل فلسطين وقلقهم ويحدو بهم الى رفع الاحتجاجات الشديدة ، على ان الدول الاوروبية باستثناء المانية كانت في موقف غير الآبه لهذه الحركة ، ولم تكن انكلترة خاصة قد ادركت بعد ما يمكن ان يكون فيها من عون عظيم لاهدافها الاستعمارية العظمى في الشرق .

— ٥ —

ان الاروام (١) الذين كانوا يقطنون في الاناضول والجزر المجاورة لسواحله قد دخلوا في الرعوية العثمانية منذ فتح القسطنطينية ، ولكنهم لم ينسوا اليونان القديمة ذاكرين دوما عهد حروب طرواده الممتزجة بالاساطير ، وفتوحات الاسكندر الكبير ومجد الحكم البيزنطي . وقد ظلوا تحت حكم الترك ملة متميزة تحت رئاسة وسلطة بطركهم . وكانت كتلتهم الكبرى تقطن في الانحاء الممتدة من باندرمة الى خليج ماركي في سواحل بحر مرمرة ، وفي الانحاء الاخرى الممتدة في خط طويل يصل الى رأس غاستيلوريزو غربا ، وكان قسم منهم يقطن في سواحل البحر الاسود وخاصة في المنطقة الواقعة بين سينوب وباطوم ، وقسم آخر في ولايات بورسة وسيواس وقونية ووديان طوروس العليا ، وكانت بقيتهم منثورة على سواحل الاناضول الغربية وفي الجزر الاثنتي عشرة وفي جزيرة قبرص .

ولقد تعرض اروام الاناضول واخوانهم في الروملي لاضطهادات تركية كثيرة وفي اوقات متعددة ، حتى لقد اوقع فيهم مذبحة عظيمة في ازمير عام ١٧٧٠ ؛ وحينما نشبت الثورة اليونانية في بلاد اليونان الاصلية ضد الحكم العثماني عام ١٨٢١ ازداد اضطهادهم واشتدت آلامهم ، حيث شنق بطركهم في الاستانة وقتل مطارنتهم في افس وازنيق ، وذبح منهم عدد كبير في ايوالق وازمير . وعلى الرغم مما حل فيهم فان عهد لندن ٢٢ مارس ١٨٢٩ لم ينقذهم ويلحقهم بوطنهم الام ، وكل ما كان منه ان ضمن لهم حق الهجرة اليه . ولم يكونوا محظوظين كالارمن ، فنسيتهم معاهدة برلين التي ذكرت هؤلاء بعناية ملحوظة . وكان من الطبيعي ان لا تظاهرهم روسية لانها كانت

---

(١) اي اليونانيين . المعرب

تبذل جهدها لقلع الرهبان اليونانيين من مؤسسات البطركيات الارثوذكسية واحلال الرهبان الروس محلهم .

— ٦ —

ان نظام لبنان الذي تقرر سنة ١٨٦١ قد ازال الحكم الاقطاعي السابق ، مع ان هذا الحكم ساعد كثيرا في حماية حرية الاهلين المدنية والدينية . وقد اصبح لبنان بذلك النظام متصرفية مستقله استقلالا اداريا يقوم على رأسها متصرف يعينه الباب العالي لمدة خمس سنين ، ويقترن تعيينه بموافقة الدول الموقعة على النظام ، ويساعده مجلس اداري اهلي منتخب ، ويحفظ الامن والنظام فيه قوة من الدرك المحلي .

غير ان الدولة العثمانية لم ترع عهدها ، وسارت في سياسة الغاء امتيازات اللبنانيين خطوة بعد خطوة ، وكان هؤلاء لا يفتأون يطالبون باصلاح نظامهم ، وخاصة بحدودهم التي كانت لهم قبل سنة ١٨٤٠ ، وقد كان هذا الطلب الاخير مما تناوله النقاش في اثناء مذاكرة وضع نظام لبنان الجديد فاستبعد عن البحث بمعارضة اللورد دوفرين ، في حين كان ضم سهول البقاع وعكار وثغور بيروت وطرابلس وصيدا من الامور الحيوية جدا للبنان ، ولا سيما وان حالته الاقتصادية اخذت تسوء يوما بعد يوم .

ولقد بعث انقلاب عام ١٩٠٨ (١) في نفوس اللبنانيين آمالا كبيرة ، غير ان رجال تركيا الفتاة لم يلبثوا ان ساروا على النهج القديم الذي كان يسير عليه السلطان ، ولم يساعدوا اللبنانيين الا في امور تافهة جدا تتصل بكيفية تأليف مجلس الادارة وبتشكيلات الماليه والعدلية . وقد سمحوا بفتح ميناءي جونية والنبي يونس للملاحة .

ولقد حدا الاسلوب الاداري المركزي الضيق الذي سار عليه رجال تركية الفتاة بالسوريين مسلمين وغير مسلمين الى المطالبة باستقلال اداري على نمط لبنان . وفي سنة ١٩١٣ وضعوا منهجاً لا مركزيا واسعاً يقربهم الى الاستقلال الذاتي ، واخذوا يسعون في سبيل تحقيقه وكان ينص على بقاء سلطان الدولة على بلادهم ، ولم

---

(١) اي اعلان الدستور .

يبد من واضعيه اي ميل انفصالي ، وحرصوا على ان تظل الرابطة بين بلادهم وحكومة الاستانة قائمة وطيدة ، وكان كل مطلبهم ان يكون لهم شأن ومشاركة في ادارة الشؤون الخاصة والمحلية .

وكما انشأ السوريون حزب اللامركزية انشأ اللبنانيون برآسة شكري غانم الجمعية اللبنانية للدفاع عن مصالحهم ، ولم يمض طويل وقت حتى وحدت وحدة الميول والمطالب والعنصر والخطر بين السوريين واللبنانيين ، فنسوا ما بينهم من خلاف ديني وسياسي ووحدوا مساعيهم ، ونشأ عن هذا مؤتمر سوري لبناني انعقد في باريس في حزيران عام ١٩١٣ وشهده مندوبون عن سورية ولبنان والمهاجرين في مختلف الانحاء (١) ، وارسل المؤتمرون مطالبهم الاصلاحية الى الدولة العثمانية والدول الاخرى ، وهذه المطالب المتسامحة التي ظلت في نطاق التضامن والاتحاد العثماني صارت اساس منهج الوطنيين السوريين واللبنانيين في اثناء الحرب .

ومع ان مسائل لبنان وسورية قد اصبحت دولية منذ معاهدة باريس ، فان فرنسة كانت هي التي تتقدم وتبادر في كل خطوة او سعي يقتضيها الامر في صدد هذه المسائل . ففي سنة ١٨٦٠ مثلا عهد اليها بمهمة حماية الموارنة والنصارى تجاه الدروز . ومنذ ذلك الوقت لم تأل جهداً في الدفاع عن اللبنانيين ازاء الاضطهادات التركية ، ولم تكن مظاهرتنا للنصارى لتمنعنا من تأييد مطالب المسلمين السوريين ، لاننا كنا نرغب في نفع جميع السوريين بمساعينا وجاهنا مهما كانت اديانهم (٢) ، ومن اجل ذلك اتحدنا مع الدول الاخرى في طلب اصلاحات تقوم على اساس اللامركزية ليس للبنان

---

(١) اشترك في انشاء الحزب سوريون ولبنانيون كما انه اندمج فيه عراقيون ايضاً . ومع ذلك فان منهجه لم يكن قاصرا على اللامركزية للولايات العربية بل كان شاملا ولهذا فقد كان اسمه « حزب اللامركزية العثماني » . والاسم التاريخي للمؤتمر هو « المؤتمر العربي » لا « السوري اللبناني » ولم يقتصر على السوريين واللبنانيين كذلك بل اشترك فيه مندوبون عن العراق كما ان رجالات العراق ايدوه من مختلف مدنهم ايضاً ... المعرب

(٢) لقد كان بين السوريين المسلمين اصدقاء كثيرون لفرنسة من جملتهم الامير عمر الجزائري حفيد الامير عبد القادر . المؤلف

فقط بل لجميع سورية ايضاً ، مقابل اعطاء القرض الذي طلبه الباب العالي للاستعانة به على تضميد جراح حرب البلقان . وفي سنة ١٩١٢ جاء الطراد الافرنسي جولوفري الى ميناء جونيه الصغير ، وزارت هيئة قيادته بطرك الموارنة زيارة رسمية . وفي كانون الاول من السنة نفسها وجه المسيو بوانكاره الى الدولة العثمانية انذاراً علنياً في خطاب القاه امام مجلس الاعيان ، ونصحها بالاصغاء الى مطالب السوريين واللبنانيين وتقبلها بقبول حسن . وكانت الاحوال تبشر بحل يبعث على الارتياح للمسألة السورية اللبنانية قبيل انفجار الحرب العالمية ، ولكن الترك لم يلبثوا ان اغتنموا فرصة هذه الحرب فشفوا غليل احقادهم من السوريين وخاصة من اللبنانيين بسبب ميولهم ومساعيهم في سبيل الاستقلال الاداري .

— ٧ —

هذا ، وبالرغم من ان المساعي التي بذلت والمنظمات التي انشئت استهدافا للاستقلال الذاتي في لبنان وسورية قد كانت من قبل بعض السوريين في اول الامر ، فانه ينبغي ان لا يخلط بين هذه الحركة والحركة الانفصالية العربية التي كان انصارها يسعون وراء خيال جمع العرب اي المتكلمين بالعربية الخاضعين للحكم العثماني وخاصة الساكنين في مختلف انحاء آسيا الصغرى تحت سلطة مستقلة عن الاستانة ، وانشاء خلافة عربية منفصلة عن الخلافة العثمانية .

ولقد تبنى هذه الفكرة التي الهمها نابوليون في اول امرها بعض السوريين المثقفين الذين طردوا او فروا من البلاد العثمانية بسبب نشاطهم السياسي ، فانشأوا في باريس سنة ١٨٩٥ جمعية سموها « الجمعية الوطنية العربية » واقاموا لها فروعاً سرية في الولايات العثمانية العربية لبث الفكرة بين العرب . وكانت هذه الحركة في العهد الذي ادرك السلطان عبد الحميد فيه ان نفوذه في اوروبة آخذ بالانهيار ، ونصح فيه من قبل فون درغولتز بتوجيه انظاره الى آسيا .

ولقد قامت في ذهن عبد الحميد حينئذ فكرة توطيد نفوذه وطاعته في الانحاء البعيدة من الامبراطورية التي ظلت مفلتة نوعاً ما من سلطة الترك . فأمر في سنة ١٩٠٠ بانشاء خط برقي بين دمشق والمدينة المنورة ، وقرر انشاء خط حديدي يربط

المدينتين المذكورتين ببعضهما ، وكانت الحجة الظاهرة تسهيل اداء الحج ؛ ولكن القصد الحقيقي هو تسهيل نقل الجيوش لقمع الثورات التي اخذت تقوم في بلاد العرب . ومع ذلك فان هذه الثورات ظلت تتكرر ، وتشتد احيانا . وقد هزم فيضي باشا سنة ١٩٠٤ من قبل امير نجد كما طرد الثوار في السنة التالية الحاميات التركية من اليمن والعسير والحجاز .

ولقد اذاع نجيب العازوري مساعد متصرف القدس السابق بياناً عن المسألة العربية لفت الانظار اليها واثار ضجة كبيرة في صددها . وبعد قليل قدمت الجمعية العربية الوطنية للدول مذكرة عن رغبة العرب في الانفصال عن الترك وانشاء امبراطورية خاصة بهم . وقد رسم لهذه الامبراطورية حدود تمتد من وادي الفرات ودجله الى قناة السويس ومن البحر الاحمر الى عمان على ان يكون حكمها ملكياً حراً دستوريا ، وكان من المتصور للتفريق بين السلطة الدينية والزمنية انشاء دولة مستقلة تضم ولاية الحجاز ومنطقة المدينة المنورة يكون حاكمها خليفة روحانياً لجميع العرب . وكان منهج الجمعية ينص على رعاية حقوق لبنان وحرية الاماكن المقدسة في فلسطين ، واحترام امتيازات ومصالح الدول المختلفة .

ولقد نفثت الانقلابات العثمانية في سنتي ١٩٠٨ و ١٩٠٩ (١) روحاً جديدة في الحركة الانفصالية العربية فثارت اليمن في سنة ١٩١١ ثورة جديدة . وحدثت بعض الوقائع التمردية في سورية والعراق ، وكلفت هذه الاحداث خزانة الدولة نفقات باهظة ، وحدت بالدولة اخيراً الى بعض التسامح وخاصة في امر اللغة العربية ، فصارت المرافعات والشكاوي ترفع بها ؛ والعلوم تدرس في المدارس بها ، وكثر الاهتمام اكثر من ذي قبل لتعيين العرب في وظائف الدولة في البلاد العربية . (٢)

وبالرغم عن كل هذا فقد اشتد الخلاف بين رجال تركية الفتاة والعرب كثيراً

---

(١) الراجح انه يقصد بانقلاب عام ١٩٠٩ الحركة التي ادت الى خلع السلطان عبدالحميد . المعرب

(٢) هذه الاصلاحات كانت نتيجة مباشرة للحركة الاصلاحية ومساعي اللامركزية ومؤتمر باريس المعرب

قبيل انفجار الحرب العالمية ، واذا كان السوريون واللبنانيون اصابهم بغي الترك اثناءها شفاء لغليلهم من الحركة العربية على ما اشرنا اليه قبل قليل فقد سلم من ذلك اكثر العرب بفضل وضع بلادهم الجغرافي .

— ٨ —

على ان احياء امبراطورية الخلفاء الغابرة كان من الامور التي يصعب تحقيقها في هذا الدور . فهذه الامبراطورية انما قامت ونجحت بسبب تبرم السكان من استبداد الامبراطورية البيزنطية وسوء تصرفها ، ولم يكن للعرب في الحقيقة اي اثر ايجابي في الامر ، ولم يكن اذ ذاك شيء يقال له قومية متماسكة . ولقد كان يسكن في بلاد العرب ثلاث مجموعات مختلفة :

الاولى الاسماعيلية السامية ، وكانت تقطن في انحاء سينا ومعان والحجاز والنفود ونجد .

والثانية الحميرية الحبشية ، وكانت تقطن في اليمن والعسير .

والثالثة البلوجيون الآريون الذين يجمعهم عرق واحد وكانوا يقطنون في انحاء عمان وجزر البحرين (١) .

---

(١) ان المؤلف يلقي الكلام على عواهنه كما يفعل كثير من المستشرقين الاجانب . فقد تجاهل الحركة الاسلامية واثرها في يقظة العرب الكبرى وتوحيدهم ، وتجاهل الحركة التي سبقتها وما كان من اثر الأشهر الحرم وعمومية الحج وشهود مواسمه من قبل جميع العرب الآتين من مختلف الانحاء ، وما كان من التمازج الشديد الذي وحد تقريبا بين لهجات العرب وقوى تواصلهم وجعلهم يشعرون بكونهم أمة متميزة بلسانها العربي ازاء الامم الاعجمية اللسان ، وتجاهل الدعوة والمبادىء الاسلامية التي حملها المسلمون وخاصة قوادهم والبارزون منهم الذين كانوا اصحاب رسول الله والمؤيدين له والمستغرقين في دعوته التي نشروها وتصرفوا وفقا لها في البلاد التي حلوا فيها ، والتي كانت متحدة في الأسس والمصدر مع النصرانية التي كانت سائدة في بلاد الشام والعراق ومصر وشمال افريقية ، وما كان لذلك من اثر قوي في سكونهم اليهم اجمالاً ، وتفضيلهم اياهم على الحكام الغرباء مع ما تجمع بينهم من وحدة الدين . ثم تجاهل الكتل العربية الكبيرة التي كانت تملأ المدن والقرى والبوادي في بلاد الشام والعراق والذين انضموا الى الفاتحين على اعتبار ان عزهم ونصرهم نصرهم ، سواء منهم الذين اسلموا فورا او الذين احتفظوا بنصرانيتهم ، ثم تجاهل حقيقة ناصعة اخرى هي عراقة عروبة اليمن واصليتهم فيها . وشذ عن

وكان وطنيو العرب في استهدافهم جمع الذين يتكلمون باللغة العربية في كيان واحد انما يتورطون في مشكلة معقدة خطرة ، ومن جهة اخرى فان ما كان في زمن النبي محمد « صلعم » من الحماسة التي ولدها الدين الجديد ، والسعي في نشره لم يعد موجوداً ، كما ان الرابطة الدينية لم تظل قائمة، حيث نجمت افتراقات دينية عديدة ، ولم يكن لفكرة الوطن اي معنى وقيمة عند هؤلاء الناس الذين يتألف معظمهم من البدو ، والذين يفصل بينهم صحاري الرمال الشاسعة التي كان يصعب اجتيازها قبل الحرب ، وكانت كل قبيلة تحسد الاخرى وتتربص بها ولم يكن في الامكان قط اتفاق زعمائهم على شخص يخضعون لسلطته ليقوم على رأس الامبراطورية المتخيلة ، وكان كل الزعماء يدعون الانتساب الى النبي (صلعم) وكل منهم يرى انه اهل للخلافة (١) في حين انْ منهم من كان ضعيف النفوذ جداً كما انهم كانوا محرومين من المال الذي لا بد منه لتأمين نفوذهم السياسي الديني .

ولقد كان اثنان من هؤلاء الزعماء يلفتان اليها النظر بنوع خاص قبل الحرب العالمية ، وهما عبد العزيز ابن السعود امير الوهابيين الشاب ، والحسين بن علي شريف مكة الجديد .

حقيقة وحدة الارومة التي تجمع العرب الشماليين والجنوبيين والتي يعبر عنها في الاصطلاح التاريخي بالارومة السامية حيث يقررها للشماليين دون الجنوبيين كما يفهم من كلامه ، واصدق منه نظرا وايضاحا غوستاف لوبون الافرنسي في تقريره هذه الحقائق وتقريره قوة الابداع العربي وقابلية العرب التي كان لها الفضل الاكبر في نجاح وازدهار الامبرطورية العربية .

المعرب

(١) ان الخلافة في اصلها تعود الى القرشيين . ولكن احفاد النبي هم ذوو الحق فيها ، وكان شرفاء مكة هم الوحيدون الذين لايتحمل حقهم اعتراضا ما ولم يعترض عليه في وقت ما ، وكان هؤلاء لا يعترفون الآ بقرابة بضع عائلات هي عائلة سلطان فاس الحالي . وعائلة الامام يحي امير اليمن وعائلة الاشراف المعروفين بأشراف الحرمين في جنوب بلاد العرب . وعائلة الاشراف المعروفين بالبارزانية الموجودين في بلاد الكرد .

المؤلف

وهذا التعليق كما ان كلام المؤلف في المتن ملقى ايضا على عواهنه من الوجهة العلمية والتاريخية والواقعية كما لا يخفى .

المعرب

وكان الاول وهو حفيد ابن السعود الكبير يجد في اعادة الامبراطورية الوهابية التي انهارت بحملة محمد علي الى نجد والتي كان من نتائجها شنق الزعيم الوهابي الكبير في الاستانة . وقد اقدم عبد العزيز الشاب الذي لبث لاجئاً مدة طويلة في الكويت على النضال مفاجأة في اوائل القرن العشرين ، وانتصر على خصمه ابن الرشيد امير حائل وشمر ، وانتزع منه بين سني ١٩٠١ — ١٩٠٦ الرياض وواحات نجد ، كما وفق في سنة ١٩١١ الى طرد الترك عن سواحل الحسا ؛ ولم يبد من سلطان نجد الشاب الذي كان يسعى الى جمع العرب تحت سلطته في نطاق مذهب ديني متشدد اي ميل او استجابة الى ايحاءات وتوجيهات الزعماء السوريين .

وكان الشريف حسين بن علي قد عين لامارة مكة عام ١٩٠٥ ، ولكنه لم يستلم زمامها الا في سنة ١٩٠٩ ، وبينما كان ابن السعود محاربا عظيما كان الحسين بن علي يمثل طابع الموظف التركي — العربي ، فقد اقام في الاستانة سنين عديدة ، وترعرع ابناؤه فيها ، وشغل مناصب عديدة من جملتها عضوية شورى الدولة . ولما كان مندمجاً في جميع الاساليب السياسية الشرقية فقد كان يظن انه سيكون في بلاد العرب وكيلا مخلصاً لحكومة تركية الفتاة . ولكنه كان في الحقيقة يحمل في نفسه طموحاً عظيماً ، لان زعماء الجمعية العربية من السوريين اوحوا اليه انه قد يجوز يوماً ما لقب ملك العرب . وكان هذا الطموح مما اثار المنافسة والنزاع بينه وبين ابن السعود . وكان مما يسعى اليه هدا انتزاع قبائل عتيبه التي كانت تقطن بين الحجاز ونجد من نفوذ الحسين وسلطته مما كان ذا اثر في ذلك النزاع ايضاً .

فالبلاد العربية بسبب تشكلها الجغرافي ما كان يمكن ان تتفلت من سلطة الترك الا لتقع تحت هيمنة الدول الاوروبية المسيطرة على البحار والسواحل . وقد كان هذا القسم من بلاد الشرق الادنى موضوع تشاد وتنافس بين فرنسة وانكلترة منذ امد طويل ، واذا كانت فرنسة تضاءلت امام انكلترة بعد سنة ١٨٧٠ فقد قامت امامها مقابل ذلك المانية التي اخذت تحاول الاندساس في هذه البلاد من وراء الدولة العثمانية ، وصار كل منها يدس الدسائس وينصب الشباك حول زعماء العرب ويحاول عقد العهود معهم . غير ان هؤلاء الزعماء ظلوا يتجنبون اعطاء قرار صريح حاسم ازاء هذه المساعي

محتفظين بحرية تصرفهم بالنسبة للمستقبل .

ولقد كانت انكلترة تشجع الحركة الانفصالية منذ بدئها ، بل لعلها هي التي الهمتها ، مستهدفة بذلك معاكسة خطة الجامعة الاسلامية التي كانت المانية تحرض الترك عليها وتبثها في الامبراطورية العثمانية . وقد كان رجال الجمعية العربية الوطنية يلقون تعضيداً وترحيباً كبيرين من قبل ممثلي الانكليز في مصر ، لان موظفي انكلترة الاستعماريين كانوا يستهدفون منذ امد طويل ادخال جميع القبائل العربية ضمن نطاق اتفاقهم ونفوذهم ، لانهم يقعون على طريق مواصلات الامبراطورية .

على ان انكلترة مع تشجيعها للحركة العربية القومية فانها كانت ابعد من ان تقبل بمنهجها كاملا ؛ فانها وقد ترسمت دائما وبكل انتباه سياسة التفرقة التي تساعدها على بسط نفوذها بطمأنينة وهدوء بال ، لم تكن لترضى مهما كلف الامر عن قيام امبراطورية كبيرة قوية متحدة . فرئيس امبراطورية كهذه لا بد وان يرغب في الاستمتاع باستقلال كامل ، ولهذا فانها كانت تفضل على مثل هذا الكيان القوي الموحد كياناً اتحادياً مؤلفاً من دول صغيرة محتفظة بكياناتها الخاصة ، حتى يشعر رؤساؤها بالحاجة الدائمة اليها لتكون حكما وموفقاً في ما ينشب بينهم من خلاف ونزاع . كذلك فانها لم تكن لتتنازل عن نفوذها الموطد في المحمرة والكويت والبحرين ومسقط وحضرموت لمصلحة امبراطورية عربية كبرى . ومن جهة اخرى فان مسألة الخلافة كانت في نظر انكلترة حساسة دقيقة ، فهي مضطرة الى حساب عواطف وميول مسلمي الهند فيها ، وهؤلاء كانوا يميلون الى الترك اكثر من العرب ، ويرغبون في الاحتفاظ بالولاء لخليفة الاستانة .

ولقد قضت هذه الظروف على حكومة لندن ان تسير باحتياط وتحفظ شديدين في امر السياسة العربية ، وكان اختلاف وجهات النظر بين ممثلي الانكليز في مصر والهند مما يزيد في ضرورة هذا الاحتياط والتحفظ ايضاً . هذا بالاضافة الى ان الانكليز لم يكونوا ليطمئنوا الى المصريين ويعتمدوا عليهم ، حيث كان هؤلاء بسبب حنقهم على الاحتلال الانكليزي يميلون الى الترك ولا يؤيدون الصداقة العربية الانكليزية . ومما هو جدير بالذكر ان الخديوي عباس الثاني لم يكد يتسنم العرش حتى

اخذ يجهر بكرهه للانكليز وتحريضه عليهم بين سمع ممثلي بريطانيا في مصر وبصرهم. وكانت حكومة دلهي مستمرة في موادتها لابن السعود، ولكنها لم تكن مطمئنة الى كفاية قوته وسلطانه في نجد، هذا في حين ان اللورد كتشنر كان يعلق املا كبيراً على الحسين بن علي؛ وقد استطاع ان يطلع على حقيقة مطامحه ونواياه من اجتماعين تما في القاهرة في سنتي ١٩١٢ و ١٩١٤ بينه وبين ابنه الثاني الامير عبدالله الذي كان عضواً في المجلس النيابي العثماني.

ومهما يكن من امر فان هذه الصلات الخفية التي استطاع الانكليز انشاءها في جزيرة العرب ضمنت لهم امكان النشاط فيها منذ نشوب الحرب العالمية، وجعلتهم وسطاء بين العرب والحلفاء. اما اولياء الامر عندنا فكما انهم لم يستطيعوا ان يدركوا خطورة وضرورة الصلات بين فرنسة وروما (١) فانهم لم يستطيعوا كذلك ان يدركوا خطورة وضرورة الصلات بين فرنسة ومكة في حين كانت فرنسة هي الاخرى دولة اسلامية كبرى.

---

(١) يقصد الفاتيكان والبابا.

الفصل التاسع

التفاهم على مسائل الشرق الادنى قبيل الحرب

•

ان الغاية المتوخاة من معاهدة بغداد هي تقسيم الاناضول الى مناطق نفوذ ، غير انه كان من الضروري اجتناب استعمال هذا التعبير رعاية لعواطف السلطان . . .

من خاطرات البرنس ليتنوفسكي

•

تقسيم آسيا العثمانية الى مناطق نفوذ اقتصادية - التفاهم الروسي الالماني في ١٩ اغسطوس سنة ١٩١١ - المفاوضات الدولية في سبيل اتمام انشاء خط حديد بغداد - التفاهم الافرنسي الانكليزي في كانون الاول سنة ١٩١٢ - التفاهم الانكليزي الطلياني في ١٩ مايس سنة ١٩١٤ .

— ١ —

حينما اخذت شوائع الحرب تثير اوروبة وتهزها اشتد نشاط حكومات الائتلاف الثلاثي (فرنسة — انكلترة — روسية) في سبيل حفظ السلام . ولما لم تكن المانية راغبة في تعجيل الاشتباك مع انكلترة فانها كانت في موقف المضطر الى المسايرة والتظاهر في الاستعداد لحل مسائل الشرق الادنى حلا موقتاً بالطرق الودية . ولهذا لم يكن في امكانها الامتناع عن الاستجابة الى دعوة المفاوضات في هذا السبيل للتدليل على حسن نيتها من جهة ، وعلى امل ان تجد فرصة لافساد ما بين الدول الصديقة الثلاث من جهة اخرى .

وهكذا اخذت تدور بين الدول منذ سنة ١٩١٠ مفاوضات ومداولات طويلة ودقيقة في سبيل تعيين حصة كل دولة في انشاء الخطوط الحديدية ، واستثمار ثروات الشرق الادنى ، وقد انتهى التجاذب والتدافع في هذا المضمار قبيل الحرب العالمية الى نتيجة تقسيم آسيا العثمانية الى مناطق نفوذ اقتصادية بحيث تنال كل دولة منطقة منها .

وكان هذا بمثابة بدء تقسيم الامبراطورية العثمانية تقسيما نهائياً .

ومن الصعب تقسيم هذه المداولات والمفاوضات الى اقسام متميزة . غير ان من الممكن تصنيفها بوجه الاجمال كما يلي :

١ ــ التفاهم الالماني الروسي في ١٩ اغسطوس سنة ١٩١١ نتيجة لاجتماع العاهلين في بوتسدام .

٢ ــ المداولات الدولية في شأن اتمام خط حديد بغداد .

٣ ــ الاتفاق الفرنسي ــ الانكليزي في كانون الاول سنة ١٩١٢ بشأن سورية .

٤ ــ الاتفاق الانكليزي الطلياني في ١٩ مايس سنة ١٩١٤ .

٥ ــ المداولات في شؤون نفط ايران والعراق .

وسنخص مسألة النفط بفصل خاص ، ونستعرض في هذا الفصل المسائل الاخرى.

ــ ٢ ــ

بتاريخ ٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٠ اجتمع عاهلا الالمان والروس في بوتسدام ؛ واجتمع وزيرا خارجيتهما معاً في الوقت نفسه ؛ وكان موضوع الحديث تسوية المشاكل المتصلة باتمام انشاءات شبكة حديد الاناضول الالمانية .

وقد اثار هذا الاجتماع قلق حكومتي باريس ولندن العظيم كما قدر غليوم الثاني ، ولما نتج عن هذا الاجتماع الاتفاق الروسي الالماني في ١٩ اغسطوس سنة ١٩١١ اشتد ذلك القلق كثيراً .

وقد ضمن هذا الاتفاق تخلي الروس عن اي معارضة للالمان في اتمامهم خط حديد بغداد ، وقبل القيصر الروسي بالاضافة الى ذلك بوصل شبكة حديد الالمان الاناضولية المستقبلة بشبكة حديد ايران الروسية المستقبلة ، لنقل قسم من الصادرات الايرانية الى البحر الابيض وخليج البصرة ، على ان يمد الفرع الى خانقين برأسمال روسي الماني معاً ، وهنا يتصل الخط بالفرع الالماني الممتد بين دلي عباس وسامرا . وقد اعترف بهذا الاتفاق كذلك بحق الالمان بطلب امتياز انشاء خط خانقين ــ طهران

اذا لم يبدأ الروس بانشائه بعد سنتين من وصول الخط الالماني الى خانقين ، ونالت روسية مقابل هذا اعتراف المانية بمنطقة النفوذ الروسية في شمال ايران ضمن الحدود المعينة في الاتفاق الروسي الانكليزي عام ١٩٠٧ ، كما اعترفت المانية ايضاً بحق الرجحان لروسية في انشاء الخطوط الحديدية في هذه المنطقة . وفي مادة سرية من الاتفاق تعهدت المانية بعدم انشاء اي خط حديدي في ارمينية ، وكانت روسية تستهدف بهذا حرمان الدوله العثمانية من شبكة تحشيد سريعة على حدود القفقاس الروسية .

— ٣ —

وبينما كانت المفاوضات تجري بين الالمان والروس كانت تجري مذاكرات بين الدولة العثمانية وبعض الدول في صدد اتمام انشاء خط بغداد .

لقد كانت لجنة المراقبة الاوروبية سمحت في عام ١٩٠٧ للدولة العثمانية باضافة ثلاثة بالمائة على رسوم الجمارك مقابل ما تقرر القيام به من الاصلاحات في مكدونيه . وقد نال السلطان في سنة ١٩١٠ اذناً برفع هذه الضميمة الى سبعة ، واستمرارها الى سنة ١٩١٤ . ومع ان مسألة مكدونيه قد حلت بين طرفي النزاع فقد كانت حالة الدولة العثمانية في حاجة ماسة الى استمرار جباية الضميمة الجمركية . فلما عقدت المانية معها اتفاق خط حديد بغداد صرحت لها بموافقتها على هذا الاستمرار . وقد حذت النمسا حذو المانية كتعويض عن الحاق البوسنه والهرسك ، كما ان ايطالية رضيت بذلك حين توقيع معاهدة اوشي التي اعترفت الدولة لها فيها بالسيطرة على طرابلس الغرب . ولم يبق الا دول الائتلاف الثلاثي .

ولقد امتعضت الدولة العثمانية مما اشيع من تعهد المانية لروسية في موضوع خطوط حديد ارمينية ، فحدا بها هذا الى التقرب من انكلترة وفرنسة ، واظهار حسن النية والود نحوها ، وقامت بدور الوسيط لحل النقاط المختلف عليها بين المانية من جهة وانكلترة وفرنسة من جهة اخرى في مسألة اتمام خط بغداد ، ونتيجة لهذه المساعي نالت موافقتها ايضاً على استمرار جباية الضميمة المذكورة .

ومن اهم ما استطاعت ان تفعله الدولة العثمانية اقناعها شركة الخطوط الحديدية الالمانية بالتساهل في مسألة نقطة انتهاء خط بغداد على خليج البصرة على وجه يمكن

ان يرضي الانكليز والافرنسيين . وقد وافق غليوم الثاني بسهولة على رغبة الباب العالي ، لوثوقه بامكان تلافي الضرر بتعويضات اخرى ، وكان امله ورغبته في الهيمنة على الدولة العثمانية مما سهل عليه هذه الموافقة بنوع خاص . وكنتيجة لهذا تنازلت الشركة الالمانية عن حصر حق انشاء القسم الاخير من خط حديد بغداد فيها وهو القسم الممتد الى البصرة ، ونالت مقابل ذلك فوائد مالية عظيمة كما نالت حقاً في الاشتراك في انشاء هذا القسم مساويا لحق افضل الدول فيه . وكان الاتفاق يحل في ذات الوقت مسألة انشاء فرع خلف — بغداد ، وبالاضافة الى هذا كله فقد نالت المانية امتيازاً بانشاء مرفأ اسكندرونة ، وانشاء فرع حديدي يربط هذا المرفأ بمحطة العثمانية . ولقد كان في هذه الامتيازات والمصالح المهمة التي حصلت عليها المانية اقصاء لنا عن كليكية بصورة قطعية ، وقد كنا تنازلنا قبل ذلك اي في سنة ١٩٠٦ للالمان عن جميع حقوقنا في خط مرسين . وقد حاولنا نيل بعض التعويض عما لحقنا من خسارة فقدم سفيرنا في الاستانة المسيو بومبادور في ٢٤ شباط سنة ١٩١٣ الى الباب العالي قائمة طويلة بمطالبنا جملتها حكومتنا مقابل موافقتها على استمرار جباية الضميمة الجمركية . وقد تضمنت القائمة :

١ — طلب امتياز خطوط صامسون — سيواس ، وسيواس — ارزنجان — ارضروم ، وسيواس — خربوط — ارغني ، وارغني بتليس — وان ، وارضروم — طربزون .

٢ — طلب حق تمديد خط حلب — رياق جنوبا الى الرملة .

٣ — طلب امتياز انشاء مرافيء اينه بولي واريكلي على شواطيء البحر الاسود ، ومرافيء طرابلس الشام ويافا على شواطيء البحر الابيض .

وقد اصررنا على وجوب قبول هذه الطلبات في اقرب وقت وبصورة نهائية ، لاننا كنا اذ ذاك امام منافسة جماعة شستر الاميركية القوية . وفي كانون الاول سنة ١٩١٣ قبل الباب العالي طلباتنا وألحق الاتفاق باتفاق مالي عقد في نيسان من سنة ١٩١٤ .

وحينما اخبرت روسية بمنهجنا في انشاء خطوط حديدية في الاناضول لم توافق عليه الا مع تحفظات شديدة ، كانت تستند فيها الى الاتفاق المعقود بينها وبين الدولة العثمانية عام ١٩٠٠ الذي تعهدت فيه الدولة بعدم اعطاء امتياز بخطوط حديدية لغير الرعايا

الروس في ولاياتهـا الشرقية . وقد كان من جملة شروط روسيا وتحفظاتها عدم ربط مدينة ارضروم بشبكة الحديد الافرنسيـة ، وربط طرابزون بخربوط عن طريق ارزنجان ، ولم يكن لنا بد من قبول ذلك لكيلا نترك المجال للجماعة الاميركية التي كانت تترصد الفرصة .

ولقد اشار المسيو بوانكاريه في مذكراته الى هذه التضحيات التي طلبتها روسيـة منا ، حيث يقول في هذا الصدد : « ان مصالحنا الاقتصادية في الاناضول كانت تصطدم كثيراً بالسياسة الروسية ، حيث كانت روسية تمانع اشد الممانعة في انشاء خطوط حديدية في المناطق التي كانت تقدر وقوع الحرب فيها بينها وبين الدولة العثمانية » .

وقد كانت مسألة اتصال شبكة البحر الاسود الحديدية التي نلنا امتيازهـا تتطلب ان نتفاهم مع المانية ، وفي هذا السبيل وضع مشروع اتفاق في تاريخ ١٥ شباط سنة ١٩١٤ يقوم على اساس مالي بين فرنسة وروزنبرغ وهلسفريخ ، وقد اتخذ الامبراطور هذا الاتفاق وسيلة الى الحصول على منافع جديدة من الدولة العثمانية ، فنال امتيـازاً بخط يربط ماردين وديار بكر بشبكة البحر الاسود الافرنسية ، وهذا الخط يتصـل بالشبكة في ارغني التي هي مركز تشغيل واستثمار معدن نحاس غني (١) ؛ وقد نال الالمان ايضا امتيازاً بخط يربط نصيبين ببغداد مخترقاً بلاد الكرد ومارّاً بطريق زاخو واربيل وكركوك ، واعطي لهم كذلك اذن بربط خط نصيبين — بغداد بفرع يصل الى خانقين وحدود ايران ، ويمر بسامرا ودلي عباس وهذا الخط يرتبط بشبكة الخطوط الروسية الايرانية المستقبلة التي اتفق عليها في اجتماع بوتسدام . وهكذا تكون المانية قد وضعت يدها على اهم الاقسام المنبتة والغنية بالمعادن في بلاد الكرد والقسم الشرقي من حوض النهرين .

وبينما كانت الدول العثمانية تتفاوض مع فرنسة كانت تتفاوض مع انكلترة ايضاً . وكانت هذه غير ميالة الى الموافقة على استمرار جباية الضميمة الجمركية لتعارض ذلك مع مصالحها التجارية . ومع ذلك فقد انتهت المفاوضـات بين الفريقين في ربيع عـام ١٩١٤ الى اتفاق تضمن الموافقة في نفس الوقت على ان تكون البصرة نقطة انتهـاء خط بغداد ، وعلى ان يكون لانكلترة عضوان في مجلس ادارة الشركة في كل ما

---

(١) ان عظم غناء هذا المعدن لفت انظار كل من المانية وروسية وفرنسة وصارت كل دولة من هذه الدول تحاول وتود ان تندس الى هذا المكان . المؤلف

له صلة بادارة وتشغيل قسم بغداد — البصرة . وقد اعترفت انكلترة في الاتفاق بحق سلطان الباب العالي على الكويت على شريطة اعترافه باستقلال شيخ الكويت من جهة وبجميع العهود القائمة بينه وبين انكلترة واحترامها من جهة اخرى . وقد تخلت الدولة العثمانية فيه كذلك عن جميع حقوقها ومدعياتها في البحرين وشبه جزيرة قطر وجميع منطقة عمان الممتدة الى مسقط ، ونالت انكلترة الى هذا كله حق الملاحة في نهر الدجلة الى بغداد ، وحق اقامة المنائر والمراصد والحفارة وما شابه ذلك في خليج البصرة . ولقد كان هذا الاتفاق قد نور الموقف وخفف التوتر ، فاصبحت انكلترة في حالة تسمح لها بالمفاوضة مباشرة مع حكومة برلين . وقد حكى البرنس ليشنوفسكي سفير المانية في لندن انه حمل في سنة ١٩١٤ من قبل غولمان على الدخول في مفاوضات مع السير ادوار غراي . ويستفاد مما حكاه البرنس ان السير ادوار غراي كان شديد الرغبة في عقد اتفاق انكليزي — الماني مشابه للاتفاق الانكليزي الافرنسي المعقود عام ١٩٠٤ والاتفاق الانكليزي الروسي المعقود عام ١٩٠٧ ؛ كما يستفاد ان وجهتي نظر المانية وانكلترة قبيل الحرب العالمية تقاربتا كثيراً الى درجة تبعث على الامل في امكان عقد اتفاق بين الدولتين على امور الشرق عامة ، بل وعلى شؤون الاستعمار ايضاً . واليك ما يقوله البرنس في هذا الصدد :

« . . . وفي نفس التاريخ كنت اتفاوض بالاشتراك مع غولمان في صدد عقد معاهدة باسم معاهدة بغداد . وكانت غاية هذه المعاهدة الحقيقية تقسيم الاناضول الى مناطق نفوذ غير انه كان من الضروري جداً اجتناب استعمال هذا التعبير رعاية لكرامة السلطان ؛ ولقد صرح السير ادوارغراي في اثناء المفاوضات اكثر من مرة انه لا يوجد بين بريطانية وروسية او فرنسة اي اتفاق على تقسيم الاناضول ؛ ولقد امكن بالاتفاق مع حقي باشا سفير الدولة العثمانية حل المسألة المتصلة بمشاريع المانية ، وتحقيق جميع رغبات دوتش بنك الرئيسية وكان اكبر تسامح ابداه السير ادوار غراي معي شخصياً موافقته على تمديد خط بغداد الى البصرة ؛ والواقع ان هذا كان قد اهمل من قبلنا على امل ايصال الخط الى الاسكندرونة ؛ وكانت بغداد في مشروعنا القديم من اجل ذلك هي منتهى الخط . وكان ما اتفق عليه ان تراقب الملاحة في شط العرب من قبل لجنة دولية ، وان يكون لنا حصة في انشاء مرفأ البصرة وفي

الملاحة في الدجلة ؛ وكانت هذه الملاحة الى هذا الوقت محتكرة في يد شركة لنش الانكليزية ؛ وبهذا الاتفاق اصبحت جميع منطقة ما بين النهرين الى البصرة منطقة نفوذ لنا باستثناء استمرار حقوق الانكليز المكتسبة في الملاحة في الدجلة ، وحقوق شركة ويل كوكس في اشغال الري ؛ وبالاضافة الى هذا فان جميع حوافي خط حديد بغداد — الاناضول تكون لنا ايضاً . وكان مجال انكلترة الاقتصادي يشمل سواحل خليج البصرة وخط حديد ازمير — ايدين . اما سورية فتكون مجال فرنسة كما ان ارمينية تكون مجال روسية ».

وهكذا تساهلت انكلترة مع الالمان هذا التساهل الواسع الذي يسمح لهم باستعمال واستثمار شبكة حديد الاناضول وبغداد ، غير انها حرصت على ان تظل حقوقها السابقة محفوظة ، ونجحت ولو موقتاً في ابعاد منافسها عن سواحل خليج البصرة ، وصار في امكانها تنفيذ مشروعها القديم وهو وصل الكويت ببور سعيد ، وتمديد الخط الحديدي الامبراطوري الى الهند بعد ذلك مارا بسواحل ايران الجنوبية ؛ وقد ثبتت كل هذه الامور في المعاهدة الالمانية الانكليزية المؤرخة في ١٥ حزيران سنة ١٩١٤ والتي اشار اليها السير ادوار غراي امام مجلس النواب في التاسع والعشرين من الشهر نفسه .

— ٤ —

ان الاتفاق الانكليزي الافرنسي عام ١٩٠٤ لم يثبت حدود المصالح الانكليزية الافرنسية في سورية ؛ وكان الاستعماريون الانكليز وموظفو الانكليز في مصر يعتبرون هذه المنطقة قطعة من مصر بالنسبة للمستقبل . وفي سنة ١٩٠٩ قام السير الون غورست برحلة الى هذه الانحاء ، فاثارت بعض الشوائع مما حدا بالحكومة الافرنسية الى طلب ايضاح عنها من لندن .

ولقد كان تزايد مطامع الالمان في آسيا العثمانية من جهة اخرى مما يفرض على كل من انكلترة وفرنسة الاتفاق على شؤون سورية ، وكان نظر انكلترة الى سورية قد تغير كثيراً بعد احتلال قواتها مصر ، وكان ما منحه الباب العالي لفرنسة والمانية من امتيازات خطوط الحديد قد خيب آمالها في خطط سيشني واندرو ولوفوت القديمة

ايضاً ، كما جاء انشاء خط حيفا — درعا العثماني محبطاً لامكان انشاء خط انكليزي يخترق الصحراء وينتهي الى حيفا ، ولم يكن قد بقي امامها الا امكان انشاء خط بين بور سعيد والكويت .

من اجل هذا كله لم يكن هناك مانع ما لتفاهم انكليزي افرنسي على شؤون سورية ، بل ان هذا اصبح ضروريا حينما منحت الدولة العثمانية للالمان في سنة ١٩١١ امتياز انشاء مرفأ اسكندرونة ووصله بخط حديدي لمحطة العثمانية . وقد خطيت الخطوة الى هذا اثناء مفاوضات البلقان ، واشار المسيو بوانكاره الى ذلك في خطبة القاها امام مجلس الاعيان في كانون الاول سنة ١٩١٢ حيث قال :

« لست في حاجة الى القول ان لنا مصالح تقليدية في لبنان وسورية ، واننا عازمون على تامين رعاية واحترام هذه المصالح ، واني استطيع ان اذكر مع هذا ان ما يذاع عن وجود خلاف بيننا وبين انكلترة في هذا الصدد ليس الا تلفيقاً لا يستند الى اساس راهن ، فان انكلترة قد صرحت لنا بلسان ودي صريح انها لا تضمر نية اي عمل في هذه المنطقة ، وانها لا تحمل اي مطمع سياسي فيها . كذلك اننا عازمون على الاستمرار في سياسة احترام تمام ملك الامبراطورية العثمانية في آسيا ، غير اننا لا نريد ان نتخلى عن اي تقليد لنا في هذه الامبراطورية ، اذ اننا لن نرفض انعطافا يوجه الينا نتيجة لتصرفاتنا وجهودنا كما اننا لن نرفض عن مس مصالحنا باي ضرر . »

ويقول المسيو بوانكاره في المجلد الثاني من مذكراته ان قسما من خطابه هذا قد اتفق على متنه مع وزير خارجية بريطانية السير ادوار غراى . ولقد صرح الوزير المشار اليه بعد القاء بوانكاره خطابه امام مجلس العموم باعتراف حكومته بمصالح فرنسة في سورية . وكما اشرنا سابقاً فاننا سارعنا الى الاستفادة من الاتفاق الذي تم ، حيث قدم المسيو بومبارد في ٢٤ شباط ١٩١٣ طلباً بتمديد خط حلب — رياق الى الرملة وبانشاء مرفأ طرابلس الشام وحيفا في سواحل سورية ، وحيث قبل السلطان هذه الطلبات في شهر كانون الاول من السنة نفسها .

ومع ذلك فان ما نلناه من الدولة العثمانية من امتيازات جديدة في سورية لن

يلبث ان اثار بعض الانكليز الاستعماريين ، وقد كان من نتيجة ذلك ان شعر السير ادوارغراي بضرورة تفسير الاتفاق الافرنسي — الانكليزي في ١٧ مارس سنة ١٩١٤ تفسيراً من شأنه تضييق مداه حيث اجاب على شكوى السير مارك سايكس احد نواب المعارضة الاستعماريين مما اعطي لفرنسة في سنة ١٩١٢ من توكيدات ومن طرز تفسير فرنسة لها ، فاكد استمرار بريطانية في سياسة التأييد لتمام ملك الامبراطورية العثمانية ، ونبهه على ان ما اعطي لفرنسة من توكيدات بسبيل تطمين قلبها لم يكن الا بشأن مصالح اقتصادية متصلة بامتيازات الخطوط الحديدية ، وانها لم تكن تعني تحديها لمنطقة نفوذ او موافقة عليها ، وان اسلوب التوكيد والتطمين انما كان بقصد تكذيب ما كان يدور من شوائع على جهود ومساعي وكلاء الانكليز او عمالهم في سبيل ضم سورية الى مصر ...

على ان العبارات التي نقلناها قبل قليل من مذكرات البرنس ليشنوفسكي توضح بجلاء لا مجال للريب فيه ما يجب ان يفهم من تصريحات السياسيين عن احترام تمام ملك الامبراطورية العثمانية في آسيا .

ومهما يكن من امر فان معرفة ما اذا كان رجال الحكومتين الافرنسية والانكليزية متفقين او غير متفقين في شؤون حدود وامور سورية من المسائل التي تستحق الاهتمام . فهل كانوا مثلا يعترفون بحدود سورية التي ثبتت في سنة ١٨٤٠ والتي كانت تشمل فلسطين وتمتد الى سينا ؟ على ان هنالك ما يحمل على القول بان فرنسة كانت موافقة على ان حدود سورية تقف عند جنوب الرملة التي كان يمر بها خط حديد يافا — القدس الضيق الذي نالت امتيازه شركة افرنسية عام ١٨٨٠ واتمت انشاءه وبدأت تستثمره عام ١٨٩٢ ، فلقد كان من المنطق ان يكون منح لانكلترة كل تسهيل ممكن لتنفيذ ما كانت تتصوره للمستقبل من مد خط الحديد الامبراطوري بين بور سعيد والكويت دائراً حول بحيرة لوط . ومن جهة اخرى فان الامتيازات التي نالتها المانية في منطقة كليكية وحلب قد حددت آمال ومطامع فرنسة بصورة صريحة بالنسبة لشمال سورية .

— ٥ —

لقد ذكرنا فيما سبق ما قامت به ايطالية من محاولات في تاريخ ١٩١١ — ١٩١٢ ، وبعد حرب طرابلس الغرب في سبيل تحقيق مطامعها الاقتصادية في مدينة انطاكية والمنطقة المواجهة لجزيرة رودوس من اقليمها ؛ وقد كان من شأن هذه المطامع ان تمس بمصالح انكلترة لان الشركة الانكليزية صاحبة امتياز خط ازمير — ايدين ايكريدير كانت تملك حق الرجحان في انشاء جميع الخطوط التي يمكن ان تمتد بين بحيرة ايكريدير وخليج انطاكية .

وقد جرت مداولات بين ايطالية وانكلترة حول هذه الامور انتهت باتفاق عقد بتاريخ ١٩ مايس سنة ١٩١٤ ؛ وعندما اخبر المركيز جوليانو مجلس النواب الطلياني بهذا الاتفاق بعد ايام قليلة من عقده ذكر بصراحة حدود منطقـة النفوذ المخصصة لايطالية في الاناضول .

ولقد جرأ التصريح الطليـاني حكومة النمسا فطلبت من الدول ان تترك لهـا المنطقة الشاغرة الواقعة بين المنطقة الطليانية والالمانية اي مدينة ألانية ومنطقتها .

الفصل العاشر

مسالة النفط

●

ان النفط يفضل الفحم من وجهة السرعة في حالة تساوي الكمية ، كما انه يحدث هذه السرعة في وقت اقصر . وان وزناً نفطياً ما يضمن طول زمن السير اكثر باربعين في المائة من مثل وزنه فحما وان الاسطول يستطيع بكل سهولة ان يحمل معه في عرض البحر ما هو في حاجة اليه من الوقود اذا كان نفطاً .

ونستون تشرشل

●

عروق نفط الشرق الادنى – الشركة الانكليزية الايرانية – شركة النفط التركية ..

— ١ —

يعلمنا التاريخ ان المصريين كانوا في الازمنة القديمة يستهلكون مقادير كبيرة من القار لدهن مراكبهم وتحنيط طيورهم المقدسة . واذا صدقنا المؤرخ العربي ابن الاثير فان النار اليونانية انما اخترعها رجل سوري مسلم بواسطة كمية قليلة من النفط احضرت من العراق . ولقد اشار كثير من السياح وخاصة في الازمنة المتأخرة مرات عديدة الى وجود النفط في مختلف انحاء التبت والعراق وسورية وفلسطين . واذا استثني نفط القفقاس الروسي فلأنه لم يكن يعرف شيء مهم عن عروق النفط في الشرق الادنى الى آخر القرن التاسع عشر الا ما كان يحصل عليه السكان المحليون من مقادير جزئية وبوسائل بسيطة جداً .

وقد عرف في عام ١٩٠٠ من الاختبارات المتعددة التي اجريت في ايران والعراق انه يوجد طبقة عظيمة من النفط تجري تحت الارض من بحيرة وان الى سواحل

خليج البصرة الشمالية . فكان لهذا الكشف خطورة عظمى لانه جاء في وقت اخذ المازوت فيه يستعمل وقوداً في الاساطيل الحربية . ولقد كان من الطبيعي ان تتحرك اطماع كل من انكلترة والمانية وروسية بمجرد العلم بهذا الكشف ، وما اسرع ما انشئت شركتان كبيرتان لاستثماره صارت اسهمهما موضوع تزاحم بين الدول .

— ٢ —

نال المهندس الاوسترالي الجنس الانكليزي الرعوية وليليام نوكس دارسي في ٢٨ مارس سنة ١٩٠١ امتيازا من الشاه باستثمار نفط ايران لمدة ستين سنة باستثناء الولايات الشمالية الخمس وهي ازربيجان وجيلان واستر اباد ومازندان وخراسان . ثم اخذ يبحث ويختبر الانحاء الواقعة على الحدود التركية الى ان وجد في قصر شيرين قرب خانقين طبقة غنية ؛ غير انه لم يقدم على استثمارها في الحال بسبب بعدها كثيراً عن البحر وانتقل في الاختبار الى الجنوب فوجد طبقة غنية كالاولى بين الاهواز وشوشتر على طول وادي قارون، وكان الاهلون يسمون هذا الوادي بوادي الزيت ، وكانت تسميته صحيحة حقاً . وحينئذ تقدمت جماعة انكليزية فاخذت العمل على عاتقها ، واستطاعت ان تنشيء عام ١٩٠٤ الشركة الانكليزية الايرانية بمساعدة واشتراك شركة زيت بورما الهندية ، ولم تلبث ان بدأت باقامة المنشئات الكبيرة في وادي قارون حيث حفرت فيه اكثر الآبار . ومن اهم ما انشيء خط انابيب يمتد على طول الوادي ويوصل منطقة شوستر التي هي اغزر المناطق نفطاً بجزيرة عبادان الواقعة قرب مصب شط العرب والتي انشئت فيها المصافي .

وكانت هذه الحركة في الوقت الذي اخذت الدول البحرية فيه تبحث في الوسائل التي تكفل لها المازوت الضروري في حالة نشوب حرب ما ، فانتدبت وزارة البحرية الانكليزية عام ١٩١٣ الاميرال سلاد لدرس امكانيات اشتراك الحكومة في ادارة الشركة الانكليزية الايرانية ، وكان الانكليز يعتقدون ان اسطولهم يستطيع في حالة نشوب حرب ما ان يسيطر على البحر الابيض وان ينتفع بنفط ايران بسهولة . وعلى فرض تعطيل النقل موقتاً بطريق السويس فانهم يستطيعون ذلك عن طريق المحيط التي هي مفتوحة امامهم دائماً . وبناء على نتيجة دراسة هيئة الاميرال سلاد وتقريرها

خصصت حكومة لندن مليوني جنيه لشراء خمسين مليوناً من اسهم الشركة العادية وخمسة ملايين من اسهمها الممتازة ، ثم رفعت هذا المبلغ بعد قليل الى خمسة ملايين .

ولقد كان ينقص الشركة امور كثيرة بسبب نقص المال ، فلما توفر لها هذا عن طريق الحكومة اقدمت على اتمام نواقصها سواء في الحفر تحت الارض او مد الانابيب وانشاء المصافي الجديدة .

على ان اشتراك الحكومة الانكليزية في ادارة نفط ايران اشتراكا قويا قد اثار احتجاج حكومة بطرسبرج ، لان عروق نفط قارون تقع في منطقة الحياد الايرانية التي ثبتت حدودها في اتفاق عام ١٩٠٧ ؛ غير انها كانت مع ذلك مستعدة للتخلي عن هذا القسم من منطقة الحياد لانكلترة مقابل تعويضات تمنحها لها هذه في حدود التبت والافغان ؛ لان روسية غنية جداً بالنفط . وقد ذكرنا في نبذة سابقة ان هذه المسألة كانت توشك ان تحل وتسوى في ما جرى من مفاوضات بين الانكليز والروس قبيل نشوب الحرب العالمية حول تعديل اتفاق عام ١٩٠٧ .

— ٣ —

ولقد كانت المانية التي تهيأت لانتزاع السيطرة على البحار من انكلترة مهتمة هي الاخرى للحصول على المازوت ، وحينما كانت انظار بريطانية متجهة نحو ايران كانت انظار الالمان متجهة في هذا الصدد نحو العراق . وقد منح امتياز خط حديد بغداد الشركة الالمانية حق استثمار معادن الاراضي الواقعة على جانبي الخط في عرض عشرين كيلومتراً من كل جانب . ثم نالت الشركة عام ١٩٠٤ حق الخيار لمدة سنتين في استكشاف حقول النفط في جميع مناطق ولايتي الموصل وبغداد ، فارسلت لجنة فنية لم تلبث ان اكتشفت عروقا غنية قرب الموصل تمتد على طول مجرى الدجلة ، كما اكتشفت عروقا اخرى في جهات زاخو وكركوك وقينير وخانقين ومندلي .

ومما يجدر ذكره ان اناساً من رعايا دول اخرى حصلوا في السنين التالية وخاصة بعد سنة ١٩٠٩ على حق استثمار المعادن في العراق ، ومن هؤلاء ممثلون لشركة دارسي الانكليزية الايرانية ، وممثلون للمصرف الوطني التركي الذي كان تحت سيطرة ممولين انكليز .

ولقد استطاع بنك دوتش الذي يمثل شركة خط بغداد عام ١٩١٢ ان يوحد في لندن حصص البنك الوطني التركي وحصص شركة انكلوسكسون التي هي فرع من شركة دوتش ــ شل الملكية ، وان يؤلف من ذلك كله شركة النفط التركية . وقد قام كلبنكيان الارمني الجنس ، الانكليزي الرعوية بدور الوسيط في هذا العمل ؛ وكان تقسيم رأس مال الشركة الموحدة على اساس الثلث لكل من دوتش بنك ، وشركة انكلوسكسون والمصرف الوطني التركي .

وفي سنة ١٩١٣ ظهرت مشكلة خطيرة ؛ فقد عينت لجنة لتحديد الحدود التركية الايرانية فقررت اعطاء قسم من منطقة امتياز شركة دارسي الانكليزية الايرانية في شرق خانقين الى الدولة العثمانية . وفي نفس الوقت حصل غليوم الثاني من السلطان على امتياز بتمديد فرع حديدي يمتد من سامرا الى خانقين . ولما كان امتياز شركة خط حديد بغداد الالمانية يشمل حق استثمار معادن جانبي الخط في عرض عشرين كيلو متراً فقد صارت بطبيعة الحال صاحبة الحق في استثمار عروق نفط القسم الذي اعطي للدولة العثمانية من حدود ايران ، حيث كان يقع في ساحة الخط الذي حصل الالمان على امتيازه مجدداً .

وقد كانت انكلترة آنئذ تتفاوض مع حكومة الاستانة في مسألة استمرار جباية الصميمة الجمركية ، فكانت في موقف يسمح لها بتأمين رعاية حقوق الشركة الانكليزية الايرانية ؛ ونتيجة لاتفاق تم في ١٩ مارس سنة ١٩١٤ انتقلت حصة المصرف الوطني التركي الى شركة دارسي ، فاصبحت هذه تملك خمسين في المائة من اسهم شركة النفط التركية ، وصار لها حق تعيين مدير الشركة الذي سيكون انكليزيا بطبيعة الحال ، وصارت حصة كل من الشريكين الاخيرين اي شركة انكلو سكسون ومصرف دوتش خمساً وعشرين في المائة (١) ثم تقرر اخذ اثنين ونصف في

---

(١) يتبادر لنا ان هنا خطأ ، فان حصة المصرف التركي في التقسيم السابق هي الثلث وحصة كل شريك من الشريكين الاخرين هي الثلث كذلك ، فكيف صارت حصة شركة دارسي نصفاً وحصة كل شريك من الشريكين ربعاً ، ونحن نقلناه كما جاء في الترجمة التركية .
المعرب

المائة من حصة انكلوسكسون ودارسي واعطائها الى كلبنكيان مقابل وساطته على ان لا يمثل في مجلس الادارة . وبهذه التعديلات اصبحت الحصص موزعة كما يلي : ٤٧٫٥٪ لشركة دارسي الانكليزية الايرانية و ٢٢٫٥٪ لجماعة انكلوسكسون (اي دوتش شل الملكية) و ٢٥٪ لدوتش بنك و ٥٪ لكلبنكيان .

وفي اتفاق نهائي وقع عليه في لندن بتاريخ ١٩ مايس سنة ١٩١٤ وضع شرط بعدم اشتراك اي واحد من الشركاء مع شركاء آخرين في استثمار نفط ما داخل الامبراطورية العثمانية . وكان مما اتفق عليه ايضاً اجراء النفط بالانابيب الى بغداد ونقله منها الى سواحل خليج البصرة في مراكب صهريجية . وهناك نقطة مهمة يجدر لفت النظر اليها وهي عدم شمول امتياز النفط لولاية البصرة .

وفي تاريخ ٢٨ حزيران سنة ١٩١٤ وقع السلطان امام سفير بريطانيا السير لويس ماليت (الفرمان) المرسوم الذي يمنح شركة النفط الانكليزية حق استثمار النفط المكتشف في ولايتي بغداد والموصل .



الفصل الحادي عشر

الحرب العالمية

●

ان العالم اذا لم يكن فهم في سنة ١٩١٤ فانه قد فهم الان حتما ان المانية قد عجلت الحرب وراء غاية ازالة دولة الصرب والاشراف على امم البلقان وجعل الدولة العثمانية دولة محمية لها ، فيتسنى لها بذلك انشاء امبراطورية شرقية واسعة تكون اساساً وقاعدة لفرض سيطرة غير محدودة على الدنيا باسرها . . .

من مذكرات السفير مورغانتو عام ١٩١٩

●

معاهدة بخارست وخطط اصحاب فكرة التبسط الجرماني - الحرب التي لم يمكن اجتنابها - فائدة اشتراك الدولة العثمانية للالمان - مهمة ليمان فون ساندرس - حادثة سيراجيفو - الحرب الاوروبية - دخول الدولة العثمانية الحرب .

— ١ —

ذكرنا في الفصل السادس ونحن نعرض خطط اصحاب فكرة التبسط الجرماني ان قيام الائتلاف الثلاثي جعل غليوم الثاني يدرك انه لن يستطيع تحقيق مطامعه في الشرق بغير القوة ، وانه مع اعتقاده بضرورة الحرب كان يريد تأخير نشوبها الى ان يصبح في امكان الاسطول الالماني مواجهة الاسطول الانكليزي بقوة متساوية ؛ ولم يكن دخول الامبراطور في مفاوضات تفاهمية على امور الشرق الا بقصد كسب الوقت فحسب ، وكان يأمل ان يفسد بدسائسه ما بين المتفقين وان يمزق بصورة خاصة الحلف الروسي الافرنسي ، ولم يكن من شأن حرب البلقان الثانية الا تعجيل تنفيذ قرار الحرب وسوق النمسا التي ظلت مترددة الى هذا الوقت الى جانب المانية بشوق وحماسة .

والواقع ان معاهدة بخارست التي وقعت بتاريخ ١٠ اغسطس سنة ١٩١٣ والتي

انتهت بها حرب البلقان الثانية قد حيرت واثارت الامبراطور فرنسوا جوزيف بقدر ما حيرت واثارت غليوم الثاني ، لانها تضمنت تقسيم جميع املاك الدولة العثمانية في اوروبة — باستثناء ادرنه والاستانة — بين الدولة البلقانية الرئيسية وخاصة بين دولتي الصرب واليونان . وبينما كان العاهلان ينتظران سحق الصرب واليونان من قبل الترك رأياهما تنتصران عليهم ، وكان من شأن انتصار الصرب سد باب الشرق في وجه المانية وسد طريق سلانيك في وجه النمسا . وهذا يؤدي الى عرقلة تنفيذ خطط التبسط الجرماني . يضاف الى هذا ان الصرب اصبحت خطراً دائماً على النمسا في صدد سيطرتها على البوسنه والهرسك ، فلا تنام بعده عن حقها القومي في هاتين الولايتين واستخلاص هذا الحق باية وسيلة . اما اليونان فسيغتنمون اول فرصة تسنح لهم لضم اروام الاناضول ومساكنهم الى الوطن الأم ، وهذا يؤدي كذلك الى عرقلة التبسط الجرماني في آسيا العثمانية .

من اجل هذا كله لم تكن دول اوروبة الوسطى لتقبل باحكام معاهدة بخارست كاحكام نهائية ، وصارت الحرب لهذا السبب واقعة لا محالة في برهة وجيزة ، حتى ولو لم تقع حادثة سيراجيفو . ولم يكن وقوع هذه الحادثة الا سبباً مباشراً ، وكانت المانية والنمسا قد اتمتا استعدادها للحرب فاغتنمتا فرصة الحادثة .

وخلال هذه الظروف تبدو خطورة الاتفاق العثماني الالماني في نظر غليوم الثاني ، حيث كان الوسيلة الوحيدة الى اسقاط قيمة الحلف الروسي الافرنسي الذي بذل جهوده طيلة سنين عديدة في سبيل تمزيقه ولم يصب نجاحاً . وكان يأمل من الاتفاق سد طريق المضايق في وجه روسية وحرمانها من مبادلة فحمها ونفطها بالسلاح والعتاد ، كما كان يأمل حمل روسية على استبقاء قوات مهمة في حدود القفقاس بمجرد اعلان الدولة العثمانية النفير العام ولو لم تدخل الحرب فعلا .

ولقد كان من المقدر ان تستجيب الدولة الى دواعي السياسة الالمانية . فقد كانت ظروفها المالية سيئة جداً نتيجة للحرب الطليانية والحرب البلقانية (١٩١١ — ١٩١٢ — ١٩١٣) ، ولقد فقدت كريد والبوسنة والهرسك وطرابلس الغرب وجزر بحر ايجه وقسما كبيراً من املاكها في اوروبة واحدة بعد اخرى ، وجعل هذا رجال من جماعة

تركية الفتاة يدركون شدة وسرعة حاجتهم الى مساعدة دولة كبرى ليتسنى لهم الاحتفاظ بمراكزهم .

فمن اي جانب يصح ان يأملوا هذه المساعدة ؟

ان فرنسة انتزعت من الدولة العثمانية املاكها في شمال افريقية ، واطلقت يد انكلترة في مصر عام ١٩٠٤ مقابل اطلاق هذه يدها في فاس ، ولم تفتأ تقدم الى الباب العالي طلبات متواصلة بامتيازات موانيء وخطوط حديدية في الاناضول وسورية وفلسطين ، وتقف موقف الحامي للاقليات . وايطالية انتزعت منها طرابلس الغرب . وظلت تحتل الجزر الاثنتي عشرة ، ولا تكتم مطامعها في الاناضول . وروسية عدوة الدولة التقليدية ؛ وكانت الغايات التي ترسمها في سياستها الاستيلاء على الاستانة والمضايق وارمينية واسكندرونة والقدس . اما انكلترة فانها لم تعد تقف موقف الحامي للامبراطورية العثمانية من مطامع روسية بعد ان تم التفاهم بينهما عام ١٩٠٧ ، وكانت الى هذا تحتل مصر وتنظر الى وادي الفرات ودجلة نظر الطامع الشره ، وتسيطر على خليجي البصرة والعقبة ، وتشجع حركة الانفصال العربية سراً ، ولم تفعل شيئاً في سبيل الحيلولة دون تمزيق الروملي خدمة لدول البلقان .

كل هذا في حين ان المانية هي وحدها من الدول الاوروبية كانت تبدو الى هذا الوقت ولو ظاهراً انها لا تسير ازاء الامبراطورية العثمانية سيراً عدائياً ، ولا تترسم منافع خاصة مضادة لمصالحها ، ولم تكن اشتركت في الضغط والموقف غير الودي الذي كان من الدول الاخرى في مسائل كريد ومكدونية ، بل انها التزمت جانب تركية في مواطن كثيرة ، وكانت الى هذا تبدو قوية جداً ومحترمة الجانب من الجميع . فاذا املت المانية رجال الدولة بانها تستطيع ان تعيد اليهم مصر وطرابلس الغرب وتونس ، وتمكنهم من القضاء على آمال العناصر التركية الموجودة في امبراطوريتهم بالحديد والنار فكيف يمكنهم ان يقفوا مترددين ولا يستجيبوا الى تلقينها وايحائها .

ولقد كان لغليوم الثاني في هذا الظرف مندوب خطير في الاستانة وهو البارون فون فانكهايم ، وقد حل في منصبه كسفير المانية عام ١٩١٢ خلفاً لفون بيبرشين ،

ولقد رأى السفير الجديد استعداداً حسناً في انور بك لاستماع اقواله ؛ ولم يلبث الاثنان ان اتفقا في سنة ١٩١٣ على تنظيم وتنسيق الجيش العثماني من قبل بعثة المانية جديدة .

ولم يكن هذا الاتفاق من قبيل ما كان جاريا في نطاق بعثة فون دغورلتز العسكرية الالمانية ، او بعثة الاميرال ليموس البحرية الانكليزية لتنسيق الجيش والاسطول لمدة معينة . بل جيءَ بليمان سندرس الذي يحمل صفة ممثل الامبراطور الشخصي والذي رقي الى رتبة المرشال في الجيش العثماني ليكون قائداً للفيلق الثاني ؛ وليتسنى له في الوقت نفسه ان تكون المضايق تحت سيطرته . ومع ان احتجاج دول الائتلاف الثلاثي قد احبط هذا المشروع من هذه الناحية فانه لم يمنع ان يسند الى ليمان سندرس وظيفة مفتش الجيوش العثمانية العام . وقد جيء بموجب ذلك الاتفاق كذلك بالجنرال برونسارت فون سيلندروف الى رئاسة اركان الحرب العامة ، واسند الى كثير من الضباط الالمان وظائف قيادة مهمة ، وصار ليمان سندرس متصرفاً بالقوات العثمانية كما يشاء ، وكان من الطبيعي ان يسير في تنسيقها وفقاً لمقتضيات الحرب المقبلة .

وكان مما يترسمه البارون فوق فانكهايم ايضاً امالة خديوي مصر عباس حلمي الى السياسة الالمانية واجلاء الاروام عن سواحل بحر ايجة ، واتخاذ جميع التدابير السياسية الضرورية لضمانة نجاح الامال الجرمانية .

ولقد ظل الحلفاء امداً غير قصير يأملون عدم وصول الحرب الى الشرق الادنى بسبب جهلهم امر المعاهدة الالمانية التركية السرية ، بالرغم من اعلان الدولة العثمانية النفير العام ، وقفلها المضايق قفلا يكاد يكون تاما ، ووصول البارجتين غوبن وبرسلو الى الدردنيل ، ولقد تقدم سفراؤهم الى الباب العالي بتاريخ ٢٣ اغسطس سنة ١٩١٤ بوعد ضمان تمام ملك الدولة وتقديم بعض المساعدات المالية والاقتصادية والسياسية . اذا التزم الحياد التام . غير ان الباب العالي ظل يتهرب من الاجابة الصريحة على هذا العرض .

وفي اوائل ايلول وضح جلياً ان الدولة العثمانية قد تشجعت بما كان من زحف،

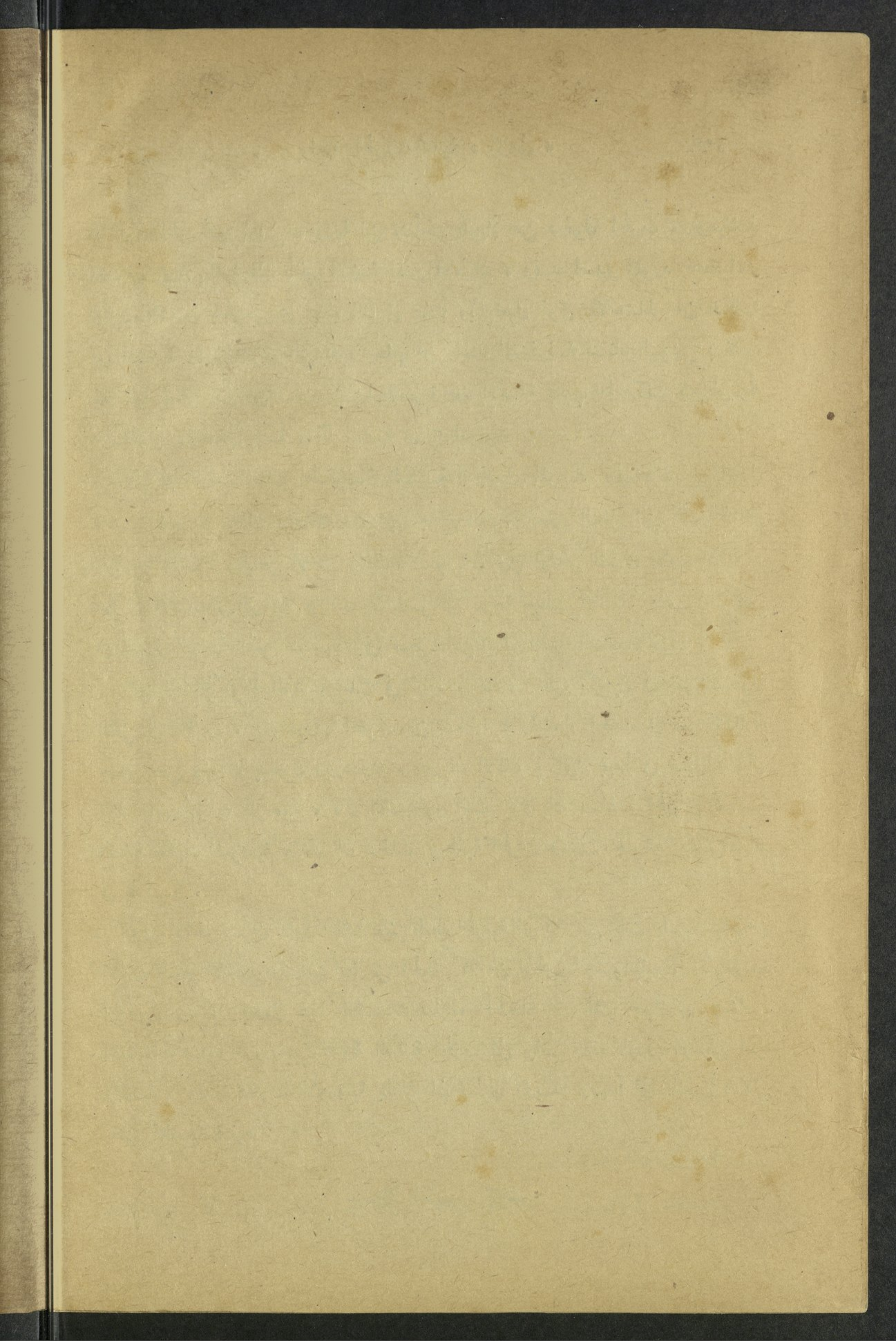
الالمان الظافر نحو باريس ، وانها لن تتأخر طويلا عن دخول الحرب . وحينئذ انصرف هم بريطانية الى تأخير الازمة بقدر الامكان ، وقد اصدر اللورد كتشنر اوامره المشددة بالحرص على بقاء الشرق هادئاً ريثما تصل فرق الاحتياط من انكلترة الى الهند ، وتعبر الفرق التي تقرر جلبها من الهند الى فرنسة قناة السويس بسلام ، غير انها لم تر بدأ من سحب بعثتها البحرية من الاستانة بسبب ما كانت تتعرض له من الدس والتحقير يومياً ، فتم سحبها في ٩ ايلول .

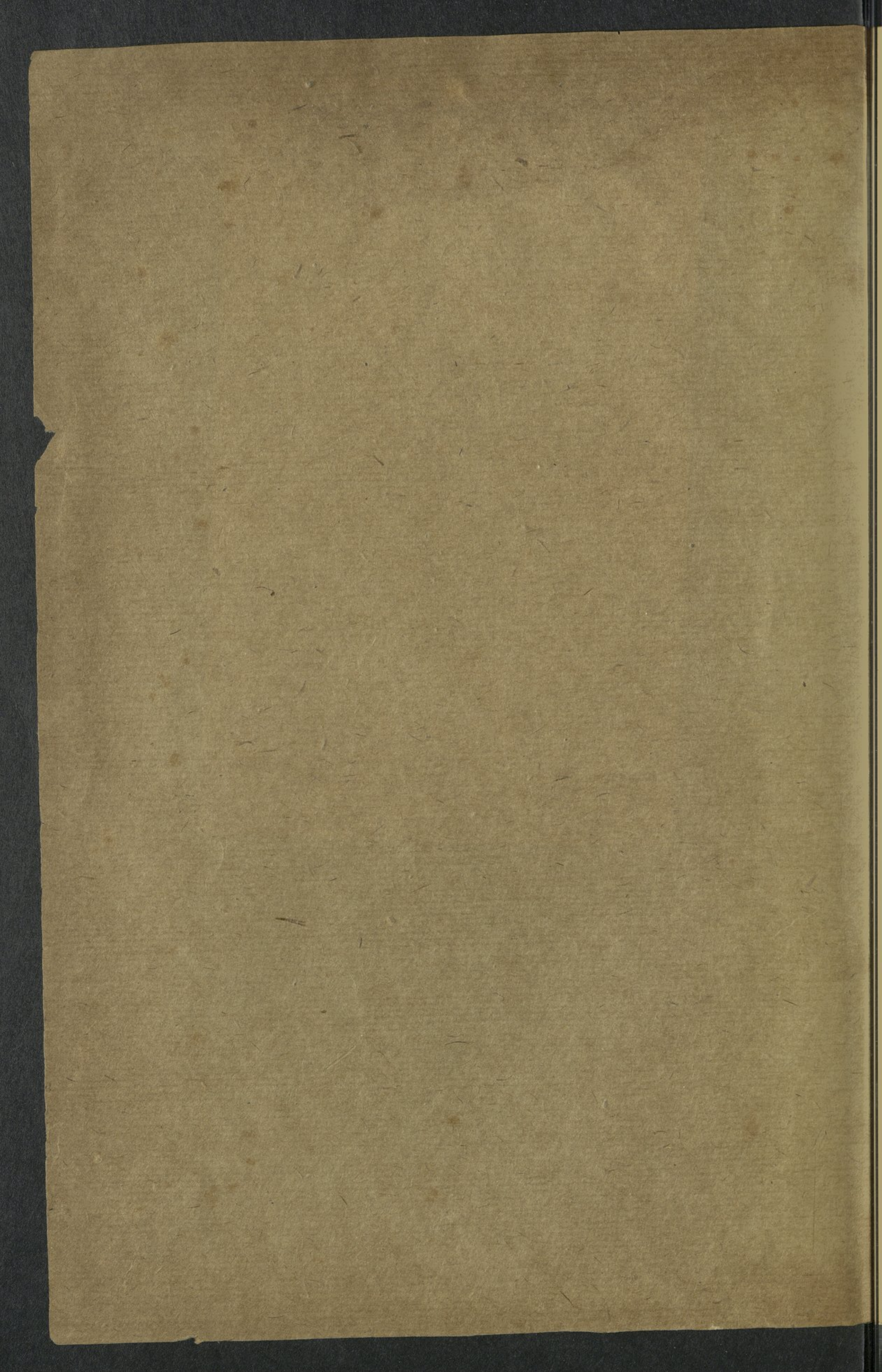
وفي ٢٧ ايلول اقفلت الحكومة العثمانية الدردنيل بالمرة ، وفي ١ تشرين الاول اعلنت الغاء الامتيازات ، واستدعت على جناح السرعة بعض السفن التي كانت لها في خليج البصرة والبحر الاحمر والمياه السورية ، وفي اواخر تشرين الاول اشتدت حركة الاستعداد التركية على حدود مصر الى درجة جعلت الانكليز يشعرون بالخطر ويسحبون قوات الخفر الموجودة في صحراء سيناء الى ضفة القناة الاخرى .

على ان الحكومة العثمانية ظلت في تردد واختلاف نظر كبيرين في امر الدخول الفعلي في الحرب . والواقع ان الخوف من انكلترة ، وانتصار الحلفاء في معركة المارن جعلا بعض وزرائها يقلقون ويترددون . غير ان الالمان لم يالوا جهداً في سبيل ايصال الامر الى نهايته المرجوة ، لان الامبرطور اصبح يرى ان مساعدة الجيوش العثمانية الفعلية صارت ضرورية ، بعد ان دخلت بريطانية الحرب ومنيت جيوشه ببعض الهزائم في فرنسة .

وفي اواخر تشرين الاول دخلت بعض القطع الحربية التركية التي كانت بقيادة ضباط من الالمان البحر الاسود وضربت بطريق الحيلة كلا من اوديسا وسيواستبول وتيودوسيا ونوفوروسك ، فحمل هذا الحادث سفراء الحلفاء على طلب جوازاتهم ومغادرة الاستانة وهكذا صار دخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب دول اوروبة الوسطى امراً واقعاً . وقدر للحرب الاوروبية بذلك ان تسري رويداً رويداً الى الشرق الادنى حتى شملته باسره .

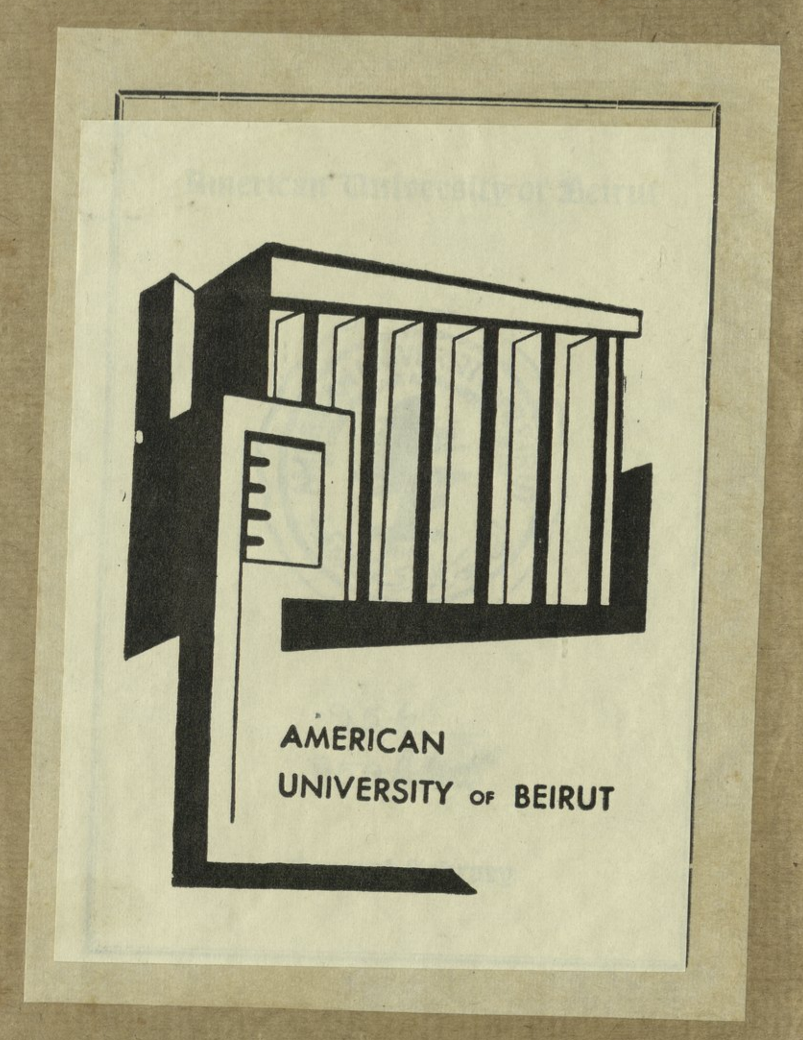
انتهى








دروزة ،محمد عزة
بواعث الحرب العالمية الاولى فى الش
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01054050


AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT